



دار العلم
المدينة العلمية

ملتقى علماء الإسلام تحت مظلة المبعث النبوي الشريف

البحوث التي القيت على هامش الملتقى

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م

إصدارات

مركز البحوث
الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملتقى علماء الإسلام
تحت مظلة المبعث النبوي الشريف

البحوث التي القيت على هامش الملتقى

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م

إصدارات
مركز البلاغي



دارالعلم للإعلام والحواسيب

مركز البالغية

Al-Khoei Institute
Al-Balaghi Centre

www.daralilm.net

info@daralilm.net

+964 760 188 8885

العراق - النجف الأشرف
مقابل العتبة العلوية المقدسة

الطبعة الاولى

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٥م

الفهرست

٩	تقديم
١١	الشيخ الدكتور محمود خلف جراد العيساوي
١٣	المقدمة
١٥	مركز البلاغي
١٩	الجلسه الافتتاحية
٢١	كلمة سماحة الشيخ محمد الخاقاني
٢٥	كلمة فضيلة الدكتور عبد الله ويسبي
٢٩	كلمة الدكتور حيدر الشمري
٣٥	كلمة الدكتور مشعان الخزرجي
٣٧	كلمة سماحة الشيخ محمد حسين الانصاري
٤١	كلمة فضيلة الشيخ الدكتور حسين السامرائي
٤٥	قصيدة سماحة الشيخ عبد الله الخاقاني
٤٩	كلمة فضيلة الدكتور حامد الحياني
٥٣	كلمة سماحة السيد جواد الخوئي
٥٧	البحوث
٥٩	البحث الأول
٦١	الإلحاد والجيل المعاصر دراسة إبستمولوجية
٨١	البحث الثاني
٨٣	أثر التطرف الفكري في هدم مقاصد الشريعة
٩١	البحث الثالث
٩٣	التطرف والعنف الديني
١١١	البحث الرابع
١١٣	التطرف ومخاطره المجتمعية
١١٩	البحث الخامس
١٢١	المخدرات واثرها في تفكيك النسيج المجتمعي
١٢٥	البحث السادس
١٢٧	أزمة المخدرات وأثارها المجتمعية
١٤٣	البحث السابع
١٤٥	مخاطر مجتمعية المخدرات انموذجا
١٤٩	البحث الثامن
١٥١	الانحلال الأخلاقي وأثره في الأسرة والمجتمع

١٥٥	البحث التاسع
١٥٧	الانحلال الأخلاقي للأسرة والمجتمع
١٨٩	البحث العاشر
١٩١	التحوّل الرقمي، قراءة في مراحلہ الثلاث
١٩٣	البحث الحادي عشر
١٩٥	الاعلام الرقمي المعاصر التحدّيات الإمكانيات الفرص في منظور الفكر الإسلامي
١٩٩	البحث الثاني عشر
٢٠١	في محور الاعلام الرقمي والمجتمع المعاصر
٢٠٣	البحث الثالث عشر
٢٠٥	مقدمة في اصلاح الخطاب الديني
٢٢١	البحث الرابع عشر
٢٢٣	في محور المنبر الوعظي وأثره في تشكيل الوعي الجمعي
٢٢٧	البحث الخامس عشر
٢٢٩	التعايش وإدارة الاختلاف بين الضرورة الانسانية والضرورة المجتمعية
٢٣١	البحث السادس عشر
٢٣٣	سبل التعايش السلمي بين أفراد المجتمع العراقي
٢٤٥	البحث السابع عشر
٢٤٧	التعددية في المنظور الإسلامي
٢٥٣	البحث الثامن عشر
٢٥٥	التعددية من المنظور الإسلامي
٢٦٥	البحث التاسع عشر
٢٦٧	لغة الخطاب الديني والثقافات المعاصرة
٢٨٧	البحث العشرون
٢٨٩	الخطاب الديني بين الأدلجة والتكفير العراق انموذجاً
٣٠١	البحث الواحد والعشرون
٣٠٣	الخطابة الحسينية وأثرها في الواقع الجديد
٣٢١	البحث الثاني والعشرون
٣٢٣	معايير الخطيب بين الواقع والمأمول
٣٢٧	البحث الثالث والعشرون
٣٢٩	لوازم وضوابط معايير الخطيب الناجح بين الواقع والطموح
٣٥٧	ملحق الصور

تقديم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
ومن دعا بدعوته وسار على نهجه إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ
الْمُسْلِمِينَ - فصلت: ٣٣﴾

لقد كلفني سماحة السيّد زيد بحر العلوم، حفظه الله، أن أكتب مقدّمة
(لكتاب بحوث العلماء) التي أُلقيت في الملتقى العلمي الكبير (ملتقى علماء الإسلام
تحت مظلة المبعث النبوي) الذي أقامه مركز البلاغي في دار العلم للإمام الخوئي،
رحمه الله، بمناسبة ذكرى المبعث النبوي الشريف. وقد اطّلعْتُ على هذه البحوث
فوجدتها مفيدةً والناس بها حاجة إليها. وهي إسهامة جادة للمّ الشمل ووحدة
الصفّ انطلاقاً من كلمة التوحيد ووحدة الكلمة خصوصاً أن البحوث كُتبت
بمشاركة علماء أجلاء من المذهبيّين الشيعي والسنيّ، والندوات عُقدت بجوار سيّدنا
عليّ، عليه السلام، وفي رحابه المبارك.

وقد سرّني أن البحوث بمجملها تدعو إلى الوسطية والاعتدال ونبذ الخلاف
وتركّز في القواسم المشتركة التي يؤمن بها أبناء الدين الواحد.

وبيّنت هذه البحوث أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن ننطلق في دعوتنا إليه من
روح العقل والتسامح والحكمة حيث قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ - النحل: ١٢٥﴾؛ لذا فإن كلّ الأصوات التي تعلقو مخالفة لهذا
المنهج القرآني وتتسم بالتحريض وإشاعة الكراهية وغيرها مما يخالف روح الحكمة
والموعظة الحسنة إنما هي أصوات نشاز موبوءة مرفوضة؛ لأنها لا تؤدّي إلّا إلى
مزيد من الفرقة والكراهية، ومما ورد عن سيّدنا عليّ، عليه السلام، ((أن الناس
صنفان إمّا أخ لك في الدين أو نظيرك في الخلق))

ومن خلال تأملي في البحوث وجدتُ أن معدّيها أصحاب قضية، ويحملون همًّا، ويعملون على بصيرة وروية يبغون وجه الله وخدمة الإسلام، وإنني لأحييهم وأشدُّ على أيديهم باسمي وباسم الآلاف الذين آمنوا بدعوة الحقِّ ويدعون إلى الوسطية والاعتدال ونبت التطرّف والغلوّ وثقافة التكفير.

ونطالبكم بالمزيد من العطاء في هذه الأيام العصيبة التي يمرّ بها بلدنا الحبيب وأمتنا الإسلامية وهي مليئة بالمصائب والمصاعب. والتي نحسبها، إن شاء الله، بداية النهوض الحقيقي لهذه الأمة التي عانت ما عانت على أيدي الطواغيت الذين عبثوا بمقدّراتها من خلال تصرفاتهم اللا مسؤولة.

وفي الختام إنني أقول للقارئ الكريم: إن هذه الندوة وما كتبت فيها من بحوث وإسهامة جادة لوضع حلّ لمشكلة قائمة، أتمنى قراءتها، أعني هذه البحوث، بتمعن. أدعو الله تعالى للقائمين عليها أن يسدّد خطاهم وأن يكتب ما قدّموه في ميزان أعمالهم وأن يوفّقهم للمزيد من العطاء خدمة للمسلمين ونصرة للإسلام.

والله وليّ التوفيق

الشيخ الدكتور محمود خلف جراد العيساويّ

داعية إسلاميّ وأستاذ جامعيّ متقاعد

٢ / محرّم / ١٤٤٥ هـ

المقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكرُ على ما همم، ونسأله تعالى أن يديم علينا
بالغ الكرم، ويوفقنا لطاعته ومرضاته، إنه سميع مجيب
والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين
وأصحابه المنتجبين.

من مدينة النجف الأشرف، مدينة علي (عليه السلام)، باب علم النبي (صلى
الله عليه وآله وسلم)، بدأنا - بعد الاستعانة بالله تعالى وتسديده - بعمل كبير
يهدف إلى رأب الصدع في نسيج المجتمع، وتوحيد الكلمة، مع المحافظة على
اختلاف وجهات النظر المتعددة. فإن المجتمعات الإسلامية كانت ولا زالت
متعددة في المشارب.

إن المشتركات بين المذاهب الإسلامية أكثر بكثير من المختلفات التي تتعدد
فيها وجهات النظر.

لذلك سعينا وبكل ما نستطيع من قوة أن نتواصل مع إخواننا وشركائنا في
الدين والإنسانية، والذي يجمعنا معهم هم واحدٌ ووطنٌ واحد وهو العراق. وقد
ابتدأنا العمل من خلال الزيارات لبعض مناطق ومحافظات العراق، ثم توطدت
العلاقة وأفرزت هذه الزيارات علاقات متماسكة ومتينة تتعدى الأخوة في أغلب
الأحيان.

حيث أصبحت هذه المؤسسات الأصيلة والتي تمثل المذاهب والأديان في
العراق كالجسد الواحد، فلا تمر بضعة أشهر حتى يكون هناك لقاء أو أكثر فيما
بينها.

ثم بلغ التزاور أشده حتى أصبحت رؤية أتباع هذا المذهب أو الدين حالة
مألوفة عند الآخر الذي يعده أحياناً له بشكل حقيقي وواقعي.

وبعد أن قطعنا شوطاً في تلك الزيارات واللقاءات انتقلنا الى البحث عن برامج نوعية فيما بيننا يكون لها أثر أكبر ونجني منها ثماراً أكثر. فكانت زيارة مدينة الأنبار العزيزة وعقد لقاء موسع في جامعها العريقة بعد أن قمنا بتشكيل وفد من مدينة النجف الأشرف تألف من طلبة الحوزة والجامعة وأساتذتهما وبعض الشباب الفاعلين من مؤسسات مهمة في المدينة، وتوجهنا جميعاً إلى جامعة الأنبار، في الفترة التي أعقبت تحريرها من تنظيم داعش الإجرامي. ثم تلت ذلك زيارة إلى الموصل الحدباء مع وفد نجفي متنوع أيضاً، وإلى جامعة الموصل ليكون لنا فيها لقاء آخر مع مختلف الشرائح الأكاديمية فيها، ثم إلى لالش، تلك المدينة التي ضمت مقر المجلس الروحاني للأيزيديين واللقاء بالزعماء الدينيين فيها، وبعدها كانت وجهتنا إلى كردستان العراق وتحديداً إلى مدينة أربيل، وزيارة عدد من المساجد والكنائس المهمة فيها، واللقاء ببعض الأشخاص الفاعلين والمؤثرين، وفي مقابل ذلك استضافت النجف وفوداً من مختلف المحافظات العراقية ومن مذاهب وأديان متعددة.

وهكذا جرت الأمور على أتم وجه، واستمرت العلاقة بين هذه المدن ولا زالت على كافة الأصعدة الثقافية والعلمية والاجتماعية وغيرها.

ثم أصبحنا نبحث عن برامج أكثر تأثيراً وتركيزاً، وبعد التشاور مع الأخوة والأصدقاء كان هنالك اللقاء الإسلامي الأول والذي عقد بتاريخ ٢٢ - ٢٣ شباط ٢٠٢٣ تحت عنوان (علماء الإسلام تحت مظلة المبعث النبوي الشريف). وقد ساهم فيه نخبة من العلماء والأفاضل والأساتذة الجامعيين من شمال العراق إلى جنوبه، ومن مؤسسات صديقة كالمجمع الفقهي واتحاد علماء كردستان ورابطة علماء الإسلام والوقفين الشيعي والسني ووزارة الأوقاف في إقليم كردستان، وكذلك جامعات الموصل وصلاح الدين وبغداد والكوفة.

تميّز هذا اللقاء عن الأنشطة السابقة بأن تضمن جلسات إضافية ومحوّرات علمية أخرى تلامس مشاكل مشتركة في مجتمعنا المعاصر. فأفرد اللقاء محوراً للشباب لما لهم من أهمية بالغة في نهوض المجتمع ومن ثم البلد. ومحوراً آخر للتطرف وما له من آثار سلبية قد يكون تأثيرها كبيراً ومؤثراً لأجيال عدة، مما قد يسبب تشوهاً كبيراً فيها. ثم المخدرات وما لهذه الآفة من آثار خطيرة تدمر

الحاضر والمستقبل. ثم القيم الخلقية وآثارها على الفرد والمجتمع. فالإعلام وتحديدًا الرقمي منه، وإمكانية استخدامه بشكل إيجابي من خلال أدواته العصرية. وبعد ذلك المنبر الوعظي، والذي يشمل منبر المجالس الحسينية ومنابر الجمعة وغيرها التي لها أثر مباشر في المجتمع. ثم التعايش السلمي، خصوصاً لما يمتاز به العراق من ثراء في الأديان والمذاهب والقوميات. وبعده التعددية، وكيف ينظر الإسلام لها. ثم لغة الخطاب الديني ومدى صلاحية وانسجام هذه اللغة مع الثقافات المعاصرة. وأخيراً معايير الخطيب، ومدى ملائمتها اليوم والحاجة الاجتماعية للخطيب، وما هي الطموحات والتوقعات في مواصفات الخطيب المؤثر والناجح.

ومن خلال هذه المحاور تمخض لنا عددٌ مهم من الأبحاث القيمة التي جمعناها في هذا الكتاب ليكون بين أيدي الباحثين والمهتمين. ومن الجدير بالذكر إن البحوث الذي تضمنها هذا الكتاب تعبر عن رأي السادة الباحثين وليس للمركز إلا شرف التنظيم والجمع والإخراج.

وفي ختام هذه السطور لا يفوتني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم وبذل جهوداً استثنائية في إعداد وتنفيذ هذا اللقاء، وفي مقدمتهم أعضاء مجلسنا الاستشاري الموقر وهم الأستاذ الدكتور عباس الفحام وسماحة الشيخ ثائر الساعدي وسماحة الشيخ أحمد الكندي والدكتور عبد الحسين الخزاعي ثم سماحة السيد حسين الخرسان والسيد حسن حبل المتين، وكوادر التصوير والمكتبة والخدمات والأمنية على ما بذلوا من جهود كبيرة.

وأخيراً لا يسعنا إلا أن نبتهل لله تعالى ليوثقنا لمرضيه ويجعل لنا أثراً طيباً في مجتمعنا، ونوفق في حفظ القيم والأخلاق النبيلة السامية التي أرادها الباري عز وجل للإنسان أن يتحلى بها، إنه نعم المولى ونعم النصير.

مركز البلاغي

النجف الأشرف / العراق

الجلسه الإفتتاحية





كلمة سماحة الشيخ محمد الخاقاني

الحوزة العلمية في النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة الأجلاء السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أنا بينكم لأقدم واجب الترحيب والشكر وغيرهما مما تقتضيه أصول الضيافة والخلق الرفيع، خصوصاً لأمثالكم ممن ازدانوا بالعلم والمعرفة، ولكنني أيها السادة الأفاضل لن أكون نمطيّاً أو سطحيّاً أو عاديّاً في ترحيبي وشكري وامتناني وتقديري لجميل فضلكم وتجشّمكم متاعب السفر والحضور، ولن أكتفي بقعقة الكلمات وجرس الحروف في صياغة ما أريد قوله من ترحيب وشكر، بل لا بدّ لي أن أشعركم بواقع إحساسنا وصدق مشاعرنا وعواطفنا وحرارة محبّتنا لكم ولأمثالكم.

أيها السادة.. أنتم اليوم في رحاب مدينةٍ يفتح أبنائها قلوبهم لزائريهم قبل أن يشرعوا أبواب بيوتهم؛ إذ نشيدهم الخالد منذ أزلهم "يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا" يقولون ذلك ترحيباً وتكريماً وفرحاً بكلّ وافدٍ إليهم، مدينة سقى جذورها معينُ المعرفة منذ أكثر من ألف عام، فنمت فيها غصونُ العلم المثمرة فقهاً وأصولاً وفلسفةً وحكمةً وأدباً وشعرًا وغير ذلك من فروع المعرفة والثقافة.

ويوم شاءت الحكمة الإلهية أن تكون هذه المدينة حاضرةً علمًا ودينًا وثقافةً وأدبًا كان لها مع الإنسان شأن كما كان لها مع العلم شأن، فنحن هنا يا سادتي نقّس الإنسانية ونكرّم الإنسان لإنسانيته، ويزداد تقدسينا بمقدار ما يتحلّى به من علم ومعرفة، نحن هنا يا سادتي نكتب رسائل حبّنا للإنسان على صفحات أوراق قلوبنا،

ومن أهداب عيوننا نغزل له خيوط مودّتنا، ومن أعماق وجداننا نبعث له أناشيد محبّتنا ونناغيه بأهازيج الودّ والمعرفة، تعويدتنا التي نتعوّذ بها من سوء الخلق ما خطّته أنامل إمام الحكمة وسيّد البلغاء " اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك فأحبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك وكره له ما تكره لنفسك ولا تظلم كما تحبّ أن لا تُظلم وأحسن كما تحبّ أن يُحسن إليك ولا تقل ما لا تحبّ أن يُقال لك"، أما بخورنا الذي نحصّن به أنفسنا من شرّ الفرقة والتشّتت والضياع فما علمنا من علم سيّدنا وإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام "أنّ الناس صنفان إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق".

إذ كان الحبّ وسيلتنا إلى العقل الإنساني وقلبه وكان هو طريقنا للتعرف والتقارب والتآلف والتفاهم، فالله سبحانه وتعالى دعانا إلى محبّته؛ إذ قال في محكم تنزيله: بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّاهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّاهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ - آل عمران ٣١﴾، والله سبحانه وتعالى غدّي الكون بحبّه، فأحبّ المتّقين، وأحبّ الصابرين، وأحبّ العاملين، وأحبّ الصادقين، وأحبّ الصابرين، وأحبّ وأحبّ وأحبّ، وما فتح من أبواب الاستغفار والتوبة إلا ليكون مجازاً لنعم بعفوه ومغفرته وحبه.

ثم إنه سبحانه وتعالى أمرنا أن ننطلق في دعوتنا إليه من روح التعقّل والتسامح والمحبّة، حيث قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه المجيد: بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - النحل ١٢٥﴾، لذا فإن كلّ الأصوات التي تعلو مخالفةً لهذا المنهج القرآني وتتسم بالتحريض والتأليب وإشاعة الكراهية وغيرها ممّا يخالف روح الحكمة والموعظة الحسنة إنما هي أصوات نشاز موبوءة مرفوضة؛ لأنها لا تؤدّي إلا إلى مزيد من الفرقة والكراهية، وهو أمرٌ ينافي روح الإسلام المُفعمّة بالمحبّة والتسامح.

إن روح المحبّة والتسامح والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هي أسلوب هذه المدينة وأسلوب كيائها العلمي، وهي ترفض كلّ ما يؤدّي إلى غير ذلك، وما جاء على لسان سيّدنا المفدّي المرجع الديني الأعلى السيّد علي السيستاني مدّ الله في عمره الشريف يدلّ على التزام المنهج والخلق الرفيع، فقد قال أطال الله عمره (لا تقولوا إخواننا بل قولوا أنفسنا) مُنطلقاً من ذلك من فهم عميق لروح

التسامح في الإسلام وإنسانيته وأخلاقه العالية التي تحدّث بها القرآن، وجرت عليها سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله، وهنا يا سادتي اسمحوا لي أن أسألكم، وأنا حائر كيف لي، وكيف يمكنني، كيف يمكن للإنسان أن يرحّب أو يشكر نفسه، فأنتم نفوسنا، فعلموني كيف أشكر نفسي.. طابت أوقاتكم وطاب سعيكم مع تمنّياتي لكم بنجاح مؤتمركم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



كلمة فضيلة الدكتور عبد الله ويسى

رئيس اتحاد علماء كردستان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيّدنا محمّد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيّبين الطاهرين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

إخواني العلماء.. سادتي الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسعدنا ويشرفنا أن نشارك معكم أعمال هذا الملتقى، وننقل إليكم تحيات إخوانكم علماء الدين الإسلامي في إقليم كردستان، وتمنّيّاتهم لكم بالنجاح والتوفيق.

والشكر موصول إلى مؤسّسة دار العلم للإمام الخوئي بجهودها المستمرة في خدمة العلم والعلماء، ومواقفها النبيلة في نشر الوسطية والاعتدال، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على الأساس المتين والثوابت الراسخة في هذه المؤسّسة وعلمائها، من أجل نهوضها في الأمة ومعالجة المشاكل التي تواجه المجتمع، وما عقّد هذا الملتقى إلا شاهدٌ على أهدافهم النبيلة في جمع كلّ هذه الوجوه المباركة، من أجل توحيد الصفوف والحفاظ على وحدة الصفّ العُلُمائيّ. فعقد هذه الملتقيات ضرورةً ملحّةً من أجل تبادل وجهات النظر والآراء حول التحدّيات التي

تواجهنا جميعاً، فنحن كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فجزاهم الله خيراً.

سادتي الحضور...

أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى منزلة العلم والعلماء، وبناءً على تلك المكانة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للعلماء فإن الدور المنتظر منهم عظيم، فهم ورثة الأنبياء، وعلماء المسلمين بمثابة الأنبياء السابقين في أمهم، فهم المجددون والموجهون، وهم حفظة الدين وحُماة الشريعة، لذا يمكن تلخيص أهم المسؤوليات التي تقع على عاتق علمائنا في هذه النقاط التالية بشكل مختصر:

١- تثبيت المسلمين على دينهم وإرجاعهم إلى الأصول وإلى الثوابت والمحكمات الشرعية التي لا يختلف عليها مسلمان، ولا تقبل الجدل والنقاش، وهذا يستلزم الاهتمام الأكثر بالعلم الشرعي لتحقيق البلاغ المبين وتوضيح الحق للعالمين، قال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ - بقره ١١٥ ﴾.

٢- الدفاع عن الإسلام والتصدي للهجمات الموجهة للدين الإسلامي الحنيف، وكشف شبهات المنافقين والمغرضين، وتوضيح الحقائق أمام كل من يريد العمل من أجل الدفاع عن الشبهات والهجمات الموجهة، هناك تحديات مشتركة تواجهنا جميعاً قضية الإلحاد، المخدرات، الانحلال الأخلاقي، الشذوذ الجنسي، هذه كلها تحديات مشتركة تستوجب علينا جميعاً توحيد الصفوف وتكثيف الجهود من أجل القضاء عليها والوقوف ضدها، ونحن علماء الدين الإسلامي في إقليم كردستان مستعدون لتقديم كل العون وكل ما نملكه، والاتفاق على خارطة الطريق من أجل مواجهة هذه التحديات التي تأتي يوماً بعد يوم إلى داخل المجتمع العراقي تحت مسميات مختلفة.

٣- من أعظم المسؤوليات التي تقع على عاتقنا جميعاً بث روح التفاؤل بين المسلمين، وإشعارهم بعزة الإسلام، وتذكيرهم بوعد الله ونصرة دينه وإعلاء كلمته، وهو أمر في غاية الأهمية، فمهما طال الأمد واشتد الكرب واسودّ الليل فلا بدّ من طلوع الفجر ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ

كِرَهُ الْكَافِرُونَ - التوبة ٣٢ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ - الصف ٩ ﴾.

٤- السعي إلى وحدة صفّ المسلمين وجمع شتاتهم، وهذا يكون بتأكيد مفهوم الإخوة الإسلامية، وتوضيح حقيقة العداوة، فالوحدة مطلب ومقصد شرعي ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا - آل عمران ١٠٣ ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۗ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ - آل عمران ١٠٥ ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَارَعُوا فِتْنَسَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ - انفال ٤٦ ﴾.

وأخيرًا نرجو من الله العليّ القدير التوفيق والنجاح لنا ولكم، آمين أن تستمرّ مثل هذه الملتقيات وتثمر بآفاق علمية وأكاديمية يعمل عليها الجميع ضمن توجيهات نبوية شريفة مستمدة من سيرته العطرة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



كلمة الدكتور حيدر الشمري

رئيس ديوان الوقف الشيعي

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على النبي المصطفى الأمين وعلى أهل بيته
الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

السلام عليك يا مولاي يا رسول الله، السلام عليكم يا مولاي يا خاتم النبيين،
وعلى نفسك وأخيك وخليفتك ووصيك علي بن أبي طالب ورحمة الله وبركاته،
السلام عليكم أيها السادة الكرام الحضور ورحمه الله وبركاته.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، يشرفني أن أكون
اليوم وسط هذا الجمع المبارك من السادة والمشايخ من الأعلام والعلماء وطلبة
العلم والأساتذة والفضلاء، وأنا في غبطة وسرور لكم بما تُفيضون علينا من معين
علمكم، وأودّ مشاركتكم تلبيةً لدعوتكم المباركة الكريمة، فأنا اليوم أقف بكلّ
خضوع على أعتاب مناسبات عظيمة متعدّدة، فأولها: أقف إجلالاً لذلك الزمان،
وفي رحاب هذه الذكرى العظيمة التي توثّق حدثاً تاريخياً إسلامياً عظيماً له أثر كبير
في نفوس المسلمين، ذكرى المبعث النبوي الشريف؛ إذ أخرج الله بمبعث حبيبه
وخاتم أنبيائه محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله الناس من الظلمات إلى النور،
من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، فقال تعالى في بيان هذه النعمة
العظيمة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ
الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ
مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) - المائدة: ١٥، ١٦﴾، وقال تعالى مذكراً بالرسول

وأهداف بعثته الشريفة: ﴿الرِّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ - إبراهيم: ١﴾.

إن مناسبة المبعث النبوي الشريف مناسبة عظيمة وتستحق كثيرًا من الاحتفاء بها على جميع المستويات، فالنبي صلى الله عليه وآله هو الرحمة الإلهية للبشرية كلها، ولا بد من معرفة ذلك والتعريف به قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ - الأنبياء: ١٠٧﴾، وهل هناك رحمة أعظم من محمد وبعثته صلوات الله عليه.

وثانيها: أقف في رحاب هذه المؤسسة العلمية الكبيرة الدالة على مقام مؤسسها مرجع الأمة الكبير أستاذ الفقهاء زعيم الحوزة العلمية السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (قدس سره) الذي هو كما قال فيه الشيخ محمد جواد مغنیه "كالشمس ترسل أشعتها في كل مكان وزمان" إنه أستاذاً وأستاذ العلماء في النجف الأشرف، والقطب الذي تدور حوله الحركة العلمية، وتدين له الحوزة بالشكر والولاء وعرفان الجميل، عالم لم يقف عند جهة واحدة من جهات العلم والفكر بل أتقن منها ما أتقن وألم بما ألم وأحاط بأشرفها وأعظمها حتى أصبح علماً من أعلامها الأمثلين، ورائداً من روادها المقلّدين، وهذه المؤسسة التي وضعت لبناتها بجوار مدينة علم رسول الله عليّ بن أبي طالب عليهما السلام لتنهل من رشحات أنواره وقدسيتها مرقده المبارك كما كان مؤسسها قدس سره من قبل، أي يقتبس من نور عليّ في هذا الطور الشامخ، يغدق بعلمه وكلماته على طلبته حتى غدت آثاره ثماراً طيبة في كل مكان تحكي أيامه، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) - إبراهيم: ٢٤، ٢٥﴾، ويحق للمسلمين أن يفخروا بهذا الصرح العلمي الكبير الذي يضم بين أروقته العلم والمعرفة وآثار العلماء والمفكرين، ويستقبلوا العلماء والطلبة والباحثين، إنه لحق روعة من روعات معرفة الفن والعمارة والجمال.

وثالثها: أقف في رحاب أعلام كرام من الحوزة العلمية الشريفة والجامعات والمؤسسات والمراكز البحثية المباركة، وهم يحملون هموم الأمة، ويناقدون مخاطر ما يحيط بها، ويبحثون عن أسس تحصينها وتقويمها، وفي ذلك دلالة على

أن للأمة رجالاً يسهرون الليل ويعملون جاهدين من أجل الحفاظ على المبادئ والقيم الإنسانية النبيلة، ويجاهدون بأبدانهم وبأفكارهم وأقلامهم للوقوف بوجه الأخطار الجسيمة التي تهدد كيان المجتمع، فهم الذين نعول عليهم في إيجاد العلاج الناجع لتلك الأمراض التي يراد بها للإنسانية، حيث التخلي عن الأخلاق والفترة السليمة، والابتعاد عن تعاليم الله عزّ وجلّ، وهذا هو الانحراف الحقيقي والضلال المبين.

فهذه وقفات ثلاث أحببت بيانها أيها السادة الأفاضل.

لقد اطلعت على محاور هذا الملتقى العلمي المبارك، فوقفت متأملاً في موضوعاته المهمة، التي تمّ اختيارها على أسس علمية رصينة، وهي تبحث في المشاكل المختلفة التي يواجهها المجتمع المسلم اليوم، ولا أحد أولى منكم في دراسة ذلك، وبيان أسبابه وأعراضه، ووضع العلاج النافع له، فالجيل اليوم كما تفضّلتم أمام موجة عاتية ودعوة شعواء للإلحاد والابتعاد عن توحيد الله عزّ وجلّ وولايته، والركون إلى الشرك به وعبودية الذات واللذات، وبذلك يهوي في وادٍ سحيق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ - الحج: ٣١﴾، حيث تكالب الأعداء عليه، وأغوته النفس لتنسيه ذكر الله عزّ وجلّ، فتستحوذ عليه الأفكار والمعتقدات الشيطانية الهدامة آنذاك، فيجب على أطباء الأديان أن يبذلوا كلّ جهودهم، ويسخّروا جميع إمكاناتهم من أجل إيقاف هذه الأمراض الفتاكة وقلع أصولها من مجتمعاتنا وخصوصاً في أوساط شبابنا وأبنائنا وفلذات أكبادنا؛ إذ نحن مسؤولون عنهم وعن حفظهم من كلّ ذلك بتهيئة السبل الكفيلة التي تحافظ عليهم على رغم شراسة المعركة وضراوتها وتقصير مؤسسات متعدّدة أخرى في هذا الجانب، ومجتمعنا اليوم على رغم عقيدته وولائه وأخلاقه وفطرته السليمة فإنه أمام تلك التحدّيات الحقيقية التي تصارع عقيدة الفرد وأخلاقه، وتحاول تخديره بمخدّرات معنوية تكمن في المبادئ المعادية، أو مخدّرات مادية تحاول تمزيقه وإطفاء نور عقله أو إعلان موجّه يعمل على تلويث فكره وخلقه وعقيدته آناء الليل وأطراف النهار، ويبدّل من أجل تحقيق ذلك أموال طائلة وطاقات بشرية هائلة، وهذه الأفعال على عظمتها ومكر مخططاتها فإنها تحتاج إلى وقفة جادة كبيرة لها في

الوقت الحاضر، وتهيئة البرامج التربوية والمعنوية والمادية المكثفة التي تهَيِّ البيئة السليمة.

أيها الأفاضل الأعزّاء....

إن كيان الأسرة المسلمة اليوم في خطر كبير، وكما ذكرتم في محاور ملتقاكم المبارك هذا، فالانحلال الأخلاقي أصبح بارزاً في بعض زوايا المجتمع، ونخشى لا سامح الله أن يتحوّل إلى ظاهرة مجتمعية طبعية، عند ذلك نكون عند مصداق قوله صلى الله عليه واله وسلم في التحذير من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم تدعون فلا يُستجاب لكم. فالامتثال إلى تعاليم الثقلين هو الملجأ الوحيد من الضلال الشخصي والنوعي في الأمة، وهذا ما يوجب على الأقسام الصادقة أن تسخّر أفكارها للبحث في ذلك، وإيجاد السبل الواقعية العملية في تحصين الأمة، ويوجب على الأصوات الواعية للخطباء وغيرهم أن تسخّر كلماتها ومنابرها في الدعوة إلى الوعي النوعي الذي تبحث عنه العقول والقلوب، مع أهمية اللغة المعاصرة في الخطاب وبيان الأسباب والأهداف، على وفق منظور علمي ليكون أوقع استجابة في النفس مع ضرورة بيان المسؤولية الكبيرة المُلقاة على الآباء والأمهات في تربية أبنائهم، والمسؤولية على الأبناء في الاستجابة لأبائهم وأمهاتهم، والمسؤولية المُلقاة على المجتمع في تحديد الظواهر السلبية ومكافحتها، فضلاً عن الدولة وقوانينها في الحفاظ على المجتمع من المزالق المختلفة التي تهدّد كيان الأسرة من جهة، وكيان الدولة والمجتمع من جهة أخرى.

لقد بذلت المرجعية الدينية العليا المباركة ممثلة بآية الله العظمى السيد علي الحسيني السيستاني دام ظلّه الوارف جهوداً كبيرة وعظيمة من أجل الحفاظ على كيان الأمة مما يهدّدها، وفي مستويات متعدّدة وفي مناسبات مختلفة، فكان لها أبلغ الأثر والدعوات في أهمية الحفاظ على شبابنا مما يحدق بهم من مخاطر، ووضع الخطوط العامة في الحفاظ عليهم، وبيان ما ينفعهم من خلال الاستفتاءات والبيانات الكثيرة المباركة، وما نصيحته دام ظلّه على سبيل المثال والتي هي دستور للشباب المؤمن ٢٨ ربيع الأول ١٤٣٧ هجري إلا شاهد على ذلك، حيث يخاطبهم بقوله: أما بعد... فإنني أوصي الشباب الأعزّاء الذين يعنيني من أمرهم ما يعنيني من أمر نفسي وأهلي بثمانى وصايا، هي: تمام السعادة في هذه الحياة وما بعدها وهي

خلاصة رسائل الله سبحانه إلى خلقه وعظة الحكماء والصالحين من عباده وما أفضت إليه تجاربي وانتهى إليه علمي. فهنيئاً لكم أيها الشباب.. فهذا نائب إمام زمانكم يوصيكم ويجعلكم من نفسه وأهله، وهي رسالة في الوقت نفسه إلى الأسرة المسلمة وإلى المرّيين والعلماء والخطباء في ضرورة العمل على هذه الفئة المهمّة في المجتمع والكبيرة عدداً في عراقنا عراق المقدّسات، التي يحاول العدو أن يجعلها أداة تدميرية للبلد، ولكن خابت دعواته، ورُدّت إلى نحره يوم رأى تسابق شبابنا على الموت فلا يهابونه وهم يلبّون نداء المرجعيّة الدينية في فتوى الدفاع الكفائي ضدّ كيان داعش عام ٢٠١٤ كي يبقى العراق كريماً بجميع أطيافه ومكوّناته المباركة، ويبقى السلم الأهلي هو الرابط بين أبنائه وطوائفه ودياناته وقومياته كلّها.

أخيراً أيها الأفاضل الكرام أرى من وجهة نظري المتواضعة ضرورة تكثيف هذه الملتقيات، وفي هذه الموضوعات المهمّة جدّاً، وأن تكون معلنة على نطاق واسع لا أن تبقى محصورة في زاوية من زوايا الأرض على عظمته وقدسيّتها، ليعرف الآخرون جهودكم وجهادكم من أجل التفكير بهوم الأمة ومشكلاتها، وما تتعرّض له من تحديات، فضلاً عن الأفكار السديدة المطروحة في مواجهه ذلك، ولتتفضّلوا بإرسال هذه الدراسات القيّمة المنبثقة عن هذا الملتقى المبارك إلى المؤسسات الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني ومن يعينهم أمر ذلك للإفادة منها والعمل عليها مهما أمكن، وهي دعوة كريمة منكم إلى طاعة الله والحفاظ على عباده، أسأل الله تعالى أن يردكم ويحفظكم دعاة إلى إمام زمانكم والممثلين لأوامره والسابقين إلى إرادته إنه سميع مجيب والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته وسلامه على رسوله وآله أبداً والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.



كلمة الدكتور مشعان الخرزجي

معالي رئيس ديوان الوقف السني القاه نيابة عنه
الدكتور قتيبة عماش ممثل رئيس الوقف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.
أيها الإخوة الأكارم كلُّ بجميل اسمه ووسيم رسمه،
السلام عليكم جميعًا ورحمه الله وبركاته...

بداية وكما تفضّل سماحة الشيخ محمد الخاقاني عندما أراد تفسيرًا لاستقبال
المرء لنفسه فنقول له يا سماحة الشيخ إن ترحيبكم قد لامس شغاف القلوب، فما
كان من القلب فهو إلى القلب، ثم نقدّم عظيم شكرنا وامتناننا لهذه المؤسسة
الرائدة التي لها مواقف واضحة في نصرة قضايا مجتمعنا وأمتنا، والذي يسعدنا أكثر
من ذلك أننا نلتقي ونستمع ونبتهج ونحتفل تحت مسمّى رسول الله صلى الله عليه
وسلم، ذلك النبيّ الأكرم، ذلك النبيّ الصادق الأمين الذي أرسله الله سبحانه
وتعالى، ونحن نعتزّ بذكرى بعثته المباركة صلى الله عليه وسلم، فهو النبيّ الكريم
الصادق المصطفى الأمين المختار المؤيّد المزّمّل المدّثر الذي جاءته أخبار النبوة
في حراء،

فأتى خديجة ساطعًا ومنورًا

من شأن أحمد، إذ غدت تستفهم

قال ابن نوفل ذاك يؤثر عن النبيّ

سيكون بين مصدّق ومكذّب

وسيكثر القتلى وينسفك الدم

فبربه صلّوا عليه وسلّموا

أيها الإخوة الأكارم ما أحلاها من دقائق وساعات وأيام تكون سبباً لمثل هذه المؤتمرات والملتقيات الطيبة المباركة التي بلا أدنى شك ستكون لها مخارج إيجابية تُسجّل في صفحة التاريخ الناصع الأبيض لهذه المؤسسة الرائدة التي صارت سبباً اليوم لملتقى وندوة في رحاب أمير المؤمنين عليّ، الذي له من الفخر ما له ولأولاده، ويستمدون ذلك من فخر الكائنات وسيدها، ونحن في طريقنا من بغداد نردّد قول القائل:

حدث بطيبة والغريّ وكربلا والطوس والزورا وسامراء
ما جئتهم في حاجة إلا انقضت وتبدّل الضراء بالسرائ

أيها الإخوة الأكارم لم يكن لقاؤنا هذا ولم تكن استجابتنا هذه استجابة دبلوماسية أو رسمية فحسب، إنما لنؤكد من خلالها عظيم نصرتنا وعظيم أخوتنا، فالحاضرون إليكم من محافظات متعدّدة، والحاضرون إليكم يمثلون الأعظمية وغيرها من مناطق العراق، الأعظمية هكذا نشأنا بها وفي أزقتها التي تشبه كثيراً أزقة النجف الأشرف، وكذلك في سامراء وكذلك في الفلوجة والأنبار، وكذلك في الطارمية وغيرها، في الأعظمية علّمنا أهلها وشيوخها وأدباؤها وهم يقولون لنا دوماً:

الأعظمية علم وتقوى تحت تربتها متى نراه على الآفاق مزدانا
والكاظمية عبر الجسر شامخة موسى بن جعفر بالأنوار يلقانا

أيها الإخوة الكرام في مثل هذا الملتقى نذكر عالمنا الإسلامي أن صاحب البعثة النبوية الغراء يتعرّض إلى اعتداءات متكرّرة من خلال الأفلام المسيئة إلى شخصه صلى الله عليه وسلم، فلا بدّ للعلماء أن يكون لهم موقف واضح، وكذلك الإساءات المتكرّرة لممارسات إحراق المصحف الشريف.

أيها الإخوة الكرام لا نريد أن نطيل عليكم المقام، نسأل الله سبحانه وتعالى عزّاً وتمكيناً ونصرةً لدين محمّد صلى الله عليه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



كلمة سماحة الشيخ محمد حسين الانصاري الحوزة العلمية في النجف الأشرف

الصلاة والسلام على أشرف خلقه وسادة بريته محمّد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين، وعلى أصحابه المنتجبين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

جاء في كتاب الكافي للعلامة الكليني قدس الله نفسه الطاهرة بسند صحيح عن فضيل بن يسار قال سمعت أبا عبد الله - عليه السلام - يقول لبعض أصحاب قيس الناصر: إن الله - عزّ وجلّ - أدب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ - القلم: ٤﴾.

وقد جاء عن أبي جعفر - عليه السلام - في قول الله - عز وجل - ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ - القلم: ٤﴾، قوله: "هو الإسلام" وهذا شبيه لما أورده الممتقي الهندي في كنز عمّاله عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: "الإسلام حسن الخلق والقرآن هو كتابه".

وعلى هذا جاء عن الإمام جعفر الصادق - عليه السلام - كان رسول الله صلى الله عليه وآله خُلِقَ القرآن، وهذا بيانه من جهة عامّة وبالخصوص قد قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا - الْأَحْزَاب: ٢١﴾، فأمرنا بالأخلاق من جهتين، من جهة الإسلام وكتابه، ومن جهة التأسي بمن أوجي به إليه، وكان هذا المؤتمر الموقر قد قام على هاتين، وركيزته قول رسول الله صلى عليه وآله: "إنما بُعثت لأتَمِّم مكارم الأخلاق"، ومن جهة ثالثة نقول إن الخلق تعريفه ما يأخذ الإنسان به نفسه من الآداب، وقد سُمي خُلُقًا لأنه يصبح كالخلقة في ذات الإنسان، فبناءً على هذا يتضح لنا لماذا كان علينا أن نفهم كتاب الله وأن نصره بإسلامنا، لكي نكون كما أراد الله تعالى ورسوله صلى عليه وآله أن يكون المسلم، ومن أول ما نزل به الكتاب المبين عليه عند بعثته، وقام به دينه بعد أن قال صلى الله عليه وآله صادقًا بأمره "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، ونحن ما زلنا في ذكر أيامه المباركة نقول من أول ما نزل عليه صلى الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) - العلق: ١ - ٥﴾.

من ذلك يتبين واضحًا لمن تدبر وأحسن التدبر أن أول أخلاق الإسلام العلم ومفتاحه القراءة، وقد أمر بها أولاً ليفتح أبواب الخير كلها بهاتين، ثم ذكر أداة العلم لإبقائه وتسخيرها للاستفادة منه بتقريره وإقراره، ليبين أهمية ذلك، وإلا فالإنسان مخلوق من علق كغيره من المخلوقات، فاختصر وطوى وجود الإنسان كله، ولم يذكر منه إلا القراءة والعلم، والتركيز في القلم، وهذا هو الإسلام بعينه، وقد بين لنا أهمية ذلك حين علم آدم فعلم الملائكة وأمرهم بالسجود له تعظيمًا للعلم، فبالعلم قام فضله وكانت مزيته، ومن هنا نعلم اليوم أن أعدى أعدائنا ما هو إلا الجهل، ومع الأسف الشديد وللأدوار التي مرّت والسنين العجاف نرزح اليوم تحت وطأته أو ترزح اليوم تحت وطأته أغلب الأمة، ومن هنا أخذنا فإذا أردنا أن ننهض فعلينا بالعلم، وإذا أردنا أن نحيا حياة كريمة فعلينا بالعلم، وإذا أردنا الخير كله فعلينا

بالإسلام، فبالمعرفة وحدها يندحر القطبان البعيان من جهة الظاهر، المتّحداً في تدميرنا في الداخل الإلحاد وتفزعاته من جهة، والتطرف وأطرافه من جهة ثانية، وكلّ ما كان من ويلات قد صُبت علينا فهما كانا القاسم المشترك لها، ونختصر فنقول من المخدّرات في الكواليس وتحت الفوانيس إلى إخراج المخدّرات إلى الشوارع والمشاريع، وإلى المسكّرات في الملاهي والمتارح، وما سبيل التعايش السلمي إلا كتاب الله ونهجه لكي لا تنحلّ الأسرة، فينحلّ بانحلالها كلّ شيء، واليوم نرى ميل الفرد صار إلى الاستماع دون القراءة، وهذا حال الإعلام الرقمي، فإذا لم يكن المجتمع يقرأ فلنقرأ له كي لا يموت، والقراءة له تكون على عدة أصعدة، فبوسيلته التواصلية نصل إليه، وبالمنبر الموجه نتجه إليه، بتعددية محسوبة ولغة مدروسة، ليكون خطابنا ثقافياً معاصراً، ولكنه نابع من العلم والمعرفة، ومن أعلم بالناس وأكبر من الخالق الرحيم؟، وقد خاطبهم في كتابه فقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ - الحجرات: ١٣﴾، ومن أخلاقيات هذا التعارف حيث وصل إلى القمة التي ما بعدها شيء أن يقول الله سبحانه جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) - فصلت: ٣٤، ٣٥﴾، فخلقهم متنوعين ولكنه أراد منهم الاجتماع، وتركهم أحراراً في تفكيرهم ولكنه أراد التوحيد بشتى معانيه توحيد الله وتوحيد الكلمة وتوحيد الصف، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ (١١٩) - هود: ١١٨، ١١٩﴾، ولذلك خلقهم فهو قد خلقهم ليرحمهم فهم مخلوقون للرحمة لا للاختلاف كما ظن الكثير ممن تعرّض لهذا الآية المباركة، وينبيك عن ذلك ذكر القرآن سبب الاختلاف إذ قال تعالى في ما ذكر ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا
 اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا
 بَيْنَهُمْ - البقرة: ٢١٣، وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا
 اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ - آل عمران: ١٩﴾، فعلى الناس كما أمروا أن
 يتركوا بغي أحدهم على الآخر إن كانوا مسلمين، وأن يرتقوا بمراقي العز والرفعة حيث
 رفع رسوله الخاتم صلى الله عليه وآله إذ قال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ
 وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ - آل
 عمران: ١٥٩﴾، فبتلك الطاقة الخلافة بأن لا يكون الإنسان فظًّا غليظ القلب وألا
 ينظر للعدو إلا كونه صديقا، بل هو الولي الحميم لكي يستطيع التأثير والتغيير لا
 بالقتل والتفجير، وهذه حقيقة المسلم لأنه يحب الخير لكل الناس ولا يريد فناء
 الناس، وقد قال سيّد البلغاء وأمير البيان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أمير
 المؤمنين- عليه السلام- إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: "إنكم
 لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم".

وبهذه النفحات العلوية المنبثقة من التربية المحمدية نختم حديثنا والحمد

لله رب العالمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



كلمة فضيلة الشيخ الدكتور حسين السامرائي

إمام وخطيب جامع أبي حنيفة النعمان وعضو
المجمع الفقهي العراقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين
الطاهرين، وأصحابه الغرّ المحجّلين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم اللقاء
والدين.

أما بعد فالسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

يطيب لنا ويسعدنا التآخي والتعاون المستمرّ بين المجمع الفقهي العراقي
ومركز البلاغي متمثّلة بمدريستها العزيزة التي وجدنا فيها الصدق والحرص على
توحيد الكلمة وحمل هموم الأمة، وما اختيار موضوعات هذا الملتقى إلا دليل على
أنهم من حملة هذه الرسالة، وهذا الملتقى يدلّ دلالةً واضحةً على وعيهم وعلى
حرصهم بما يحيط المجتمع من تحدّيات خطيرة، وهنا يستحضرني - وأنا بجوار
سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه - قول الإمام الشافعي حينما
قال -رحمه الله:-

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم القدر أنكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

فصلاة الله وسلامه عليك يا حبيبي يا رسول الله.

أيها الإخوة الحضور... يسعدنا أن نلتقي بهذا الملتقى الذي يجمع علماء السنّة والشيعّة والكرد، وهذا دليل على المعنى الاسمي للأخوة والعمل، في الوقت نفسه يقول الله - سبحانه وتعالى: ﴿الم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ - العنكبوت: ١، ٢﴾.

هنالك تحديات كثيرة ومصاعب جمّة، وإنه بقدر هذه التحديات فإنّ المبشّرات كثيرة والآمال عظيمة بقدر ما نجد في الواقع من مكر الأعداء فإننا نجد من رحمة الله والمسلمين، فإننا نجد من التفاؤل به وبمستقبله أكثر، ومن هنا كان لا بدّ لأهل الإسلام من التصديّ للتحديات الكثيرة التي تواجههم، التحديات الداخلية هي التخلف والإرهاب والسلاح المنفلت والفرقة والفهم الخاطئ للإسلام، أما التحديات الخارجية فهي الخوف من الإسلام في الغرب وصدام الحضارات والعولمة، ولا بدّ أن يدرك المسلمون أمام هذه التحديات أنهم إذا أرادوا لأنفسهم الحياة فإنه ليس أمامهم في القرن الحادي والعشرين خيار غير خيار العلم والتقدّم والحضارة، وأيّ طريق غير هذا سيدفعهم إلى بقاء حالة التخلّص.

إن هذه الأمة تواجه تحديات، من ذلك الإلحاد، وإن هذه التحديات تتطلب منّا وعيًّا عظيمًا وإيمانًا راسخًا وعلماً، وتتطلب منّا حشدًا للطاقات وحرصًا للصفوف، وتتطلب منّا سهرًا بالليل وعملاً بالنهار ورباطًا على الثغور، وتتطلب منّا حراسة هذه المسائل المهمّة، ونحن نعرف ونوقن ونؤمن بأن المستقبل للإسلام، وأن الله ينصر دينه، وأنه قد وعد وهو لا يخلف الميعاد بأن يتمّ هذا الأمر وأن يدخل هذا الدين كلّ بيت، وأن يبلغ ما بلغ الليل والنهار، لكن يا عباد الله الأمور بأسبابها والنتائج لا تأتي دون عمل، فلا بدّ أن تقبل الجهود، ولا بدّ أن نقوم بالأسباب، لا شكّ في أن التخطيط المسبق يكون في بداية كلّ الأعمال، ولا بدّ أن ينبثق عن إرادة، وما هذا الملتقى إلا بداية لهذا التقدير.

إخوتي في الله... الإسلام هو الذي دفع المسلمين في السابق إلى بناء حضارة مزدهرة استمرّت ما يقرب من قرون عديدة، بخلاف ما يعيشه شبابنا اليوم من تعطيل للطاقات وعدم إيجاد فرص عمل لهم في المصانع والمعامل ونحوهما، واعتمادهم وتطلّعهم على الوظائف التي أرهقت كاهل البلد، ومن التحديات أيضًا الاستعمار الفكري الأوربي للفكر الإسلامي الذي يدعو إلى غربلة فكرنا ودراسته

دراسة جيّدة جديدة بأدواته وأساليبه الماكرة عبر التحكّم بمبادئنا وأصولنا من خلال الإلغاء أو الزيادة أو التهجين أو التعديل في نصوصنا على النحو الذي يقتضيه الغرب كرجبته في إجراء التعديلات على القرآن الكريم في بعض المناهج الدراسية، وحذف آيات منه، وكذا تضعيف بعض الأحاديث الصحيحة التي لا تناسب منهجه، ومنه الاستعمار الفكري الصهيوني القائم في الهيمنة على حكام الشعوب العربية والمسلمة بغسل أدمغتهم وتهجينها وترويضها بالفكر الذي يريده، أو تأهيل شخصيات يراها مناسبة لفكره الماسوني والدفع به لاعتلاء عروش السيادة في بلاد المسلمين والعرب إلا من رحم ربّي.

نواجه تحدّيات عدّة اليوم نواجهها ومن أطراف مختلفة، ومنها تحدّيات خارجية متمثلة بمكائد الأعداء وأحقادهم، وتحدّيات داخلية وهي الأخطر متمكّنة بالجهل والتعصّب واتباع الجهال، وما حصل في ديالى سابقاً وقبل يومين مما يتطلّب جهداً حكومياً وعلمائياً لهذه التحدّيات الخطيرة التي تقوّض النسيج الاجتماعي والأمن والاستعمار الفكري المتطرّف اليوم الذي يرفع راية الإسلام وهو منه براء، وهو ما تدّعيه بعض التنظيمات المتشدّدة كتنظيم داعش وغيره، التي حاولت تشويه ديننا الحنيف، وفكرنا المعتدل بنشر الإرهاب، من خلال صنع شبكة من الاستخبارات العالمية المعادية للإسلام التي تعمل على تشويه ديننا بهذه الأدوات المتنكرة والمنكرة، وإن التعصّب من كلّ فئة تدّعي صحة سبيلها وسلامة منهجها وفساد غيرها وضلالة خصومها، تلك الفئات أسهمت في تفتيت وحدتنا ونبيل عدوّنا منّا، ولكن أتّى لهم ذلك، وأمثال هذه الملتقيات على أرض الواقع.

في الختام نقول ومن التحدّيات أيّها الإخوة إفساد المرأة، فقد حرص الغرب على هذا، لأن فساد المرأة يفسد الأبناء والأزواج، فأخرجوها من بيتها، وهتكوا حجابها، وزيّنوا لها التمرّد على دينها بمختلف الأساليب وزعموا أن تحضّرها وتقدّمها لا يكون إلا إذا سارت مسيرة المرأة كما هي عندهم، وعلينا أيّها الإخوة الأفاضل ألا نقلل من دور الإعلام، وهو سلاح ماضٍ في هذا الزمن، فمن الواجب الاهتمام بالإعلام المرئي والمسموع عبر إطلاق القنوات الهادفة التي ترعى الفكر الإسلامي المعتدل وتعريفه، والاهتمام بوسائل التواصل الاجتماعي، ومواكبة التقنيات الحديثة التي تساعد في نشر الفكر المعتدل، وتنشيط الثقافة بدعمها

بالأعمال الفنية من مسلسلات وأفلام ومسرحيات هادفة معرّفة بأعلام المسلمين وأنشطتهم ودورهم، وإبراز الرموز، ومحاسبة المعتدين على رموز الأمة.

هذا ملخّص ما نقول... نسأل الله تعالى أن يسدّد خطاكم، وأن يجمع كلمتنا، وأن يوحد صفوفنا، وأن يحفظنا في بلدنا، وأن يجعل بلدنا آمنًا مطمئنًا متعافيًا، إنه على ما يشاء قدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



قصيدة سماحة الشيخ عبد الله الخاقاني

الحوزة العلمية في النجف الأشرف

مفتاحُ كلِّ المُعضلاتِ بِبِسْمَلَةٍ
وببعثةِ الهاديِ الرسالةُ لم تزلْ
هي آخِرُ البعثاتِ بعثةُ أحمدٍ
ولها من القرآنِ وحيٌّ غامرٌ
وتسيلُ من كلِّ الجهاتِ أشعةُ
نورٍ سماويٍّ يُطلِّ على المدى
قم يا ابنَ عبدِ الله صبحك قادمٌ
اقرأ بعينِ الروحِ كلَّ حقيقةٍ
فلقد تكشفتِ السماءُ لقلبك الـ
اقرأ فلا أحدٌ سواك سيقراً الـ
يا من تدثرُ والضياءُ دثاره
قم أنذر الدنيا ليتسعَ النّها

وبنقطةِ الباءِ الحقيقةُ مذهلةٌ
من عهدِ آدمَ بالسّنا متسلسلةٌ
وبها أخيرُ الرّهديِ أصبحَ أوّلُه
يتكثّفُ المعنى به كي يُجمِله
منه لكي تلجّ النفوسَ المُقفلةُ
والأرضُ من ظمأِ الهدايةِ مُوحلةُ
في الأفقِ يُوقدُ للقداسةِ مشعله
أمستْ على لوحِ الوجودِ مُمثّلةُ
أنقى وصار الوحي ينفثُ مقوله
آياتٍ إذ نزلتْ عليك مُفصّلةُ
اخلع رداءة من هجرتَ لتغسله
رُ وترحلَ الظلماتُ نحوَ المُقصّلةُ

ظمأى نفوس العاشقين املأ لها
 امنح لها أسماءها وأقل لها
 خذها إليك الأرض واغرس للشذى
 المبعث النبوي بعثه أنفسي
 هامت بصحراء الضلال وراعها
 كل الذي فيها فراغ موحش
 أصنامها عديت لعل صريخها
 حزر على حجر ويمثل شاخصا
 هي لا تعي إلا بأن صنيعها
 حتى إذا يئس المخاض وأمحلث
 المبعث النبوي شمس تحرر
 والسيف والسلطان فكرة عابث
 والدين رؤية هائم متأمل
 الورد مثل الورد حيث لمحتته
 المبعث النبوي رحله عاشق
 لا زال يسقط عن حقيقة سره
 فتعج بالإشراق نقطة ضوئه
 فيعانق الضوء الظلال حفاوة
 كأسا من الفكر الوضي لتنهله
 في كل منعطف لروحك ميزولة
 في كل شبر من مداها سنبلة
 بسلاسل الليل البهيم مكبلة
 أن الرزايا حولها متجثثة
 ملء المحاجر والعقول معظلة
 يوما سيرجع والأكف محملة
 صنم له بين القبائل جلجلة
 "رب" لتعبد تمره أو تأكله
 عادت بأبراد الأسي متسريلة
 كبرى بضوء الأمنيات مكللة
 قد أبدل الوعظ الرقيق بقنبلة
 رقص انزلاق الفكر نحو المهزلة
 فاحذر تؤول عطره كي تقتله
 قدماه في حقل الغرام مهرولة
 حجباً بها شمس النهى متجللة
 وتفيض عنه رؤى تُعيد تسلسله
 وتشير نحو النور منه البوصلة

ولربّما نحتاجُ صَحْوَةً مَبْعُوثٍ
فالماءُ مذبوحُ الضفافِ وعشْبُهُ
والعابثون هم الذين تقمّصوا
فوراءَ كلِّ ضحَىٍ لفكرٍ لاحٍ
مُترصِّداً ضوءَ الحياةِ بظلمةٍ
نحتاجُ مَبْعُوثَكَ المُنِيرَ يُطِلُّ ثا
ولقد يعودُ غداً ضُحَاكَ فينمحي
وأنا هُنَاكَ هُنَا أوِصِلْ رحلتي
فبأيِّ فانوسٍ سأكتشفُ المدى
أمشي وتُربِكُنِي خُطاي مُحاولاً
وأنا مُحتشِدُ الأمانِي عَلَيَّ
فأرى انشطارَ الغيمِ فوقَ يَتِيمَةٍ
في مُقلَّتَيْهَا ظِلُّ حُلْمٍ باهِتِ ال
دَمْعُ عَلَي دَمْعٍ يَجِفُّ فَتَخْتَفِي
فإذا الرمادُ بكلِّ نافذةٍ لَهُ
وأعيدُ تَكَرَّارَ السُّؤالِ ولم أجِدْ
عن دهشتي بينَ المرَايا كَلِّما
عن صوتِ قرآنٍ يَسيلُ مُدوِّياً
عن حُلْمِي الأَقصى بأنَّ سحابةً

أخرى تُغَيِّرُ عَلَي النُفوسِ مُزَلِّزَةً
وجهُ الظلامِ وتَسْتَفِيقُ قُرْنُفَلَةً
دورَ السماءِ بنزعةٍ مُتَطَقَلَةً
ليلٌ بحقدٍ منه يشحذُ مِعْوَلَهُ
من كلِّ نفثَةٍ عابِرٍ مُتَسَوِّلَةً
نيةً لنقتلِعَ المَتاةَ وِكلِّكَلَهُ
وجهُ الظلامِ وتَسْتَفِيقُ قُرْنُفَلَةً
صَمْتًا وَمِنَ عَيِّي تَهْطَلُ أُسِئَلَةً
الريحُ تَعِصِفُ والطريقُ مُضِلَّلَةً
أن أُمسِكَ الأملَ الشَّرودَ لأُكِمَلَهُ
أصحو وخيَطُ البؤسِ غادرَ مِغزَلَهُ
تَعْدُو وتَتَبَعُهَا عِباءَةٌ أُرْمَلَةً
ألوانُ يُخْفِي بالدُخانِ تَمَلِّمَلَهُ
أقواسُ عِشْقِي بالأحِبَّةِ مُوَصِّلَةً
عَصْفُ وَعَصَّتْ بالمَراودِ مَكْحَلَةً
إِلا إجاباتٍ تَلوُحُ مُوَجَّلَةً
أبصرُها لاحتْ مَاسِي مُقْبِلَةً
ورؤاهِ حَتَّى الآنَ غيرُ مُفْعَلَةً
لا بدَّ تأتي الحَقْلَ تُرْضِعُ جَدْوَلَهُ

فيعودُ للنفسِ الغريقةِ بالأسى
وأعودُ للقرآنِ أنهلُ ماءهُ
فكأنني أتلوهُ أولَ مرّةٍ
وأعودُ ثانيةً وأمسحُ من على
وأزيحُ من بينِ الحروفِ وساوسًا
فأراه تُشرقُ في دمي آياتهُ
هو زادي الأتقى هويّةُ خافقي الـ
المبعثُ النبويُّ رحلَةُ أنفسي

إنسانُها فإذا الضُحى ما أجمَله !
عَدْبًا فتغمزني المعاني المرسلّة
والعِشْقُ يصرعُني هوى لأقبَله
صفحاتِه كلّ الشروحِ المُخجَلّة
حامتُ بمعناه البهّيّ لثبْدله
وأمدُّ طرفَ الرُوحِ كي أتأمَله
أولى وغِبطةُ رُوحِي المتأصّلة
ظمأى بأعماقِ الحقيقةِ مُوغِلّة



كلمة فضيلة الدكتور حامد الحياياني رئيس جمعية رابطة العلماء في العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حفظ نظام الدين بالعقول الراجحة، وأقام منار الشرع الحنيف بالحجج المانعة، فهو الذي دلّ العقل عليه بالبدهاة والنظر، فيميز الإنسان بفصل الناطقين على العجاوات والحجر، والصلاة والسلام على المصطفى سيدنا محمد المتميّز بالكمال على نوع البشر وعلى آله وصحبه النجوم الغرر.

المشايخ الكرام من علماء الدين، السادة الأفاضل، الإخوة الحضور، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في بداية حديثي فقد قيّدني أخي المقدم بقيد قويّ وحصر عليّ وقتي، لكنني سأتكلم بما أستطيع أن أصل إليه على هذه المسامحة الكريمة.

في البداية أتقدم بالشكر الجزيل إلى هذه المؤسسة العلمية المباركة، وهذه المؤسسة كما علمناها من المؤسسات الإصلاحية التي تدعو إلى توحيد الكلمة ورضّ الصف، وهذا ما يعني أننا إذا وجدنا مثل هذه المشاعر وهذه الأفكار وهذه العقول نستطيع أن نبنى هذا البلد، وبلدنا العراق اليوم به حاجة كبيرة لكلّ هذه الأفكار ولكلّ هذه العقول.

ومن هذا المنطلق ومن هذه المحاور التي جاءتنا من هذه المؤسسة العلمية اخترت بعض النماذج لأقف عندها لأوصل هذه الفكرة إلى إخواننا جميعاً، وإنني لا أقصد من جلس في هذه القاعة لكنني أقصد من كان بعيداً عنها، وكذلك من باب

التذكير ومن باب النصح والإرشاد، وكي نقف الموقف الواحد لبناء بلدنا العراق الجريح، وكذلك للوقوف ببناء بلداننا الإسلامية حتى نصل إلى آخر مسلم في العالم بعد حمايته وبعد حفظه وبعد وقايته من كلّ هذه التحدّيات. وهذه التحدّيات تكمن في استخدام المخدّرات والمسكّرات والانحلال الأسري، وكذلك عندما نقف لندافع عن حقوق المرأة وعن حقوق الطفل، هذا أمرٌ في غاية الخطورة، ظاهره يبعث الروائح والألوان المغربية، وباطنه يهدم مفاهيم الإسلام وأحكامه بجملتها، لأن الذين يدعون إلى حقوق المرأة أو الطفل يعني ذلك أن المرأة قد ظُلمت، وأصبح التعسّف من كلّ جهاته عليها من دين سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام، وهذا ما يتنافى مع عقيدتنا وديننا وأخلاقنا.

وأذكر مسألةً بسيطةً، ماذا يعنون بحقوق الطفل؟ يعنون بذلك أن الطفل إذا أراد أن يسلك طريقاً للمخدّرات وللخمر وللفساد وللانحلال وإلى التمرّق الخلفي، لا يستطيع الأب أن يكلم ابنه بكلمة واحدة ليقول له يا بني مهلاً لا تسرف في هذا الطريق، لا تمش في هذا الطريق، هل هذا هو المقصود من هذه الحقوق؟! إذا أين النصيحة؟ وأين التربية؟ وأين التعليم؟

كما ذكر إخواننا ومشايخنا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- اعتنى ربّ العزة بتربيته وبتعليمه ثم بعثه للناس أجمعين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.

أقول فلما أبدع الصانع الحكيم خلقه انتخب منهم آدم -عليه السلام- ليكون رائد الخلافة الإلهية على الخلائق، فقال عزّ مجده: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ - البقرة: ٣٠﴾.

إذاً يا إخوة وامتنالاً لقول الله -عز وجل- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ - الذاريات: ٥٦﴾ هذا الخلق خُلق لطاعة الله، خُلق للامتثال لأمر الله، خُلق لتكوين البشرية على ما يُرضي الله -سبحانه وتعالى-، إذاً من هذا المنطلق يا إخوة، كان أول تكليف لهذه الخليقة هو تكليف العلم الذي لا يكون إلا بذات العقل، والعقل من العقال الذي يعقل صاحبه كي لا تستهويه الفتن والملذّات والشهوات، ويخرج عن نطاق العقل، العقل الذي ارتضاه الله -سبحانه وتعالى- لهذا المخلوق وميّزه من باقي المخلوقات، إذاً علينا أن نفهم أننا مع العقل، وهذا

معناه أننا نحتاج إلى حماية للعقل، وهذه الحماية تأتي من العلماء، ومن المفكرين، ومن المثقفين، ومن الدعاة، ومن المصلحين، وأدعو أخي السيد جواد الخوئي لأن يجعل من هذه الدار ما يتمكن به لإصلاح أبناء المجتمع بالدعوة والإرشاد والنصيحة والتقويم وغير ذلك، لأن المجتمعات اليوم بها حاجة ماسة وملحة، والعقل لا يُبنى إلا بالعلم، فإذا لم يكن هنالك من علم فليس هنالك من عقل، فالإنسان بعقله، ولكن يا تُرى مع من نقف اليوم؟.

المخدّرات، ولست من المبالغين إذا ما قلت إن المخدّرات وفي بلدنا هذا وفي مجتمعاتنا المسلمة المحافظة المجتمعات الطيّبة، حيث أصبحت المخدّرات تدقّ الباب علينا دقاً، وتطرق الباب علينا طرفاً، وتدخل إلى أعماق البيوت وكأننا في غفلة. ومن المصائب الكبيرة والويلات العظيمة أننا نجد انتشار المخدّرات في المدارس - ابتدائيات وثانويات - والجامعات، فضلاً عن وسائل التواصل الاجتماعي، فلذلك نحتاج أن نبني العقل والعلم في المدارس والكليات، لكن الاستعمار فكّر أكثر مما نفكّر بأنفسنا، فكّر بسلب العقل من أجسادنا وإخراجه منها، وإذا خرج العقل ممّا ذهبنا وضاع العلم ممّا، فدقّ الأبواب وطرق المنبّهات على المدارس والكليات.

نطالب من له كلمة، نطالب من بيده مسؤوليّة أن يراقب الله -عزّ وجلّ- في أبنائنا وبناتنا وأجيالنا، لأن الاستعمار يريد أن يُذهب عنّا العقول، وإذا أُذهبت عقولنا سيطر علينا كما يريد. هم لا يفكّرون بي وبكم لكنهم يفكّرون بالجيل الذي يأتي من بعدنا، فإذا جاء هذا الجيل وقد تربّى على الخمر وعلى المنكرات وعلى المخدّرات، كيف تبني البلد وكيف تبني المجتمع وكيف تخاطب الناس وكيف تنصح الناس.

إدّا يا إخوة، الأمر خطير وقال الله -سبحانه وتعالى- في محكم كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ - المائدة: ٩٠﴾.

للأسف الشديد أننا نجد الكثير من أبناء المسلمين، وربما من الطبقات المثقفة هنالك من يقول إن الله تعالى لم يقل حرّم عليكم الخمر!!! اشرب الخمر وأذهب عقلك وانتَه من التفكير؛ لأن الذي يذهب عقله هو كالبهائم حاشاكم.

إدًا هذا الإنسان عليه أن يفهم، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، وكما يعلم علماء اللغة ويقولون لنا جميعًا إن الاجتناب أبلغ من التحريم، والاجتناب هو الابتعاد.

إدًا علينا يا إخوة أن ننتبه إلى أمر مهم جدًا بأجيالنا وأبنائنا وبيناتنا بالجيل الصاعد الذي سيأتي قد تربى على كل هذه المنكرات وهذه الفواحش. أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعًا، وبهذا اجتماعنا أن يجعله اجتماعًا مرحومًا، وتفزقنا من بعده تفرقًا معصومًا، وأن يبث في نفوسنا ما فيه خدمة بلدنا ومواطنينا وتوحيد كلمتنا ونبذ الفرقة، وكل ما يدعو إلى الفرقة، لأننا من أهل القرآن ومن أتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

وأختم كلامي بحادثة حدثت في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويسمح لي الشيخ جزاه الله خير الجزاء:

إن سارقًا أراد أن يسرق غنمًا، فدخل على هذه الغنم، وعادة الناس أن يتخذوا كلبًا يُسمى كلب الحراسة، فانتبه إليه الكلب وهو يريد أن يسرق من هذه الغنم، فهجم عليه وقتله، وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي رواية أنه رآه مرميًا على الأرض ودمأوه تسيل، فقال عن هذا الرجل - اليد السارقة التي تفتشت السرقه في أعماقنا جميعا - قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قتل نفسه وأضاع دينه، والكلب خير منه. لماذا فضّل الكلب على السارق؟، لأن الكلب من الأوفياء، أراد أن يحمي غنم صاحبه.

إدًا علينا أن نشعر بأمانة هذا البلد، كيف نحمي هذا البلد من المخدرات والمسكّرات والفتن والملاك والشهوات وأماكن اللهو والفجور والدعارة وغير ذلك ونحمله من السرقات وغيرها.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني وإياكم لمراضيه، وأن يجعلنا من أحبب نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، وأشكر الذين قاموا على هذا المؤتمر وهذا الملتقى، بأنهم جعلوه تحت أطياف وظلال وباحات المبعث النبوي الشريف صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين.

وبارك الله فيكم، والسلام عليكم ورحمة الله.



كلمة سماحة السيد جواد الخوي

أمين عام دار العلم للإمام الخوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه المنتجبين.

قال الله تعالى في مُحْكَمِ كتابه العزيز: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ - آل عمران: ١١٠﴾. صدق الله العلي العظيم.

الحضور الكريم سادة، ومشايخ، وأساتذة، وطلاب علم، وضيوفًا كرامًا على اختلاف عناوينهم،

سلام من الله عليكم ورحمة منه وبركات،

بمناسبة هذه الذكرى العطرة، والأيام الخالدة في سجل التاريخ المعطرة بأريج القداسة والعظمة ذكرى المبعث النبوي الشريف، مبعث نبي الرحمة والمحبة، وذكرى الإسراء والمعراج يسرني أن أهنئكم وأبارك لكم هذه المناسبات التي تمثل منعطفًا في حياة الأمة الإسلامية؛ لكونها تشكل نقطة تحول في طريق الدعوة إلى الله وإثبات نبوة رسولنا الكريم، ودلالة على خاتمة الرسالة السماوية.

ومن وحي هذه المناسبة، ومن إلهام هذه الذكرى جاء انعقاد ملتقانا الإسلامي هذا الذي أتى في وقت نحن في أمس الحاجة إليه؛ لما تمر به الأمة في العصر الحديث من تحديات مشتركة تواجهنا على حد سواء مثل الإرهاب والتطرف

والانحلال الأخلاقي والمخدرات، فاختزننا محاور حيوية تُشخّص هذه التحديات التي تواجه أبناء المجتمع الإسلامي، وهي محاور تجمعنا معاً في اتفاق هو أساس مكينٍ لعمليتنا المشتركة، فدَعُونَا نصل إلى الحُلُولِ الناجعة لها؛ لأنَّ التحديات واحدة.

واسمَحُوا لي هنا أن أرحّب بالإخوة أصحاب السماحة والفضيلة ممن حضر إلى النجف الأشرف، وخصوصاً من تجشّم عناء السفر من إقليم كردستان، ومن محافظات العراق الأخرى، كالموصل وصلاح الدين والأنبار فضلاً عن العاصمة بغداد، فأهلاً وسهلاً بكم جميعاً.

سادتي...

إنّ فضيلة شيخ الأزهر الشريف قد دعا - مشكوراً - قبل مدّة قصيرة إلى اجتماع علماء الأمة من أجل الوحدة وتثبيت دعائمها وإقامة أعمدتها والوقوف معاً كالبنيان المرصوص أمام التحديات التي تتعرّض لها الأمة جَمعاً.

وهنا لا بدّ لي من القول بأنّ مدرسة النجف العلمية بمراجعتها وعلمائها وأعلامها ومفكرها لم تزل الرائدة في التواصل مع أبناء الأمة، وأنّ تاريخها ليّزخر بمواقف مراجعتها حاضرًا وتليدًا، ودعوني أضرب لكم بعض الأمثال نماذج ساطعة في هذا الخصوص كالإمام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والإمام السيّد محسن الحكيم والإمام السيّد أبو القاسم الخوئي، وإلى يومنا هذا، إذ يقول الإمام السيّد السيستاني حفظه الله: (إنّ التواصل مع إخواننا أهل السنّة قائم سواء عن طريق اللقاءات المباشرة، أم غيرها، ووجهات النظر بيننا وبينهم متطابقة أو متقاربة في معظم القضايا الرئيسية، والحوار هو الأسلوب الأمثل لحلّ الخلاف إن وُجد)، وعليه فإنني أقول جازماً إنّ المرجعية الدينية طوال تاريخها المديد لم يصدُر عنها مطلقاً أيّ موقف أو فتوى تبعث على غير تآلف المسلمين وتحابهم وتعاضدهم، وإنّ كلّ دين ومذهب لا يُمثّله إلا علماءؤه المُعترف بهم ممن يُعدّون وُجّهته وواجهته، أمّا المتطقلون وأنصاف العلماء فهؤلاء لا يُمثّلون المدارس الفكرية والمذهب، فدَعُونَا نبتعد ولا نستمع للأصوات التي تنعّب خارج سرب الوحدة، وأن لا تُحيط هذه الأصوات عزيمتنا في الوحدة ولا سيّما أن هذا التواصل تقوّم به مؤسّسات دينية وشخصيات فكرية عراقية فريدة من نوعها لكونها بعيدة كلّ البعد عن سياسة الدولة وتأثيراتها الحزبية.

وما إقامه هذا الملتقى إلا دليل عملي على مبنيات النجف الأشرف ورؤاها، نعم، فرضت الظروف السياسيّة والجرائم الإرهابية بيئة عملت على تشتيت شملنا، وحاولت بتّ الفرقة بيننا، ولكن أئها السادة علينا أن نعي أننا في قارب واحد، وأن ما يجمعنا ويقرّبنا مع بعض أكثر ممّا يفرّقنا، وكما يقول المرجع الأعلى السيّد السيستاني في هذا المجال: (إنّ المشتركات هي الأساس القويم للوحدة الإسلاميّة، فلا بدّ من التركيز عليها لتوثيق أواصر المحبّة والموادّة بين أبناء هذه الأمة، ولا أقلّ من العمل على التعايش السلمي بينهم مبنياً على الاحترام المتبادل وبعيداً عن المشاحنات والمهاترات المذهبية والطائفية أيّا كانت عناوينها، فينبغي لكلّ حريص على رفعة الإسلام ورقيّ المسلمين أن يبذل ما في وسعه في سبيل التقريب بينهم والتقليل من حجم التوتّرات الناجمة من بعض التجاذبات السياسيّة لئلا تؤدي إلى مزيد من التفرّق والتبعثر، وتفسّح المجال لتحقيق مآرب الأعداء الطامعين في الهيمنة على البلاد الإسلاميّة والاستيلاء على ثرواتها).

فالآخر من الأديان الأخرى لا يميّز بين من هو مسلمٌ شيعيٌّ ومن هو مسلمٌ سنيٌّ، فلندع اختلافاتنا الفقهيّة والعقدية داخل الحلقات العلميّة في البيت الإسلاميّ خاصّة، والقرآن الكريم يدعو الإنسان إلى التفكّر فيما يتبى من آراءٍ ومعتقداتٍ، فجعل الإيمان بالأصول الاعتقاديّة أمراً خارجاً عن التقليد، فلا يجعل نفسه أمام اتجاهٍ واحدٍ إجباريٍّ، ولا يغلّق على موروثاته من آباؤه وأسلافه من دون دراسةٍ وتمحيصٍ، وهكذا نصل إلى تحقيق ما أمرنا الله به من كوننا أمةً واحدةً، وهو هدفٌ تجمّعنا هذا.

في الختام أشكر الإخوة زملاء في مدرسة دار العلم للإمام الخويّ في النجف الأشرف، والأصدقاء الأعزّاء من خارج المدرسة على الجهود التي بذلوا في سبيل تنظيم ملتقانا هذا،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

البحوث



البحث الأول



الإلحاد والجيل المعاصر دراسة إستمولوجية



سماحة الشيخ الدكتور حسن الربيعي جامعة الكوفة – كلية الفقه

المقدمة

هذا بحث بعنوان: (الإلحاد والجيل المعاصر - دراسة إبستيمولوجية)، اخترته بسبب الحيوية الفعالة اليوم له وتطوره ليشمل شريحة من الشباب المنفعل بهذه الأطروحات التي تنكر خالق الوجود المادي والمعنوي وتميل إلى نظريات الصدفة والأزلية وغيرهما.

فيه بينت المفاتيح لهذا البحث وتأثر الجيل المعاصر به، ثم ميّزت بين الشك واليقين من خلال النظرية والفكرة، وتبعت تقسيمات الأستاذ وائل حلاق من النظرية إلى الممارسة ثم نقطة التحول بين النظرية والفكرة أو بالعكس وهي تقسيمات علمية مهمّة.

فُسم البحث على مباحث وتمهيد، تناول الأخير الإطار المفاهيمي، أما الأول: فكان الكلام على النظرية والفكرة الإلحادية، والثاني: الممارسة الإلحادية والإيمانية، في حين تناول الأخير قضية التحولات الحادّة، من الإيمان إلى الإلحاد وبالعكس، ولا بدّ للمختار أولاً البحث الدقيق والانتقال لأيّ فكرة لا بدّ أن يصل إلى اليقين التام.

تمهيد المفاتيح المفاهيمية والمصطلحية

الإلحاد في اللغة:

أحد فلانٌ مال عن الحق، والإلحادُ ضريان: إلحادٌ إلى الشرك بالله، وإلحادٌ إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافي الإيمان ويبطله، والثاني يُوهِنُ عُراه ولا يبطله، ومن

هذا النحو قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ - الحج ٢٥﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ - الأعراف ١٨٠﴾، والإلحاد في أسمائه على وجهين، أحدهما: أن يُوصَف بما لا يصبِحُ وصفهُ به، والثاني: أن يتأوَّل أوصافه على ما لا تليقُ به^(١).

والميل عن الحق لا يعني نفي الخالق تمامًا، وكذلك الشرك، فلا يمكن الاعتماد على المعنى اللغوي لفهم معنى الإلحاد المتصوّر، وفي موضع آخر ذكر الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) في الكافر أنه: متعارف فيمن يجحدُ الوجدانية، أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها^(٢) ولكنه لا يدلّ على المطلوب، وإن اجتمعت بعضُ سماته أيّ في المُلحد.

ومما يقارب ذلك: الدهريّ الذي لا يؤمن بالآخرة^(٣) ولا يثبت صانعًا من ورائه^(٤)، ومن المجاز ألحد في دين الله مال إليه^(٥)، ولو تتبّعنا اللفظة تاريخيًا نجد لها تطوّرًا عما كانت تعني، وهذا يحتاج إلى معجم تاريخي للألفاظ يبيّن لنا تاريخ الألفاظ العربية ومجالات تحوّلها وتطوّراتها، وفي عصرنا هناك مشروع لذلك يتم العمل به الآن.

الإلحاد في الاصطلاح:

الإلحاد (Atheism): هو إنكار وجود الله، وفكرة الإلحاد أُطلقت بحسب زمانها ومكانها ثمّ تطوّرت في المصطلح المحدّد^(٦) وفي تهذيب المصطلح قال ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins): ما أريد قوله هو أن الكلمة (مُلحد) على

(١) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمّد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمّد سيّد كيلاني، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص ٤٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٤.

(٣) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، كتاب العين، طبعة جديدة فنية مصحّحة ومرتبّبة وفقًا للترتيب الألفبائي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص ٣٠٧.

(٤) معجم المصطلحات الكلامية: إعداد قسم الكلام والحكمة لمجموعة باحثين في مجمع البحوث الإسلامية، (مشهد: دفت، ١٤٣٦هـ)، ج ١، ص ٣٥١.

(٥) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٦٦٨.

(٦) جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨م)، ج ١، ص ١٢٠.

خلاف قولنا غير مؤمن بالله، لها وقع سيئ في الأسماع، ولهذا يرغب عدد من الناس بمغادرة هذه الكلمة إلى مصطلح (لا ديني) أو ببساطة (علماني)^(١)، وهذا التحوّل أو الهروب من المصطلح يعني الضغط النفسي والعلمي على تكرار لفظة الإلحاد والمُلحد التي أصبحت سيئة في أسماعهم، وقد تنمّ عن فقدان الأدلة على دعواهم، ولذلك أصبح المصطلح مشكلاً تمامًا، ولذلك عبّر دوكنز قائلًا: هناك مشكلة في المصطلح^(٢).

ويمكن أن ينقسم إلى إلحاد قديم وإلحاد جديد، ويبدو أنه أول من أطلق الأخير (new atheism) هو جيرري وولف في مقالة نشرها عام ٢٠٠٦م في مجلة (وايرد) البريطانية بعنوان: كنيسة غير المؤمنين، والعنوان الفرعي لها: فرقة من الأشقاء فكريًا يقيمون حملة ضدّ الإيمان بالله، هل نجحوا في كسب المتحوّلين؟ أو اقتصرُوا على التبشير بين جمهورهم؟^(٣).

ويبدو أن الإرهاب الملتصق بالدين الإسلاميّ أثر أثره في موجة الإلحاد الجديدة في العالم الغربي والعربي وحتى شعوب الدول الإسلامية، وهذه الحادثة المهمّة (الحادي عشر من سبتمبر) كانت نقطة تحوّل مثلاً في حياة سام هارس وهو أحد أقطاب الإلحاد الجديد، فقد أصدر كتابه عن هذه الظاهرة كرّدة فعل من الحادثة، وهي الثيمة المركزية التي يدور حولها الكتاب، وهو قد بدأ به في ١٢/٩/٢٠٠١ أي بعد يوم من الحادثة^(٤).

ويبدو أن هذه الحادثة سبّبت رجّة كبيرة في الأوساط المجتمعية، وبدأت ظاهرة الفوبيا والاتّجاه المضادّ، أيّ نفي الخالق والترويج له، وهي الحركة المضادّة الكليّة بعد سماع، أو حدوث الجزء، أو نفي المطلق، أو سلوك يعاكسه الآخر بالمطلق.

ومهما ذكروا الأقسام الإلحادية فهي في قلق من الوجود وخالقه مهما كانت الأسباب، فالدرجة الأولى قد تنزل للثانية وهي الربوبية أو الثالثة اللا أدرية، وقد

(١) ريتشارد دوكنز، حوارات سيديني، ترجمها وقدم لها: قيس قاسم العجروش، (بغداد: سطور، ٢٠١٧م)، ص ٢٩.

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) عبد الله صالح العجيري، ميليشيا الإلحاد مدخل لفهم الإلحاد الجديد، (السعودية، تكوين، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م)، ص ١٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١.

ينتقل إلى الأولى، وربما هي مراحل شكلية فقط لا أساس لها من الصحة، لأنها تعيش القلق الوجودي الفردي أو النوعي حيال الوجود وعدمه.

الجيل المعاصر:

تعيش الأجيال المتوالية عصورًا مختلفة عن بعضها من عدّة جهات وأهمّها التطوّرات الاجتماعية والسياسية والعلمية، فكلّ جيل وإن كان متّصلًا مع آخره، فهو في الحقيقة جيل جديد آخر، يفقد من آخر جيله بعض السمات ويتحلّى بسمات جديدة قد تُعدّ نشازًا أو عيبًا انثربولوجيًا من عادات وتقاليد الأجيال السابقة، والجيل هو مرحلة التعاقب الطبيعية من أب إلى ابن، ومدة الجيل من ٢٠ - ٣٠ سنة^(١) ونعني بالجيل المعاصر شباب هذا العالم الذين يدخلون الوعي من كلّ جوانبه ويواكبون كل شيء اليوم.

والجيل الجديد (المعاصر) عادة يتبّنى الأفكار التي لم يسمع بها وتثيره في المدارس والمعاهد والجامعات ويحاول الثورة على القديم ويعتبره متخلّفًا عن ركب الحضارة وخاصة إذا كان يشعر بالدونية والتفوق للآخر في ميادين العلم، ويحاول طيّ صفحة التراث كما اصطلح على ذلك عبد الله العروي.

وأعتقد أن المناهج التعليمية يعاد النظر إليها وخاصة الوعي التاريخي وتشكّل الحضارة ومن ثمّ التركيز في تاريخ العلم وإسهامات الحضارة بعضها مع البعض الآخر، ودراسة ذلك بشكل تفصيلي في بيان الإسهامات الحضارية وتطوّر العلوم التراكمية حتى وصولها إلى العالم الغربي ثم بروز المارد الصيني وقبله الياباني وهكذا بقية البلدان إذا أحسنت الإدارة والنظم.

(١) ويكيبيديا (wikipedia.org).

الابستيمولوجيا:

هي نظرية المعرفة من حيث قدرة الإنسان في معرفة الواقع، أو هي فلسفة العلوم، أو هي نقد الأسس^(١) أو هي معرفة الأسس ونقدها عن طريق البحث المعرفي الخالص.

هذا المصطلح يعطينا الحكم النهائي على أفكار مختلفة مشروطة بالمعرفة بعد إخراج البحوث الحماسية والمتطرفة والمتأثرة والمدفوعة بغير براءة.

المبحث الأول: النظرية والفكرة

١- النظرية الإيمانية

عاش الإنسان الأول في الأرض بعدما كان وثيق الصلة بالله الخالق لوجوده وإبرازه حتى على الملائكة، فهو الأول في عالم الوجود قد يُعرف بآدم الأول إلى آدم الأخير في عالمنا المتقدم واللاحق والمعاصر وفي بعض الروايات: (ألف ألف آدم)^(٢) في ضوء ذلك الإنسان الأول مؤمن متّصل بالسماء على وفق الرؤية الدينية، ثم سرى الانقطاع إلى ذرّيته فيما بعد إلى الجحود والنكران والتمرد، قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ - البقرة ٣٠﴾، وهذا النصّ يشير إلى تكرار دورة الإنسان أو تكرار آدم البشري ومعرفة الملائكة بذلك، فحالة الإيمان في ضوء ذلك غير متروكة وإن وُجد ما يخالف الأنبياء ونكران وجوده والرضوخ أو الركون للأرض وعدم الاعتراف بالإعادة مرّة أخرى، وقد أخبر الله عن هؤلاء بقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ - الجاثية ٢٣﴾، ونُسب إليهم بالدهريين وإن تطوّر المصطلح بعد ذلك.

إن الإيمانية علقت بدعاتها ضمن نطاقات واسعة في شرائح المجتمعات البشرية وإن اختلفت بين الشدّة والضعف بدرجات، وكانت السماء متّصلة بالأرض

(١) حسن كريم ماجد الربيعي وآخرون، المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة، (لبنان، الرسل، ١٤٢٢هـ/٢٠١٢م)، ج ١، ص ١٣.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٧٥ (shiaonlinelibrary.com)

بلا انقطاع وإن جرت محاولات شرسة لتكذيب المسارات النبوية وقده في شخوص الأنبياء، ولكن بلحظة تأمل نجد المشتركات الكبيرة بين الأنبياء في كتبهم ودعواهم وأحكامهم، وبالبحث عن الأسس المنهجية نجد خط الوثوق بهم وإن حُرِّفت من قبل أتباعهم وشُوه الكثير، وهو منهج القدم التاريخي وتراكماته، ولن يخلو من هذه الفكرة أحد سواء أكانت فكرة أرضية أم سماوية.

إن الإيمان إحساس وبرهان عقلي^(١)، وجمال عميق في ذات الإنسان نحوه، فالطبيعة والذات يكمن فيها حنين الخالق للارتباط الفعلي بين الخالق ومخلوقه، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ - الذاريات ٢١﴾.

يعيش الإنسان الباحث بين اليقين والشك في حالاته، فإذا كان كذلك لا بد من البحث عن اليقين للقاعدة: لا تنقض اليقين بالشك وانقضه بيقين آخر، وهذه أعظم قاعدة وضعها الإمام الصادق (عليه السلام) لرفع الشك والوصول إلى اليقين، فالإنسان دائماً يبحث عن اليقين في كافة مناحي حياته، والإيمان يقين واضح في نفس المؤمن، يتحقق بنظرة إلى الصناعة العجيبة والدقيقة والانتظام وعدم الميل أو الاضطراب: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء - النمل ٨٨﴾.

وفي دعاء الإمام زين العابدين السجّاد قوله: ((الحمد لله الذي تجلّى للقلوب بالعظمة واحتجب عن الأبصار بالعزة، واقتدر على الأشياء بالقدرة))^(٢).

وفي موضع آخر: ((المؤمن بلا نهاية والمُبدئ بلا أمد، والصانع بلا أحد...)) ((ليس له حدّ في مكان، ولا غاية في زمان، لم يزل ولا يزول ولن يزال...))، ولو جمعنا أقوال الأئمة الهداة في الردّ على الملاحدة في عصورهم لوجدنا نظرية معرفية رصينة في التأسيس لمجموعة من الإجابات الواقية لجيلنا المعاصر، هم بهم حاجة إلى ذلك جدّاً، ولو رجعنا إلى علماء الطبيعة لوجدنا أغلبهم يذكرون الخالق بأجلّ الأسماء، فهذا عالم الكيمياء المشهور جابر بن حيان الكوفي (ت ٢٠٠هـ) تلميذ الإمام الصادق (عليه السلام) يبتدئ باسم الله العظيم ويختم به، وغيره كما نقرأ

(١) عبد الله نعمة، هشام بن الحكم رائد الحركة الكلامية في الإسلام وأستاذ القرن الثاني في الكلام والمناظرة، بيروت: دار الفكر اللبناني، بلا، ص ١٢٧.

(٢) الصحيفة السجّادية، تقديم: السيّد محمّد باقر الصدر، (بيروت: دار القارئ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص ٢٣٣ رقم الدعاء ٥٦.

في بدايات مخطوطاتهم، ولو استعرضنا تاريخ العلم في الحضارة الإسلامية لوجدنا ذلك واضحًا.

فالنظرية الإيمانية مهيمنة تمامًا وإن ظهرت فكرة إلحاد عند بعض العلماء، ولكنها لا تستطيع مقاومة الإيمان ومحوه، فالفكرة غير قادرة على النظرية المرتكزة عبر المؤمن والإيمان الحقيقي ولا تقاس على سلوكيات تدينية خاطئة لأن البحث عند الربوبي والملحد واللا أدري عن جزئيات نظم المسلمين وليس نظام الإسلام بنظريته وأن نكروها بالدلالة لا الأدلة.

٢- الفكرة الإلحادية

لا يُنكر أن الاسبقية للنظرية الإيمانية، وليست للفكرة الإلحادية أسبقية أبدًا؛ لأن البداية إيمانية، هذا ما صرحت به الديانات كافة، وتتبلور فكرة الإلحاد على نفي الخالقية لهذا الوجود وتدعي أفكارًا بعضها غير منطقي ولا عقلي، وعند النظر يقولون احتمالية غير مجزومة لنفي الخالق، ومنهم من يفترض الإلحاد ويرزه، والاعتقاد بالإيمان يجب أن يكون على أسس وجيهة، ومنهم من عكس ذلك، أيّ الإيمان هو لا مفترض أولًا، وفكرة إثباته والأدلة عليه^(١).

ومن أسس التشكّل الأولي للإلحاد الشر^(٢) وفكرة الخلق وحماسة الشباب في بنية شخصية مهمّة، كيان النفس وإيجاده وقدرته على هذا التحدي يبدأ سرًا ثم بعد سنوات يُعلن عنه.

وفكرة الإلحاد نوع من التمرد على السائد في الجيل التقني المعاصر عبر تجمّعات التواصل الاجتماعي، تمرد على الأب أو الأمّ أو الأقارب تصوّرًا في بناء شخصية، والفكرة قد تبدأ بسماع الآخر بحماس عن تخلف الدين واتباعه وتطور الغرب عبر الكلام عن الكون ونظريّاته، أو التحرّر من قيود الدين نحو التملّص من كل قيود باسم الحرية المطلقة، وإن كانت زائفة، إذ تأتي الفكرة من أثر الهروب من

(١) للمزيد ينظر: أنتوني فلو، مع روي إبراهيم فارجيس، هناك إله كيف غير أشرس ملاحظة العالم أفكاره، ترجمة: جئات جمال، تقديم: محمد العوضي، مركز براهين للأبحاث والدراسات، ٢٠١٧م، ص ٦٧ - ٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦.

الواقع والتماهي في واقع آخر يتصوّره يوافق، جوهر الإلحاد هو معاداة الدين بكل أشكاله، والملاحدة الجُدّد لا يُدينون الإيمان بالله فحسب، بل مجرد فكرة احترام هذا الإيمان، الدين شرّ^(١).

محاولة الابتعاد عن الدين ونقده هما المرتكزان في الفكرة، يذكر ستيفن هوكينغ في سيرة حياته عن الانفجار الكبير المعارض من قبل نظرية الحالة المستقرّة، وإذا تمّ التعارض للانفجار الكبير فسيتمّ اللجوء إلى الدين والقدرة الإلهية لتحديد كيفية بدء الكون^(٢).

إن فكرة الإلحاد تعيش لدفع نظرية الدين، ولكن الدين يجيب عن أسئلة الواقع، وقد لا يجيب الإلحاد عن بعضها، إن ظهوره بشكل واضح ضمن خطّ برجوازي واضح يستهدف الدين وأبعاده ووصفه بالخرافات والأساطير وأن العلم يلتصق بالإلحاد والفكر المتطوّر العلماني، وربما يصفون الإلحاد بالفكرة المعاصرة والدين بالفكرة القديمة التاريخية.

حارب الإلحاد فكرة الغيب باسم الفلسفة الوضعية المنطقية، ورفعت شعار: ما لا يمكن رصده لا وجود له، رافضة كلّ تفكير في الغيبات وعلى رأسها الإله^(٣) مع أن هذه الفلسفة ماتت بعده بمدة^(٤).

في الفكر الإيماني يطرح الغيب كمفهوم خاصّ يدلّ على المستقبل كأحد معانيه، ولكن هنا ننظر إليه كعالم لا نشاهده ولا نحسّه ولا نلمسه^(٥).

بدأ جون لوك بإبطال نظرية ديكارت في وجود ما يُسمّى بالأفكار الفطرية أيّ التي تُولّد مع الإنسان، فهي قبلية (المذهب الغريزي)^(٦)، وكانت أبحاث كانط مهمّة جدّاً، وخاصّة في العقل المحض والعقل العملي وفي الأخير توصل إلى أن المشكلة الخلقية تستلزم بالضرورة التسليم بصحّة الأفكار الثلاثة: وجود الله وخلود

(١) العجري، ملبشيا الإلحاد، ص ٥٩.

(٢) ستيفن هوكينغ، موجز سيرتي الذاتية، ترجمة: محمّد الجندي، (بيروت: دار التنوير، ٢٠١٨م)، ص ٧٣.

(٣) عمرو شريف، رحلة عقل، تقديم: أحمد عكاشة، (القاهرة، نيويورك، ٢٠١٧م)، ص ٤٠.

(٤) للمزيد ينظر: المرجع نفسه، ص ٤١ وما بعدها.

(٥) إلياس بلكا، الغيب والعقل دراسة في حدود المعرفة البشرية، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ص ٩.

(٦) إلياس بلكا، الغيب والعقل، ص ٣٠.

النفس^(١)، إن الأفكار حول وجود الله قد تنبع من عدم العشوائية في الكون^(٢)، إن القوانين في الكون مستحكمة، ولكن من وضعها؟ ومن يحركها؟!

ما الطبيعة التي نتصورها ثابتة، وإذا كان كل شيء متحرّكاً فهل هو بلا محرّك، أو قانون يحركه؟ فمن وضع هذه القوانين وما سرّها؟ ولكي نهرب من القلق، قلق الوجود إلى الإيمان والاطمئنان، يحتاج تقنية الذات والموضوع للوصول إلى نتائج رياضية حاسمة أو أرجحية واضحة.

هل يرى الملحد أن الوجود مترابط أو مفكّك، أو مخلوق متروك في ضوء قوانين لا ينفكّ عنها، فهو يسير بلا خالق، أغلب الأبحاث العلمية منفكّة عن المحرّكة لها (القوانين)، وأغلب النظريات لا تستطيع أن تبحث عن الذات الصانعة مهما أُوتيت من قوّة، ولكن الآثار من الأدلّة الحاكمة والمهيمنة غير مدفوعة.

أعتقد أن الفكرة الإلحادية هي صراع نفسي يظهر نتيجة القلق والتمرد على سياقات دينية لا تمثّل الدين في جوهره بل هي أتباع مغلوط، مثل نظم الإسلام المختلفة عن نظم المسلمين، أيّ النظرية والخطأ في التطبيق أو الخطأ في التفسير، فإن الباحث الحقيقي يعرف أن القوانين والأحكام موضوعة للمكفّف من باب التسيير والحفظ بما يوافق العقل في العبادات والمعاملات ولها تأثيرات سلوكية مهمّة، ويحاول الملحد التخلّص من كلّ القيود للحكم الكليّ على المنظومة من خلال السلوك الخاطيء، وهو سنّة في كل الأفكار والنظريات الدينية واللا دينية، ففوق الخطأ في التطبيق وارد في الكلّ أيّ تلك النظريات، ولذلك بدأ النقد الموضوعي لمثل هذه الأخطاء والتجاوزات.

الإلحاد الجديد اتّخذ من حادثة الحادي عشر من سبتمبر منحي آخر في علاقة الدين والإلحاد في ضوء الحاضنة الغربية إلى الإسلام ونقده^(٣)؛ إذ مثّل الإلحاد الجديد الإسلام المحور الأساسي^(٤)، ولذلك عبّر ريتشارد دوكنز بأن الإسلام هو

(١) المرجع نفسه، ص ٥٩.

(٢) ستيفن هوكينغ، تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، (بيروت: دار التنوير، ٢٠١٠م)، ص ٣٨.

(٣) العجيري، ميلشيا الإلحاد، ص ٦٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٧٠.

أعظم قوّة للشّرّ في عالم اليوم^(١)، هذا الرجل اليوم هو كبير المنظرين للإلحاد، وله إسهامات كبيرة في عالم المحاضرات والمؤلّفات واللقاءات على مستوى العالم، وتأثّر به الجيل المعاصر من الشباب عبر التواصل الاجتماعي والاستماع إليه بتلّهف.

يذكر لرانس كراوس قائلاً: من المفيد في سياق الصراحة التامة أن أعترف من البداية، بأنني لا أحمل تعاطفًا تجاه قناعة أن الخلق يتطلّب خالقًا، وهي القناعة التي تمثّل جوهر كل الأديان^(٢)، وهذا النص لغرض المخالفة للديانة التي تُقرّ بالخالقية.

ثم قال في موضع آخر: لماذا هناك شيء ما بدلًا من لا شيء؟ إن الذين يختلفون معي من اللاهوتيين لا يفقهون شيئاً^(٣)، يرتبط الإلحاد في المخالفة التامة لما جاء في الأديان، فهل هو مجرد ردّ على الأديان؟ أو حقيقة علمية صرفة؟ وهل يُعقل وضع الميتافيزيقيا في المختبر والحسّ.

ويواصل قوله: إن الشخص الأول الذي قدّم فكرة الانفجار الكبير كان قسًا بلجيكيًا وفيزيائيًا اسمه جورج لوميتر^(٤).

وهذا الحدث يدلّ على الإمكان ويستدلّ على مقولات الأديان إلى المحدثات، فالدين لديه إجابات أكثر من النظريات العلمية في عصر المادّة والبرجماتية السياسية، لا تخلو حضارة في العالم من الأديان في كل ريف وقرية ومدينة، فالصراع الفكري بين الدين والإلحاد قائم إلى الآن وقد تأثّر به الجيل الجديد (المعاصر) بلا ريب.

فالإلحاد يضادّ الدين أينما كان، وكأنه يدعو بقوّة إلى تقويض الأديان وبيان أزمائها أساطير الأوّلين مع هذا فإنّ الناس متمسّكون بدينهم على مديات حضارية ضاربة في عمق التاريخ.

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) لورانس كراوس، كون من لا شيء مع تعليق ريتشارد دوكينز، ترجمة: غادة الحلواني، (القاهرة: دار التنوير، ٢٠١٥م، ص ١٥).

(٣) المرجع نفسه، ص ١٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٩.

عندما سُئل دوكنز عن القيم الأخلاقية في الدين المسيحي من السلام والتسامح، والتآزر الأخلاقي والاجتماعي والتكامل السياسي، أجاب بأن هذه القيم لا تمتّ بجذورها إلى المسيحية ولا لأيّ ديانة أخرى^(١).

يتناقض دوكنز، فتارة يقول: إني ملحد وتارة أخرى يقول إني لا أدري، وليس له دليل أو برهان على عدم وجود إله^(٢).

ويؤكد دوكنز استمراره في أن يتحرّى أفضل الطرق لإفهام الناس^(٣) في قضية الإلحاد وخاصة الجيل المعاصر.

ثم يذكر أن لفظة ملحد لها وقع سيّئ في الأسماع ولفظة غير مؤمن بالله^(٤) أقلّ من تلك.

ومن الأمور المثارة أيضًا قضية المعاناة للإنسان والحيوان والصراع من أجل البقاء، والعلم ينفي أن كلّ شيء يرجع إلى قوة الله^(٥).

وهنا قد يعرض سؤال: من يحركّ قوانين الطبيعة في خيرها وشرّها؟ كانت بعض إجابات دوكنز تأويلية لصالح فكرته وفكرة أتباعه.

أيّما يذهب (دوكنز) يدعو إلى الإلحاد ويبشّر بفكرته، فمن حوارات سيديني إلى أمريكا ولندن وغيرهما من عواصم العالم ويردّد قائلا: (والآن، قد يبدو لكم أنني سأبدأ بموعظة واعية للإلحاد، لكنني أوّكّد لكم أن هذا ليس هدفي وليس هو الغرض من هذه المحاضرة.. لست هنا لأدعوكم إلى الإلحاد بل إنني أدعوكم بالضبط إلى تبنيّ الإلحاد المكافح والمناضل)^(٦).

وفي هذا الكتاب يعرض مجموعة من الأدلّة وينقدها، فهو يناقش قضية الصدفة والتعقيد في الكائنات الحية عند نظرية الخلق، وهو مبهور جدًّا بنظرية

(١) ريتشارد دوكنز، حوارات سيديني، ص ١٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٤.

(٦) دوكنز، حوارات سيديني، ص ٥١.

التطور، ثم يضعف نظرية التخليق، ويصعد من نظرية التطور^(١)، وتبعه كثير من الشباب في العالم الإسلامي والغربي، والجيل الجديد يتابع هذا الإلحاد المكافح والمناضل كما أطلق عليه.

تكاد تكون الأزمة الرئيسة لتبني الإلحاد الأزمة النفسية والمأزومة تجاه أتباع الدين وليس الدين بجوهره النقي، فكثيراً ما سمعت مناقشاتهم الحادة مع المؤمنين يلومون أحكام المتديّنين الفكرية والفقهية لكل الأديان في العالم، ويأملون القضاء على النظرية الدينية ربّما تهزّباً من قيودات هذه الأديان، فيكون كلّ شيء مباحاً.

المبحث الثاني: الممارسة الإيمانية والإلحادية

الممارسة الإيمانية:

إن الفارق الكبير بين الإيمان والإلحاد هو الشعور بين الحالتين أو الحالة النفسية والاجتماعية، فالمؤمن له ممارساته الخاصة به، لا نقول إنه مطمئن تمام الاطمئنان فهذا فقط في الإيمان الخالص مثل إيمان الأنبياء والأوصياء والمخلصين العارفين، أما بقية الناس فإيمانهم نسبي في الحقيقة.

وهل هناك مشاعر تنبئ بالاطمئنان لدى المؤمن؟ وهل يكتشف أنه سعيد بما يعتقد أو أنه أكثر استقراراً من الملحد أو لا؟

أعتقد أن المؤمن يطمئن بالطبيعة الخلّاقة والكون العجيب والتدبر والتأمل في المخلوقات للوصول الحازم إلى ما وراء هذا الوجود، وهي نتيجة عقلية لا مفرّ منها، وبما أن العقل يصل بالتبادر إلى الصانع فهي حالة إيجابية مهيمنة في الوجود البشري منذ الخليفة لا تُنفى إلا بتأويلها وفلسفتها لرحمتها عن الإيمان، ولا تُنفى بالنظريات العلمية المدحوضة بنظريات أخرى تكذبها، فلا استقرار للنظريات العلمية، بل هناك ثورات علمية مستمرة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ - الروم ٢٢﴾ هذا التنوع العجيب يدعو إلى الاطمئنان التام بوجود الخالق المدبر الجميل.

(١) للمزيد ينظر: المرجع نفسه، ص ٥٢ - ٥٦.

الممارسة الإلحادية:

أغلب الذين مارسوا الإلحاد قد انحدروا من الإيمان ربّما المتشدّد، فحالة الانقلاب لها دوافعها بالنسبة المحدّدة للمجتمع المتديّن، وحالة الإلحاد والشكّ يبدو أنها تكون عند الشباب من الجيل أكثر ممن تجاوز الشباب، فالجيل المعاصر هو المقصود دومًا، وتتمّ الدعوة للإلحاد عبر مؤلّفات وبرامج فضائية ومؤسسات ومواقع على النت وملصقات تحوي عبارات تتضمّن الدعوة الإلحادية وغيرها مما يثبت الهوية الإلحادية لأفكارهم ودعواهم^(١).

يهتمّ دوكنز بالأفلام الوثائقية، وهي مشهورة موجّهة ضدّ الدين الذي عبّر عنه: جذر الشرور كلّها واعتبره يسمّم كلّ شيء^(٢).

ولكن ما جدوى محاربة الدين؟ وما جدوى الاهتداء به في حياة الإنسان؟ يستطيع الدين أن يجيب عن مسائل كونية كبرى، لكن الإلحاد ليس له إجابة عن مسائل تعيش مع الإنسان وفكره واختياره.

تطوّرت الممارسة الإلحادية إلى البوح بكل شيء في جيلنا المعاصر نظرًا للتطوّر العلمي والاتّصالات وثورتها في التواصل الاجتماعي، فهناك كثير من التجمّعات الإلحادية تطرح هذه الأفكار للجيل المعاصر.

يعيش الجيل المعاصر أزمة الغيب ونفيه لأنه غير خاضع للتجربة، ويمارس جيل الإلحاد المغالطة والقفز من الكبريات إلى الصغريات، وهمّه الغلبة في الجدل، لا الحقيقة والمعرفة.

يذكر عليّ شريعتي: العلم نحى الدين جانبًا وطوى مساحته في القرون الجديدة من مجالات حياة الإنسان وحصرها في المعابد، وادّعى لنفسه خلافته^(٣).

يبدو أن الأفكار الإلحادية نبعث بالصدّ من الدين وجاءت الثورات العلمية لتنحية الإيمان ونظريته، نتيجة لوجود المعابد في شتى الأديان، فحكّموا على الدين

(١) للمزيد ينظر: العجيري، ميليشيا الإلحاد، ص ٢٤ - ص ٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٣.

(٣) عليّ شريعتي، الوجودية والحرية، ترجمة: خليل العصامي، تقديم: إحسان عليّ شريعتي، (بغداد: منشورات لاركون، بلا)، ص ٧٣.

ونظريته بسوء أتباعه وخطأ التطبيق في الفهم أو التعمد بالمخالفة، ولما جاء العلم بنظرياته التي أثبتت في بعضها خطأ نظريات المسيحيين والمسلمين ومن قبلهم اليهود، انبهر أتباع هذه الديانات من الأجيال المعاصرة للنهضة العلمية إلى الجيل المعاصر اليوم.

الإنسان بين الشك واليقين، فإذا تيقن كفى، وإذا شك فعليه البحث المستمر للوصول إلى اليقين، لا تنقض اليقين بالشك وانقضه بيقين آخر، وهذه نظرية الإسلام أعطاهها الإمام الصادق (عليه السلام) للمسلمين المؤمنين.

وهذه النظرية بين الشك واليقين مشترك حسي عالمي تنطبق على الجميع من البشر، بشرط التجرد والبحث عن اليقين والوصول إلى مسعاه بالجهد والمتابعة والنقاش النافع.

لقد كتب لودفيغ فتغنشتاين كتابه المهم (في اليقين) دار حول الشك واليقين وأني أعرف وغيرها من الألفاظ التي تثبت الحقيقة أو الوهم^(١).

وفي موضع من كتابه يقول: ليست درجة يقيني من معنى كلماتي بأكثر من يقيني من بعض أحكامي، هل يمكنني الشك في هذا اللون يُسمى الأزرق؟ إن شكوكي تشكل نظاماً^(٢).

الشك يشكّل القلق واليقين يشكّل الاطمئنان والبناء والراحة، هل الملحد بممارسته يشكّل مرحلة اليقين أو مرحلة الشك؟ إذا تيقن اطمأن، وإذا شك فعليه البحث وهو مقتضى القاعدة.

الجيل المعاصر ينظر إلى الإلحاد أنه حرية وتطور نحو العلم والانعقاد من الجهل القديم أي (الدين)، كما هم الأولاد ينظرون إلى أجدادهم والآباء والأمهات على أنهم في عصر قد انتهى بالنسبة إليهم.

نُقل عن الفيلسوف الشهير جوته (غوته) قوله: وُجد الإنسان كي يبحث ويجرب ويندهش، والدهشة هي أسمى ما يصل إليه الإنسان^(٣).

(١) للمزيد ينظر: لودفيغ فتغنشتاين، في اليقين، ترجمة وتقديم: مروان محمود، (بيروت: الرافدين، ٢٠٢٠م)، ص ٣٧ وما بعدها.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦١.

(٣) محمد جواد مغنية، الوجودية والغثيان، (بيروت: دار التعارف، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)، ص ٦١.

في سايكولوجية الملحد السخط والمقت والحيرة^(١)، وفي رواية الغثيان لسارتر الذي قال عن الوجود إنه لا شيء سوى شكل فارغ، هذه الأشياء الموجودة في الكون كلها تزعجني.. إنها نتنة وعفنة... الخ^(٢).

إن الفطرة البشرية المتدوّقة بالعادة تقول خلاف هذا، فشعور الفرد بالكون وتنوّعه والأشياء المتقنة فيه من أهمّ الأدلّة على الإيمان به لا الإلحاد به.

فالجيل المعاصر عليه بالاطّلاع الذكيّ، وترك الفطرة تختار قبل تلوّثها بالأفكار التي لا يمكن إثباتها، وترك احتمالاتها.

دخل الإلحاد الفضاء الإعلامي بحضور طاغٍ، وأثره ظهر بدوكنز بقالب ساخر كنجم مشهور في هذا العالم يدعو إليه^(٣).

الإلحاد الجديد خرج من صمته إلى الممارسة الدعوية، فكتب دوكنز كتابه (وهم الإله) بزعم تغيّر العالم للإلحاد، وإذا لم يغيّر فالويل لنا بحسب ما كتب على غلاف الكتاب الخارجي^(٤).

ومع كل حركات الملاحظة إلّا أنهم تعرّضوا إلى نقد من العلماء في شتى الحقول المعرفية، منهم: نعوم تشومسكي وبيترهيجز الحائز على جائزة نوبل ومايكل روس وربما هو صراع بين الإلحاد القديم والجديد^(٥).

عبّر الفيلسوف الملحد جوليان باجيني عن الإلحاد الجديد بأنه حركة مدمرة^(٦)، إن محورهم هو التصديّ للإيمان ومحاولات تعسّفية ذلك لدى الشباب والجيل المعاصر، وقد تطوّر الإلحاد وكلّ وسائله القديمة قد تغيّرت بحسب التطوّر العلمي والتقني لجلب الجيل المعاصر الآن.

(١) المرجع نفسه، ص ٦٢.

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) العجيري، ميليشيا الإلحاد، ص ٢٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٥٤ - ٥٥.

(٦) المرجع نفسه، ص ٦٠.

إن الثيمة المركزية هي قضية الشرور التي نُسبت إلى الأديان وهذه المسألة من أشهر المحرّكات والأدوات والأسئلة المستعملة في الخطاب الإلحادي الجديد^(١). العدوّ اللدود للإلحاد هو الدين، ولذلك لا تجد أحدًا من الملحدين يتخلّى عن الكلام عنه، وبذلك أشاعوا فكرة أن الدين تخلف وشرّ، ويذكرون كذلك العلم مقابل الدين.

المبحث الثالث: التحوّلات

أولاً: من الإيمان إلى الإلحاد

إن الانتقال المضادّة تكون صعبة جدًّا، والذي يعزّز التحوّل الإعلام ووسائله، وقد يمكننا إطلاق ظاهرة الإلحاد المتفسّي في أوساط الشباب، وهو الجيل المعاصر وربما تحوّل ذلك إلى تبشير بالمادّة الإلحادية^(٢).

يحقّ لنا أن نسأل، هل الإيمان فطرة؟ وهل البحث عن دين فطرة؟، وهل الإلحاد فطرة؟

تُفضي الفطرة الحرّة والضمير الإنساني المنطلق بأن لهذا العالم الرحيب والكون صانعًا^(٣)، فعلى هذا تكون الفطرة أصلًا لإثبات الخالق، والإلحاد طارئ لنفيه.

إن التحوّلات من الإيمان إلى الإلحاد حقيقة موجودة في كثير من المتحوّلين في الأفكار، في هذه القضية وغيرها.

إن نقطة التحوّل من أيّ فكر إلى آخر لها أسبابها، وهي كثيرة في تراثنا الإسلامي فضلًا عن الحضارات اللاحقة إلى اليوم، وهذه التحوّلات في شتى الأفكار، تحوّلات قد تكون ردّة أفعال أو صدمات فكرية أو حتى نفسية، أو واقعًا اجتماعيًا كالفقر مثلاً. وقد وصف كثير من العلماء رحلتهم الفكرية من الشكّ والإلحاد إلى اليقين

(١) العجيري، ميليشيا الإلحاد، ص ٦٣.

(٢) العجيري، ميليشيا، ص ١٠٥.

(٣) مصطفى المحسن الموسوي، وحى الفطرة، (طهران: مطبعة الحيدري، بلا)، ص ٤.

والإيمان، كرحلة مصطفى محمود التي عنوانها: (رحلتي من الشك إلى اليقين)، وأذكر أنني قرأتها وأنا في مقتبل عمري كنت يومها في المتوسطّة.

ينقل عن فرنسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي قوله: (إن قليلاً من الفلسفة يقرب الإنسان إلى الإلحاد، أما التعمّق في الفلسفة فيردّه إلى الدين)^(١).

إن التحوّل إلى فكرة الإلحاد يجب أن يكون بحثاً علمياً معمّماً بين اليقين والشكّ، ولذلك الشكّ قلق لا بدّ من إيمان، والرجوع إليه أسرع للباحث والدارس الحقيقي الباحث عنها.

ولهذه التحوّلات أمثلة كثيرة محلية نجدها في الكتب والجرائد والمجالات والصحف والفيديوهات في شبكة التواصل الاجتماعي.

ثانياً: من الإلحاد إلى الإيمان

كما يتحوّل المؤمن إلى ملحد، يحدث العكس، فقد كان انتوني فلو الذي يصرح بعدم وجود إله وهو ملحد، بل من رواد الإلحاد، وهو أستاذ الفلسفة البريطاني الذي قاد مسيرة الإلحاد لأكثر من نصف قرن، تغيّر إلى الإيمان بوجود إله^(٢).

يذكر: (تحوّل الفكري بعد ستّة عقود من الإلحاد)^(٣) وهناك كثير من الأمثلة على دفع الإلحاد ببراہين والرجوع إلى الإيمان، وكان رجوعه قد عبّر عنه بحجّ فكري وليس دينياً^(٤).

وإذا أردنا استعراض ذلك لطال بنا المقام، والبحث لا يسع الإطالة فنكتفي بهذا المثال، وأحبّ أن أوّكد القراءة والاطّلاع والتأني في الاختيار بالنسبة إلى التحوّلات الحادّة من اليقين إلى الشكّ.

(١) علي أحمد الشحان، نظرية التطور بين العلم والدين، تقديم: مصطفى كمال طلبه، (القاهرة: مؤسسة الخانجي، بلا)، ص ١٦٠.

(٢) أنتوني فلو مع روي إبراهيم فارجيس، هناك إله كيف غير أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟!، ترجمة: جنات جمال، تقديم: محمّد العوضي، مركز براهين للأبحاث والدراسات، ٢٠١٧م، ص ١٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ٩٤.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الصحيفة السجّادية

إنتوني فلو.

١- هناك إله، كيف غير أشرس ملاحظة العالم أفكاره؟، ترجمة: جنّات جمال، تقديم: محمّد العوضي، مركز براهين للأبحاث والدراسات، ٢٠١٧م. جميل صليبا.

٢- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨م). حسن كريم ماجد الربيعي وآخرون.

٣- المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة، (لبنان: الرسل، ١٤٢٢هـ/٢٠١٢م). الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمّد (ت٥٠٢هـ).

٤- المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمّد سيد كيلاني، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده، ١٣٨١هـ/١٩٦١م). ريتشارد دوكنز.

٥- حوارات سيدني، ترجمها وقدّم لها: قيس قاسم العجرش، (بغداد: سطور، ٢٠١٧م).

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ).

٦- أساس البلاغة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

ستيفن هوكينغ.

٧- موجز سيرتي الذاتية، ترجمة: محمّد الجندي، (بيروت: دار التنوير، ٢٠١٨م). عبد الله بن صالح العجيري.

٨- ميليشيا الإلحاد مدخل لفهم الإلحاد الجديد، (السعودية: تكوين، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م).

عبد الله نعمة.

٩- هشام بن الحكم رائد الحركة الكلامية في الإسلام وأستاذ القرن الثاني في الكلام والمناظرة، (بيروت: دار الفكر اللبناني، بلا).

علي أحمد الشحات.

١٠- نظرية التطور بين العلم والدين، تقديم: مصطفى كمال طلبه، (القاهرة: مؤسّسة الخانجي، بلا).

عمرو شريف.

١١- رحلة عقل، تقديم: أحمد عكاشة، (القاهرة، نيويورك، ٢٠١٧م).

علي شريعتي.

١٢- الوجودية والحرية، ترجمة: خليل العصامي، تقديم: إحسان علي شريعتي، (بغداد: منشورات لاركون، بلا).

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ).

١٣- كتاب العين، طبعة جديدة فنية مصحّحة ومرتبّبة وفقاً للترتيب الألفبائي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

لودفيغ فتغنشتاين.

١٤- في اليقين، ترجمة وتقديم: مروان محمود، (بيروت: الرافدين، ٢٠٢٠م).

لورانس كراوس.

١٥- كون من لا شيء مع تعليق ريتشارد دوكينز، ترجمة: غادة الحلواني، (القاهرة: دار التنوير، ٢٠١٥م).

محمّد جواد مغنية.

١٦- الوجودية والغثيان، (بيروت: دار التعارف، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

مصطفى المحسن الموسوي.

١٧- وحي الفطرة، (طهران: مطبعة الحيدري، بلا).

المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ).

١٨- بحار الأنوار، بلا.

مجموعة باحثين.

١٩- معجم المصطلحات الكلامية، (مشهد: دقت، ١٤٣٦هـ).

الياس بلكا.

٢٠- الغيب والعقل دراسة في حدود المعرفة البشرية، (فرجينيا: المعهد العالمي

للفكر الإسلامي، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

البحث الثاني



أثر التطرف الفكري في هدم مقاصد الشريعة



فضيلة الدكتور عبد الله ويسى

رئيس اتحاد علماء الدين الإسلامي في إقليم
كوردستان - العراق

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وعلى آله
وصحبه الطيّبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى قيام يوم الدين...

يسعدنا ويشرفنا أن نشارك معكم أعمال هذا الملتقى ونحن بجوار روضة أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، داعين الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا
تحت ظله يوم لا ظلّ إلا ظله، وأن يشرفنا بشفاعته حبيبه الكريم -صلى الله عليه
وسلم- يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والشكر موصول
لمركز البلاغي التابعة لمؤسسة الخوي والقائمين عليها لتنظيم أعمال هذا الملتقى
بهذه الذكرى العطرة، فجزى الله كلّ من قام وأسهم وشارك في أعمال هذا الملتقى
العلمائي...

أما بعد: فبلا شكّ أنّ التطرف الفكري أصبح من المشكلات التي تهدّد أمن
المجتمع، ويبدل الجميع جهداً متنوعاً من أجل القضاء عليه، وذلك لما له من
الآثار السلبية في الفرد والمجتمع، وأهمّ مخاطره تكمن في أنّ معتنقي هذا الفكر
المتطرف ينطلقون من منطلقات يزعمون أنّها شرعية مما يُلبس على المسلمين أمر
دينهم، فهو مرضٌ عضال يصاب به الفكر، وحالة سقيمة تجعل الإنسان في وضع
غير طبيعيّ، لذا يجب أن يُنظر إلى التطرف الفكري بوصفه انحرافاً عن الاستقامة
في الفكر والاعتدال في الفهم، فهو حالة مَرَضِيَّة يعتلّ بها الإنسان، ويخرج بها عن
طبيعته، فمن الضروري التصدي للممارسات التي تهدم مقاصد الشرع الكليّة،

نتناول في هذه العجالة بيان أثر التطرف الفكري وخطورته في مقاصد الشريعة، وذلك في النقاط التالية:

أولاً: مفهوم التطرف والمقاصد:

التطرف في اللغة مجاوزة الحدّ، وشرعاً: مجاوزة حدّ التوسط والاعتدال، وما نريد تسليط الضوء عليه هو: تجاوز حدود الاعتدال والوسطية في الفكر الإنساني الذي قد يترتب عليه سلوكيات ضارة بالفرد والمجتمع في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يعيشها صاحب هذا الفكر المتطرف.

والمقاصد جمع مقصد، وهي في اللغة بمعنى القصد والغاية، وشرعاً: المباني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة.

ثانياً: أثر التطرف الفكري في مقصد حفظ الدين:

- ١- تشويه صورة الإسلام، حيث يعمل المتطرفون -بممارساتهم القمعية- على تصوير الإسلام بأنه دينٌ عنيفٌ وغلظةٍ وشدّة، مما يتسبّب بتكوين رؤية لدى غير المسلمين بأنه لا يمكن التعايش مع المسلمين.
- ٢- يؤدّي التطرف الفكري إلى التنفير من الإسلام، وبغضه ومقت أهله.
- ٣- يؤدّي التطرف الفكري إلى فساد عقائد المسلمين، وانتشار الأفكار والآراء المتطرّفة التي تعقبها أعمال تخريبية، وإخلال بأمن المجتمع، فينتج عن هذا تكفير المسلمين، وتكفير الحكّام والخروج عليهم.
- ٤- تحريف القرآن، فمن آثار التطرف الفكري الجافي تحريف كثير من آيات القرآن الكريم بالتأويلات الباطلة بحسب الأهواء والأغراض الدنيئة، والتفسير الخاطئ للنصوص والمصطلحات الإسلامية.

ثالثًا: أثر التطرف الفكري في مقصد حفظ النفس:

١- الانتحار في صفوف المتطرفين، وإلقاء النفس إلى التهلكة، وإزهاق نفس المتطرف بالباطل، فالمتطرفون جنّوا أولاً على أنفسهم بقتلها بغير حق، فالعمليات التفجيرية والتفخيخية التي يقوم بها المتطرفون بشكل عام هي قتلٌ للنفس البريئة التي حرّم الله قتلها، وانتحار نهى الشرع عنه، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية كثيرةٌ في هذا الشأن.

٢- قتل النفس، واغتيالها، وترويعها، وإخافتها.. فقد ارتكب المتطرفون ممارسات على عكس ما يجب على الفرد أن يفعله، فقد قتلوا النفس التي حرّم الله، وهذه من الكبائر عند العلماء جميعاً، بل أفرعوها، وروّعوها، وأخافوها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ - الْأَنْعَام: ١٥١﴾.

٣- قتل السيّاح وأعضاء السلك الدبلوماسي وغير المسلمين، فهؤلاء هم مستأمنون، دخلوا بلاد المسلمين بشكلٍ رسمي، يجب علينا الحفاظ على أمنهم؛ والنبى صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالمحافظة عليهم، قائلاً: "من قتل معاهدًا لم يشم رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً".

رابعًا: أثر التطرف الفكري في مقصد حفظ النسل

إنّ التطرف الفكري الجافي له الأثر الأكبر في مقصد حفظ النسل، حيث زجّ المتطرفون المرأة في أواسط الرجال والاختلاط بها، وجعلوا جسدها ملكاً لهم، مما يؤدّي إلى خطر كبير وهو ارتكاب الفواحش، وهذا سبب ضياع الأسرة واختلاط الأنساب، وكذلك دعاوى المتطرفين الباطلة مثل زواج الجهاد وغيرها.

خامسًا: أثر التطرف الفكري في مقصد حفظ العقل.

لمّا كان العقل هو مناط التكليف في الشريعة الإسلامية كان حفظه إذاً ضرورةً لا غنى عنها ولا تستقيم حياة البشر من دون ذلك، ولذلك قال العلماء: إنّ العقل مناط التكليف وعليه فمن لا عقل له فلا تكليف عليه.

فساد العقل إمّا أن يكون حسّيّاً أو معنويّاً، فوظيفة العقل هي الفهم (دلالة الأدلّة، وفهم مقاصد التشريع) بالصورة الصحيحة وكلّ ما يؤثّر في هذه الوظيفة يهدم مقصد حفظ العقل .

فساد العقل حسّيّاً يكون بتعاطي ما يؤثّر في قيامه بوظيفته بالصورة الصحيحة، أمّا الفساد المعنوي فهو استخدام العقل بصورة غير صحيحة بحيث يستفيد من الأدلّة ما لا تدلّ عليه، وهذا تفصيله في أصول الفقه فاستنباط ما لا يدلّ عليه الدليل سواء بالمطابقة أو التضمّن أو الالتزام خلل في فهم النصّ الشرعي، والذي يقوم بهذا الشيء لديه خلل في عقله وقد هجم الفساد على عقله معنوياً.

وممّا تقدّم يظهر لنا أثر التطرّف الفكري في جانب الغلوّ في فساد العقول معنوياً؛ إذ يقوم الغلاة بإفساد العقول معنوياً وذلك بالتصورات الفاسدة، والاعتقادات الباطلة، والأفكار المنحرفة، والزيغ في الفهم، كلّ هذا لأنّه قائم على غير طريقة السلف الصالح في استنباط الأحكام الشرعية فلا يراعون دلالات الألفاظ ولا أدلّة الأحكام ولا المقاصد الشرعية ولا ترتيب الأدلّة فيهمجون على النصوص ويفسدونها بأفهامهم ويربّون أتباعهم على هذه المنهجية وهم في الغالب دون مرتبة الاجتهاد بل دون مرتبة العلم بل دون مرتبة طلب العلم، والله المستعان.

سادساً: أثر التطرّف الفكري في مقصد حفظ المال.

١- أدّى التطرّف الفكري الغالي إلى هدم مقصد حفظ المال (الخاصّ والعامّ)؛ بسبب الاعتداء على أموال المسلمين بمختلف طبقاتهم، وذلك بالتفجير والاشتباكات وعمل المفخّخات واستهداف المنازل والشركات والأسواق والتجمّعات العامّة وكلّ هذا يؤثّر في المال خاصّاً كان أم عاماً.

٢- أدّى كذلك في البلدان التي ينتشر فيها إلى إضعاف العمليات البنكية، والبيع والشراء، وانهايار العملة؛ وذلك لعدم استتباب الأمن في المجتمع بسبب ممارساتهم التطرّفية.

٣- كما أثر التطرّف في الصناعة والإنتاج، والتنمية في الأماكن الموبوءة بالمتطرّفين.

٤- أدى التطرف الفكري في بعض البلدان إلى الانهيار الاقتصادي، وتدمير الاقتصاد؛ وكثرة البطالة، وضعف التبادل التجاري، مما ينتج عنه التقلص الاقتصادي..

سابعًا: أثر التطرف الفكري في المقاصد العامة الأخرى.

هناك مقاصد عامة أخرى، كمقصد: الاجتماع والوحدة والاعتصام، والحفاظ على الولاية العامة وطاعة وليّ الأمر، وحفظ العهود، ومقصد التيسير، ورفع الحرج، ومقصد استتاب الأمن، وحسن العلاقة والولاية بين سائر الناس على نحو ما جاء في الشرع.. وغيرها من المقاصد العامة الأخرى التي التفت إليها الشارع وحفظها، وقد نالت هذه المقاصد كذلك يد التطرف الفكري، ويتّضح هذا فيما يلي :

أدى التطرف الفكري إلى ممارسات أفضت إلى القطيعة والعداوة والبغضاء، والفرقة والوحشة بين المسلمين.. وأتاحت المجال لعدو الأمة الإسلامية أن يلحق ضررًا بها وبدينها وببيضتها بسبب فرقتها وتنازعها، والله قد نهى عن التنازع فقال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ - الأنفال ٤٦﴾.

فمن أبرز مظاهر التطرف الفكري اليوم هو هدمه لمقصد الاجتماع والوحدة الاعتصام، وحصول التنازع، وفساد ذات البين، والبراءة من المسلمين.. وهذه مقاصد مهمة تشكّل حاجزًا عظيمًا يعمل على حفظ سائر المقاصد الشرعية.

كما أدى التطرف الفكري إلى عصيان ولاة الأمر، وتكفير الحكّام والخروج عليهم، وقتالهم، والتحريض ضدّهم، والبغي على الشعوب والمجتمعات، والاعتداء على الحكومات، وإحداث الفوضى بالتدخل بشؤون الدولة، والاعتداء على حقوق الدولة في إقامة الحدود واستيفائها التي تُعدّ من اختصاص السلطة القضائية والتنفيذية، والتدخل في شؤون الدولة..؛ كل ذلك يؤدي إلى الفوضى، والإخلال بالأمن العام، وسوء العلاقة بين أبناء المجتمع الواحد، بل بين الناس جميعًا، وإضعاف هيبة الدولة، وانعدام الأمن الاجتماعي.

ثامناً: أثر التطرّف الفكري في مقصد اليسر والتيسير ورفع الحرج، ودفع المشقّة.

فرفع الحرج مقصد من مقاصد الشريعة وأصل من أصولها، فإنّ الشارع الحكيم لم يقصد بالتكليف المشقّة والإعنت، ويدلّ لذلك الكتاب والسنة والإجماع، فكلّ هذه الأدلّة تدلّ على أن الشارع لم يقصد الحرج ولو كان واقعاً في الشريعة، لم توضع الشريعة لقصد الإعنت والمشقّة، ودلت النصوص أنها موضوعة على قصد الرفق والتيسير، والشريعة منزّهة عن ذلك، فضلاً عن أن الشريعة قد شرّعت الرخص، وهو أمرٌ متطوّع به، ومما علّم من دين الأمة بالضرورة... فإن هذه أنماط تدلّ قطعاً على مطلق رفع الحرج والمشقّة.

تاسعاً: أثر التطرّف الفكري في الإخلال بمقصد تحقيق الأمن العامّ

الأمن الشامل من المقاصد الشرعية المهمّة، ويُعنى به التأمين الحسي والمعنوي، والطمأنينة الداخلية والخارجية، وكفالة الحياة السعيدة والطيبة للفرد والمجتمع والدولة.

وما يؤكّد أنه مقصود الشارع أنه مرافق للإنسان في كلّ شؤونه، ابتداء من نفسه التي بين جنبيه والذي يُعبّر عنه بالأمن النفسي، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ - الرعد ٢٨﴾ وينتهي في دين الإسلام بالأمن الأخروي .

فالفرد محتاج إلى الأمن على نفسه ودينه وعرضه وماله، وفكره، وعقله.. وقد جعلت الشريعة الإسلامية الحفاظ على هذه الضروريات من أهمّ مقاصدها، وما يؤيّد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا).

والتطرّف الفكري له أثر بالغ في الإخلال بالأمن بكافّة أشكاله: الأمن الفكري والأمن الاجتماعي، والأمن الاقتصادي، حتى الأمن الفكري، الذي يُعدّ المرتكز الأساس لحصول الأمن العامّ الشامل؛ إذ الفكر الإسلامي منظومة تشريعات، ومعارف تعمل على تحقيق سائر أنواع الأمن.

عاشراً: النتائج

التطرّف الفكري عبارة عن: اتخاذ الفرد أو الجماعة موقفاً متشدّداً إزاء فكرٍ غالٍ أو جافٍ، متجاوزين حدّ التوسّط والاعتدال، وتنبع أهمّية المقاصد الشرعية من أنّها: مقصود الشارع الحكيم من التشريع كلّه، فقد وُضعت الشريعة الإسلامية من أجل تحقيقها.

-أثر التطرّف الفكري في مقصد حفظ الدين وذلك بتشويه صورة الإسلام، والتنفير منه، وبغضه، ومقت أهله، والانتقام منهم. وتحريف القرآن، وتأويله بالباطل بحسب الأهواء والأغراض، والتقليل من شأن السنّة النبوية، والطعن في الصحابة والتشكيك في سيرتهم، وصحبتهم، ومعاداة العلماء والدعاة والصالحين...الخ.

- أثر التطرّف الفكري في مقصد حفظ النفس وذلك بتزايد حالة الانتحار في صفوف المتطرفين، والاعتداء على النفس..، وقتل النفس، وترويعها، وإخافتها..

- أثر التطرّف الفكري في مقصد حفظ النسل وذلك بالدعوى إلى الاختلاط، وارتكاب الفواحش، وبالتالي اختلاط الأنساب.

- أثر التطرّف الفكري في مقصد حفظ العقل وذلك بفساد العقول وخبالها بالتصوّرات الفاسدة، والعقائد الباطلة، والأفكار المنحرفة.

- أثر التطرّف الفكري في مقصد حفظ المال وذلك بالاعتداء على أموال المسلمين، والتدهور في الصناعة والإنتاج... والانهيار الاقتصادي، وإهدار المال العام، وإحجام المستثمرين وفُشو المعاملات الربوية.

- أثر التطرّف الفكري في المقاصد العامّة الأخرى وذلك لأنه أدّى إلى القطيعة والعداوة والبغضاء بين الأمة الإسلامية، وأتاح المجال لعدوّ الأمة الإسلامية أن يُلحق ضرراً بالغاً بها وبدينها وببيضتها بسبب فرقتها وتنازعها، وأدّى إلى عصيان ولاة الأمر، وتكفير الحكّام والخروج عليهم، وقتالهم، والتحريض ضدّهم، والبغي على الشعوب والمجتمعات، والاعتداء على الحكومات، وإحداث الفوضى..، ونقض العهود، وخيانة الأمانة، وأدّى إلى الحرج والمشقّة، والضيق، والإخلال بالأمن الاجتماعي.

حادي عشر: الحلول والمقترحات

- للأسرة دور كذلك يتمثل في: المحافظة على الجيل الجديد، وذلك بتطوير دور الأسرة في ترسيخ مفاهيم الانتماء والولاء والمواطنة، ومراقبة الأبناء وبيان الأخطاء في أتباع الجماعات المتطرفة وما تؤدّي إليه من ضرر في المجتمع.

- للمؤسسات التعليمية دور للحدّ من آثار التطرف الفكري يتمثل في: تضمين المناهج التعليمية ما يساند معركتها مع التطرف الفكري، وتزويد المعلّم بما يعينه من الدورات والمراجع، ومساعدته في ترسيخ الوسطية والاعتدال.

للمؤسسات الدينية- العلمية والأكاديمية- دور كبير في:

١- ضبط الخطاب الديني، والتنسيق فيما بين المؤسسات الدينية على خطاب واضح ومعتدل ينبذ كلّ أشكال العنف والتطرف باسم الدين، مع تبني استراتيجية علمية تهدف لمواجهة كلّ أشكال الغلو والتشدد والتطرف باسم الدين.

٢- بيان الآثار المدمّرة للتطرف الفكري، والتعريف بالأفكار المتطرفة التي يتولّد عنها العنف والإرهاب، وتصحيح المفاهيم التي يقوم الإرهابيون بتحريفها، والعمل المستمرّ من أجل تحصين المجتمع من التطرف.

٣- للإعلام-المقروء والمسموع- دور كبير في تسليط الضوء على مخاطر التطرف والإرهاب.

٤- للدولة كذلك دور في القضاء على التطرف والحفاظ على مقاصد الشريعة، ويتمثل في: مواجهة البُغاة الخارجين على وُلاة الأمر، وتقنين تجريم الانتماء إلى التنظيمات الإرهابية؛ وتوعية الأفراد بواجبهم تجاه التطرف الفكري، وتجريم التسرّ على المتطرفين سلوكيّاً، والعمل على إصلاح المتطرفين فكرياً وفتح قنوات الحوار مع المخالف.

البحث الثالث



التطرّف والعنف الدينيّ



أ. المتمرس الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد
أستاذ الفقه المقارن في جامعة الكوفة

يُراد بالتطرّف: الجنوح غير العقلاني إلى اعتقاد بأفكار يراها النهايات الأخيرة للحقيقة، وبناء على ذلك فهو يرى أنه يمتلك الحقّ والحقيقة والحقانية وأن الآخرين ينطوون على الباطل والوهم وتكون متبنياته معيارًا للصحة، ولا يرتبط التطرّف بفكرة محدّدة، فليس من الصحيح ربط التطرّف بالفكر الديني فقط إنما كلّ الأفكار قابلة لكي تكون مادّة للمتطرّفين حينما يغادر أصحابها مبدأي نسبة المعرفة والبرهانية، فلقد عرف تاريخ الفكر البشري موجات من التطرّف عند اليهود في إسرائيل^(١) والتّيّار الانجيلي البروتستانتي الذي صدرت عنه عشرات المدوّنات التي تزعم أنها وصلت إلى نهاية التاريخ^(٢)، والماركسيين والماويين وجماعات اليمين الأوربيّ والشيخ والهندوس بيد أن التطرّف يظهر تارة كحالات فردية ويظهر تارة أخرى كظاهرة اجتماعية، وقد يطول زمن استحكام الظاهرة وقد يقصر بحسب نوع الوعي الذي يواجه الظاهرة والبيئة الحاضنة، ووجود أسباب موضوعية تديم الظاهرة، وليس كلّ تطرّف يلزم أن يقترن بالعنف فهناك متطرّفون لا يستخدمون العنف لفرض أفكارهم، وأحياناً تُجبر الحركات المتطرّفة على عدم استعمال العنف مع رغبتها فيه فقد تكون ظروف قاهرة تمنعها من ممارسة العنف، وتجربتنا في بلدان العالم الإسلامي تكشف أن ممارسة العنف الديني الناشئة عن التطرّف هي من أصحاب تعليم متدنٍّ وسطحي وتقليدي ومجتمع فقير

(١) جمال الدين البديري: الأحزاب الدينية الإسرائيلية النشأة والتطور ص ١٧٧.

(٢) روجيه جارودي: الأصوليات المعاصرة ص ١٥.

متخلف يتكوّن بصورة خلايا نائمة لا تظهر إلا في حالة ضعف أجهزة الدولة الأمنية أو لعدم وجود الكفاءات التي تدير مؤسّساتها أو لعوامل أخرى.

وعندي أن التطرّف هو الرؤية الفكرية لممارسة العنف ويقابل التطرّف الوسطية وهي القدر من التوازن بين المتبنيّات الفكرية وما يختلف معها من أفكار، بحيث ينشأ الاعتدال من ذلك القدر من المقبولية للآخر، على أنه ليس بالضرورة أن ينتج عن المقبولية مشروعية تلك الأفكار، ولعلّ ذلك هو مفهوم التعارف الوارد في القرآن الكريم ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا - الْحَجَرَات ١٣﴾ ويراد بالوسطية أن تكون المناخ الذي يغلق الطريق على استغلال تدني الوعي لإنتاج التطرّف وهي الاعتبار الممنوح لكلّ صاحب رأي، والسماح للاستماع له، ثم مطالبته بالبرهنة على ما يرى، فهي أذن في البداية منهج معرفي ينطوي على قدر من الشمولية في الرؤية المتعدّدة الأبعاد.

إن الأزمة: في غياب الوسطية في مشكلتنا الراهنة (جدلية التطرّف والعنف) مردّها أن الإنسان الفطري يرتبط بالفكر الديني بسرعة، وبانجذاب قويّ ثم يقدّس التعاليم الدينية صعوداً إلى كلّ ما يرتبط أو يعبر عن فكر ديني ويتماهى مع المقدّس، حتى يصبح السؤال عن أي محتوى ديني أو التساؤل عنه (مُروفاً) عن الدين لأنه يراه تشكيكا بمتيقّن؛ لأنّ جان بول وليم يرى ((أن الدين عبارة عن نظام رموز يعمل ويثير لدى البشر حوافز قوية وعميقة ومستديمة ومقدّسة لا يجوز السؤال عن حقائقها)) فهو يصنع صياغة مفاهيم عن الوجود والحياة والإنسان ودوره الوظيفي وتعطي هذه المفاهيم تجسيدات سلوكية يتحدّد نوعها بمقدار الوعي الحقيقي والبرهاني للمعتقد.

ويرى: أن الدين يوحد طريقة تصرّف الأتباع والمعتنقين عبر الشعائر الدينية وي طرح عبر جاذبية شديدة ومفاهيم تفوق ما تطرحه التجربة أو الحقيقة الارتقائية^(١)، موقفه من الأفكار والأشياء والأشخاص ففرصة الحوار والمراجعة والتأمّل في أروقتة غير كافية.

(١) جان بول وليم: الأديان في علم الاجتماع ص ١٣٧.

لهذا: يكون الجهل عدم إخضاع الفكر الديني للمنهج العلمي سبباً مهماً في غياب التوازن والبرهانية وشمولية الرؤية الفكرية ومع غياب الممارسة النقدية، وغياب الاستعداد للتكيف الإيجابي مع المتغيرات، وهذه كلّها عوامل مهمة لصناعة التطرف ومعها يزداد احتمال تحقق الظاهرة وتعاظمها.

وفي ظنيّ: أن الوسطية هي حاضنة الاعتدال وليست الرديفة له، ذلك أن صفة الاعتدال بمعنى ((وضع الأمور في مواضعها)) لا تتكوّن إلا بعد أن يتوسّط العقل بين التجاهل التامّ لحقائق الدين وبين الغلوّ في اعتناق المفاهيم الدينية واعتبار كلّ ما جاء عن طريق رجال الدين أو المتصدين للفكر الديني هو قول الله تعالى المعبر عن الحقيقة الدينية النهائية.

فلااعتدال ناتج عن وسطية تنظر باحترام لمتبنيّات الآخر وتحترم ذاتها الفكرية في الوقت نفسه بحيث لا يبقى للتشدد داعٍ.

إن إدراك مناشئ التطرف وتداعياته التي تسبّب أزمات فكرية ومجتمعية يُعدّ مقدّمة ضرورية لاكتشاف السياسات المجتمعية المواجهة له، ويعتقد الكثير أن مواجهة الظاهرة العنفية ذات الغطاء الديني تلزم أن تنطلق من النطاق نفسه أو من جنس الظاهرة نفسها بحيث تكون مواجهة ((الظاهرة العقائدية)) بالعقائد، والثقافية بالثقافة، والاقتصادية بالوسائل الاقتصادية، فهذا هو الأصل، ولا يمنع من أن تُعصّد المواجهة الأصلية بمعزّزات أخرى بحيث ترسم سياسة المواجهة رسمًا استراتيجيًا، شموليًا يبدأ من الفكر إلى إعادة بناء المجتمع إلى اقتصاديات ماحقة للتفاوت ثم إلى تطّلع مدني للحاضر والمستقبل لا يقف من الدين موقفًا سلبيًا ولا يغرق في الفكر البشري الذي يُسوّق بأنه دين.

أما الإرهاب فلا يرادف العنف إلا أن يتحوّل من استخدام القوّة لأجل نشر (فكر متطرف) إلى سياسة ممنهجة ومرسومة وقصدية تستهدف إشاعة الرعب والإفادة من سايكولوجية الخوف لفرض أفكار ومفاهيم محدّدة، فالإرهاب استخدام مرسوم وقصدي للعنف ونماذج من استعمال القوة لترسيخ قناعات ((غير برهانية)) في النفوس ولتعظيم الشعور بالهزيمة والوهن عند الآخر وإرغامه

على التيقن من عدم القدرة على الصمود أو المواجهة عند الآخر المستهدف^(١)، فيما يُطلق عليه بالتوحّش، فالمرحلة ثلاث: أولها التطرف الذي يُفضي إلى استخدام العنف الديني ثم يتم تحويل العنف إلى الإرهاب والتوحّش.

ومما تقدّم يظهر لنا:

أن التطرف: ناشئ من أسباب ذاتية وموضوعية ونفسية وأن الوسطية والاعتدال هما البديل الذي يواجه موجة التطرف وأن الأزمة: عبارة عن إشكالية مركبة لها آثار سلبية في الوضع الاجتماعي العام وأن السياسات المجتمعية في مواجهته يجب أن تكون عبارة عن لائحة عمل استراتيجية تشتغل عليها كلّ أجهزة الدولة ومؤسسات المجتمع المدني، والأفراد وأن الإرهاب وسيله بدائية لفرض القناعات من خلال إشاعة الخوف.

وبعد تحديد المصطلحات، سنقف على مناشئ التطرف وأسباب انتشاره ودواعي استخدام الإرهاب وأهدافه ومحاولة لرسم استراتيجيات المواجهة ومكملاتها.

مناشئ التطرف:

نظراً لأننا معنيون بظاهرة التطرف ونشوء الجماعات التكفيرية التي تزعم أنها حركات إسلامية فإننا نرى أن مناشئ التطرف أربعة:

أ- المناشئ الذاتية ((بعض الأصول النظرية التي وضعها المتطرفون للدين)).

ب- المناشئ الموضوعية ((أزمات الواقع والحدث)).

ت- المناشئ النفسية ((أزمات الوضع النفسي المتوتر)).

ث- المناشئ المنهجية مناهج تلقي المعرفة الدينية.

أ/ المناشئ الذاتية ((الأصول النظرية التي وضعها المتطرفون للدين)).

أذا أجرينا مقارنة مضمونية بين القرآن الكريم ومحتوى التوراة والإنجيل فإننا نرى أن التوراة نصّ تاريخي يحكي سيرة (بني إسرائيل) كاملة، بينما يحكي الإنجيل

(١) ابو بكر ناجي: إدارة التوحّش ٧٦

سيرة النبي (عيسى) والذين بشّروا بالمسيحية بعده، والخلاف الذي يقع بين الأحبار والرهبان أو بين بعضهم خلاف في فهم حقائق التاريخ الديني^(١) المعبر عنه في العهدين، ونجد في القرآن الكريم ثلاثة محاور أساسية للدين هي محور آيات العقيدة، وآيات التشريع، وآيات القيم الأخلاقية، وهذه الآيات فيها ما هو مُحكَم وفيها ما هو مُتشابه، والفارق بينهما أن المتشابه له أكثر من معنى وأكثر من دلالة في حين أن المحكم نصّ في معنى واحد محدّد^(٢) وهو نصّ حاكم ومعياري للمتشابه، ولكثرة المتشابه في القرآن الكريم، فقد تعدّدت دلالات النصّ المؤسّس وزاد في سعة تداعيات النصّ تنوع مسالك التأويل التي كثرت بازدياد طرق تحصيل المعرفة بحيث صار بإمكان أيّ اتجاه أن يلتبس لنفسه مستندًا من القرآن الكريم.

وهذا الحال: يفسح المجال لتفسيرات متطرّفة وراдикаلية لا سيما مع غياب ضوابط التأويل المتفق عليها لذلك لا بدّ للمؤسّسات الدينية المعترف بها والتي تُعدّ مرجعيات للمسلمين أن تعمل على نشر منهجية علمية للتغيير ومع تعدّد اتّجاهات التفسير ومدارسه، والتعامل مع آراء المفسّرين بأنها بمنزلة النصّ المؤسّس من جهة احتوائه على الحقيقة النهائية فإنه يزداد عدم الوصول إلى المراد، وفي ظني أن هذا العامل يُعدّ من أبرز مناشئ التطرف، ويذكر القرآن ذلك يقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ - آل عمران ٦﴾.

والذي يفهم من الآية:

أن جماعات قاصرة تنطلق من مقولاتها الفكرية ثم تتبّع المتشابه لإسناد وجهة نظرها، والهدف تحقيق الفتنة، وتأويل النصّ على وفق مرادها الايديولوجي*، ثم يعقب القرآن بأسلوب الدعاء قوله ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا - آل عمران ٧﴾ أي إن غياب ((الأصول العلمية والبرهانية المقارنة)) في صناعة تفسير النصّ القرآني، والتعامل مع فكر المفسّر بوصفه (حقائق نهائية) دون إجراء مقارنة

(١) ر.س. زينو: موسوعة الأديان الحية ص ١١.

(٢) الذهبي: التفسير والمفسرون ١٥٢.

* محمد أديب صالح: تفسير النصوص في الفقه الإسلامي ١٤٤/١.

مع من سبقه أو لحق به يشكّل واحدة من المشكلات المعرفية التي ينمو فيها التطرّف لفقدان الرادع الفكري أو الضدّ النوعي له.

وقد اتفق أهل العلم على أن سيرة الرسول محمّد (ص) قولاً وفعلًا وإقرارًا هي المصدر الثاني للفكر الديني لكن هذا المصدر قد عانى من مجموعة من المُشكلات من أبرزها إيقاف تدوين الحديث لقرن من الزمان، وظلّت مضامينه ومعانيه تُنقل بالذاكرة في وسط ظهرت فيه جماعات مختلفة الدوافع والأهداف عقائديًا وسياسيًا بحيث تسلّل إلى مضامين الحديث ((ما هو مُنكر وغريب وضعيف ومرسل وموضوع))، وحينما نلحظ موازين التعرّف على صحّة حديث ما نصطدم باختلاف المحدّثين في الموازين بحيث أضحّت كلّ مشكلة تؤدّي إلى متاهة فكرية أكبر، مما منح المتطرّفين أن يتشبّهوا بآراء شاذّة للمفسّرين مستندين إلى أحاديث ضعيفة.

ومن أبرز مشكلات هذا المصدر أن أهل العلم بهذا التخصص لم يستكملوا صياغة المعيار الذي يفرّق في الحديث النبوي بين ما هو (زمني) أي في حدود زمن النبوة أو ما يقترب منه، وبين ما هو إطلاقي يُعمل به في كلّ العصور والبيئات بمختلف المجتمعات، حتى بات لباس أهل ذلك الزمن وطريقهم تعاملًا سلوكًا مقدّسًا لما يجب أن يعمل به أهل الأزمان اللاحقة، وعقائديًا انقسمت (أمّة المسلمين) على مدارس لها مصنّفات يعتمدها البعض وأخرى غير معتمدة عند آخرين بحيث تهاوت وحدة الأصول النظرية الحاكمة والمعيارية التي نتحاكم إليها سواء من جهة القرآن، أو من جهة السيرة النبوية، أو من حيث نصوص العقائد أو من جهة النصّ الفقهي، فهناك اتّساع وتباين وآراء لكلّ الموضوعات المستجدة، من دون أن يكون في هذا الشأن معيار ترجيحي أو ميزان تفضيلي، مع إهمال كامل لمتطلّبات الحاضر باعتماد طريقة العيش في الأزمنة التاريخية الأولى.

لقد ظهرت في العصر الأول مدرستان تفسيريتان إحداهما تتوسّع في تفسير النصّ مستعينةً بالعقل معتقدة أن الحقائق النهائية موجودة في النصّ نفسه فقط^(١).

ولم نلحظ قدرًا من التقارب بين المدرستين، ولأنّ النصّ القرآني نصّ معجز بلاغة وصياغة وهو نصّ إطلاقي يتخطّى الأزمنة والمدنيات، وعندما نعتد المنهج

(١) محمّد هادي معرفة: التفسير والمفسّرون، ص ٥٦.

النصوصي والقراءة الحرفية نكون قد وقعنا في اتجاه يحوّل الرأي البشري إلى نصّ مقدّس ويعجز لقصوره عن التكيّف مع العصور اللاحقة ومقتضياتها، ونتيجة لاصطدام الفهم المتقدّم للنصّ مع الواقع المتغيّر فقد وضع أصحاب الاتجاه أنفسهم أمام أمرين: إما التحوّل نحو القراءة العقلانية الواقعية، وبذلك يتخلّون عن اتجاه آمن بأنه مقدّس ونهائي، وإما التشدّد على تلك القراءة فيقع في التطرّف الذي يدّعون، حتى جرّهم ذلك إلى أن يرووا عن النبيّ (ص) أنه قال ((من قال بالقرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ))^(١) وهذا الحديث برغم مخالفة (متنه) للاعتياد؛ إذ الوصول للحقيقة أو إصابة الحقّ غرض شرعي لا ينسجم مع وصفه بأنه (أخطأ)، لأن ذلك إقرار بالإصابة وتوصيف بالخطأ، وهذا لا يُتصوّر صدوره عن النبيّ (ص)^(٢).

ولقد ترتّب على الاعتماد على فهم الزمن الأول لمتلقّي النصّ أن آراء الصحابة وفهمهم صارت آثارًا ملزمة لأهل الأزمنة اللاحقة، فصار لفهم الصحابي وضع مرجعي حتى لو وقف الحديث عليه، فقد اعتبروه مرفوعًا، وقد وضعوا لذلك قاعدة: إن موقوف الصحابي كمرفوعه^(٣)، وسوّغوا ذلك بأن الصحابي ربما قد سمع ذلك من النبيّ (ص) ولم يسنده فصار بحكم المرفوع.

مما تقدّم يتبيّن أن الجذر الأول الذي شكّل أساسًا تاريخيًا ودينيًا للتطرّف القراءة الحرفية والأحادية الرؤية، وكان قد تأسّس في عصر الصحابة وقد أُطلق عليه بعد قرنين من الزمان مرجعيّة (السلف) أو عقيدة السلف وارتبط هذا المفهوم بمبدأ عدالة الصحابي مطلقًا حتى لو ثبت عليه ما هو خلاف العدالة أو حتى لو لم يكن الصحابي فقيهاً أو عنده شيء من العلم.

لقد ظهرت مرجعيّة السلف في فكر الإمام أحمد بن حنبل وفي آراء تابعيه الذين زادوا على آرائه فصارت تيارًا للحنابلة طوّر مفهوم البدعة حتى شمل كلّ

(١) الملاء علي القاري: المشكاة / ٢٣٥، سنن أبي داود ٧٩٩/٢.

(٢) قال عنه أهل العلم إنه حديث ضعيف وغريب.

ظ: سنن الترمذي ٣٦٠/١.

(٣) ابن الصلاح: مصطلح الحديث

الاجتهادات العقلانية وعلى رأسهم المعتزلة^(١)، وأسّس لمبدأ رفض تأويل النصّ، والعمل بالظاهر ((الحرفي))، مما أوقعهم بالتجسيم، لأن التأويل عندهم حمل الظاهر على محتمل مرجوح يُراد جعله راجحاً^(٢)، وتأسيساً عليه وصل الأمر إلى تكفير المتأولين في القرن الرابع، فشمّل المُرجئة والمعتزلة والصوفية والشيعية والأشاعرة والإسماعيلية والمتكلمين... الخ.

وكانت نظرية الفرقة الناجية وأطروحة الطائفة المنصورة التي صُرفت حصراً إلى أهل الحديث من دون الناس مستنداً إلى إعلان ضلال بقيّة الفرق والاتّجاهات ما عدا أهل الحديث الذين صاروا هم أحقّ من يتكلّم بالمعرفة الدينية، وإذا كان الإمام أحمد يرى أن من خالف (المتواتر) فهو ضالّ، فإن تيار الحنابلة اعتبروه كافراً، وكان أحمد يرى أن البلاد التي تظهر فيها البدعة هي دار كفر تجب الهجرة عنها ويجوز غزوها وتقتيل أهلها وقد حصل هذا في (ماردين) بفتوى لابن تيمية.

وبذلك: تأسّست المبادئ الأولى لخطاب العنف:

أ- اعتماد منهج القراءة الحرفية للنصّ الديني والتشديد على الاجتهاد وإسقاط البرهنة والحوار.

ب- الالتزام بمعيارية فهم أهل الزمن الأول بحيث يتحوّل الدين من حقيقة كونية تستوعب الإنجاز الإنساني إلى أنموذج تاريخي سكوني.

ت- استخدام مفهوم البدعة ومفهوم الفرقة الناجية ضدّ جميع فرق المسلمين، ليتحوّل الأمر بعد ذلك إلى التكفير.

إن إرادة الإمام أحمد وما زاده الحنابلة عليها قد أسّست لنظرية الخطاب الديني المتشدّد كمقدّمة لفكر التطرّف الذي سيصبح نظرية عند ابن تيمية الذي وسّع البدعة إلى التكفير، ووسم بعض تفاسير القرآن بأنها مروّجة للبدعة وتنقل عن (المتهمين)، وصنّف في نقض المنطق والردّ على الفلاسفة، والمطالبة بإقامة الدولة على غرار (الخلافة) وأنموذج السلف، ثم كفّر الأشاعرة والصوفية والمعتزلة

(١) البدعة عند أحمد، ما أحدث في الدين وليس منه، وما خالف السنّة وما لم يؤيّده سلوك الصحابة والتابعين وأتباعهم، وهي أخطر من الكفر، فأحمد لا يرى توبة لمن دعا إلى بدعة، في حين أن للكافر الحقّ في التوبة، ويرى أن الردّ على أهل البدع أعظم من جهاد الكفار..

(٢) ظ السبكي: جمع الجوامع / ١١٧.

والماتريدية والمُرجئة والشيعة والإسماعيلية والدروز، وهاجم مذاهب الفقهاء ولا سيما مذهب أبي حنيفة^(١) الذي أتهموه بالإرجاء.

ومن جرّاء تناسل فكر التطرف دخل العالم الإسلامي بعد القرن الثامن الهجري في غيبوبة حضارية كاملة، وكان قد أغلقت عليه السلطات سبل التطوير والتنوير، وقد استمرت الفترة المظلمة حتى القرن الثاني عشر، فكانت الحلقة التالية لهذا التناسل ظهور (اتجاه متطرف جديد يتبناه الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي صاحب النظرية الوهابية المعاصرة).

لقد قدّمت الوهابية نفسها كحركة تصحيحية للعقائد، معتمدة الوسائل العنيفة والغزو، وقد اعتنقت آراء تيار الحنابلة لاسيما ابن تيمية حتى عادت مرجعيتها الفكرية الوحيدة، وبناء على رأيه في تحريم البناء على القبور فقد سوّغوا هدم الأضرحة والمساجد التي فيها مقابر الصالحين، وأفوتوا بقتل من يتوسّل بالأولياء، وصرّحوا بأنه من أهل البدع والضلالات، وهو عندهم أغلظ شرًا من المشركين الأوائل^(٢)، واستخدموا وسيلة الإكراه والعنف والغزو، ثم التسلّط على المدن الحجازية لفرض رأيهم، واستتبّ الأمر لتجربة (دينية - قبلية)، وأُعلنت الجزيرة إقليمًا حصريًا لمذهب واحد، بل لرؤية داخل المذهب الواحد، واعتمدت طرقًا تلقينية للتعليم الديني صنعت به عقلًا متشدّدًا أحاديّ التوجّه، صار بعد ذلك بيئة فكرية للتطرف والعنف.. ثم انتشر هذا الوباء في عموم العالم الإسلامي مُحدثًا فيه البلاء الأعظم.

هذا هو التسلسل التاريخي والفكري لظاهرة دينية - تاريخية - تأسست من مناشئ عدّة وساعدت عليها حالات التردّي المعرفي والانحراف السياسي لدولة المسلمين فإذا عرفنا المناشئ الذاتية، فكيف ترسم المواجهة عقائديًا وفكريًا؟..

ب- المناشئ الموضوعية للتطرف:

يُراد بالمناشئ الموضوعية ما يقابل الذاتية مكونات (العقل الديني)، أما الموضوعية فهي (الواقع الفعلي) الذي بدأ بتمرد الخوارج، إلا أن هذا التمرد الذي

(١) ابن تيمية: منهاج السنّة ٢٤١/٢

ظ ابن تيمية: مجموع الفتاوي ٣٣/٧.

(٢) موسوعة مؤلفات ابن عبد الوهاب ١١١/٧.

دام قرناً كاملاً قد انتهى فكرياً وعملياً بعد النصف الثاني من القرن الثاني، حيث حصل الصدام بين السلطة والخوارج، وحصل الصدام بين سلطة المأمون والمعتصم وأحمد بن حنبل، ثم انتصر المتوكل للإمام أحمد، وبهذه تكوّنت جماعات الحنابلة وتطوّرت في القرن الرابع الهجري، وهو القرن الذي اعتبره آدم متز قرن الذروة الحضارية للمسلمين، بعد ذلك توالى الانتكاسات السياسية سواء في تعدّد الدويلات أو ظهور تيارات التشدد، ثم هجوم المغول على العالم الإسلامي وبدل اللجوء إلى مشروع عقلائي لمواجهة التدهور الفكري وإعادة بناء المجتمع، وقع المسلمون في تداعيات الهزيمة وكانت انعكاساتها في تيار ابن تيمية (المشروع الإقصائي) الذي خلق بينهم حرباً فعلية من جنس الحروب الأهلية والتدمير الشامل لكلّ الإنجازات الحضارية والمعرفية للقرون الستة السالفة وبهذا دخل العالم الإسلامي بالغيوبة الحضارية وأوجدت شعوب ابتليت بالفقر والجهل والخرافة وسيطرة الأساطير، وتدني طرق التعليم والتلقينية، وغاب الاجتهاد والبرهانية غياباً تاماً.

فلما حلّ القرن التاسع عشر الميلادي هاجمت أوروبا بلدان العالم الإسلامي بدءاً بالهند، ثم قامت بعد الحرب العالمية الأولى بتفكيك دولة الخلافة العثمانية، وشكّل ذلك صدمة حضارية أذهلت المسلمين وشاهدوا الشوط الكبير بين ما حقّقه الغرب وما هم عليه من أوضاع، وإزاء ذلك انقسموا على ثلاثة اختيارات:

الأول: الاستسلام الكامل لحضارة الغرب بوصفها صانعة للتقدّم، وهذا يقتضي الإعراض التامّ عن التراث والدين.

الثاني: التمسك الكامل بالتراث المملوء بالتدني المنهجي والمعرفي ونتائج عصور التدهور الحضاري وهذا يقتضي قدراً كبيراً من التشدد الديني.

الثالث: الاتجاه المدني العقلاني الذي يحاول مراجعة وإعادة النظر بالتراث وإحياء الأفكار الحيوية وإعادة صياغة مشروع النهضة على أساس مبادئ الإسلام العالية المضمون من منهج عقلائي نقدي مفتوح على الاستفادة من تجارب الشعوب والأمم الراقية، ولديه القدرة على المواءمة والتكييف بين مبادئ التراث المشرقة وإنجازات العقل البشري.

لكن هذا الاتجاه تعرّض إلى هجومات واسعة من تيّار الاغتراب المتطرّف، وهجمات أقسى وتكفير وتبديع من التيّار السلفي فلم تظهر بصماته واستراتيجياته على واقع المسلمين.

لقد انفرد العلمانيون في صنع الحدث واستمرّ التيّار العلماني باضطهاد وقمع التيّار السلفي، ومن جرّاء ذلك عانى المسلمون من مشكلات مثل فشل مشروعات التنمية المستدامة وشيوع الفقر والمرض وتدنّي الخدمات والاستبداد وعنف الدولة وإرهابها والهزائم العسكرية أمام (عدوان إسرائيل) والوقوع في التخادم للأجنبي... الخ.

من مشكلاتنا المعاصرة أن هذا الواقع بما فيه من تدهور في صناعة الأوطان دفع بعض المنتفعين إلى تأسيس جماعات دينية متطرّفة أسهمت بنشر فكر متطرّف لشدّها إلى طموحاته وأهدافه، فكانت هذه الجماعات تعتاش على تدهور الوضع الحضاري، من ذلك شعار جماعة الإخوان المسلمين ((الإسلام هو الحلّ)) على الرغم من أن جماعة الإخوان كانوا متقدّمين خطوة في طرح مشروع للنهضة لصالح الإنسان في حين انشغل عموم التيّار السلفي بتصحيح العقائد التي حسيبها كبارهم (منحرفة) مع إهمال حاجات الإنسان وتطلّعاته.

ت- المناشئ النفسية والسياسية للتطرّف:

لأزمان الهزيمة تداعيات وهي التي دفعت قادة جماعات التطرّف وعناصرها إلى تحقيق ((أنا)) مأزومة سحقتها عصور الانحطاط الحضاري بعد القرن الخامس الهجري حتى القرن التاسع عشر صدمة التعامل مع الغرب المحتلّ لأراضيه، فمن وجهة نفسية أن التمرد على الدولة والمجتمع، وما استقرّ عليه العالم المعاصر من أنموذج للتعايش يعكس حالة ذهانية أو عصابية هدفها إرضاء الوضع النفسي المأزوم بين قيم الهزيمة وقيم النهوض..

ومن الناحية السياسية أن المتتبع لجماعات التطرّف وحركتهم من عصور الإسلام الأولى إلى اليوم يكشف أنها تنطلق من بواعث سياسية وتنتج إلى أهداف سياسية، موظفة الدين كوسيلة تعبوية وأيديولوجية للحصول على مغانم سياسية، فالتطرّف يتشكّل على خلفية سياسية بتنظير عقديّ، لذلك ترى فقه

السياسة واضحًا في مدوناتهم أكثر من فقه القيم وبناء الضمير والجانب الروحي والعبادات والمعاملات، ومن الوجهة الأيديولوجية يقول الباقلاني عن الخوارج إنهم جعلوا آيات العذاب التي نزلت في حق الكافرين في أهل الإيمان والتوحيد.^(١)

ونجد ذلك فيما تُسمّى بمحنة ابن حنبل وصدّامات تيّار الحنابلة ودعوة محمّد بن الوهاب وحركات الإسلام السياسي وصولًا إلى كتابات عبد الله عزّام الذي بشّر بأن أفغانستان ستكون ميدانًا للمهامّ السياسية، ففكر التطرّف يسعى أولاً لإقامة الدولة ثم يُقام المجتمع، في حين أن الفكر المعتدل يخلق المجتمع أولاً ثم المجتمع نفسه يخلق الدولة.

التصوّر القرآني للمشروع التكفيري:

لا يختلف اثنان على أن أصل مشروعية الأفكار والمفاهيم والاجتهادات الإسلامية المستند القرآني؛ لأنه من حيث الصدور قد جعله بالإعجاز قطعيّ الصدور، وقد توالى على تفسيره عشرات الأجيال من المفسّرين، فكلّ أمر ينتسب إلى الإسلام لا بدّ أن يسوّغه كتاب الله المجيد، ولو وقفنا على كتاب الله فإننا نجد:

- ١- أنه يدعو إلى السلام فيقول ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً - البقرة ٢٠٨﴾.
- ٢- ويمنع ويحرّم أية ممارسة عدوانية وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ - البقرة ١٩٠﴾.
- ٣- ويتحقّق الإيمان والأمان بمعرفة الله، فالإيمان هو ناتج المعرفة الحقّة بالله.
- ٤- ويحرّم قتل النفس إلا بالحقّ.
- ٥- ويكرّم الإنسان ويستخلفه.
- ٦- ويجعل للعقائد طريقًا وهو العقل وحرّية الاعتقاد والتأمّل بالوحي.
- ٧- ويمنع الناس من التفتيش عن عقائد الآخرين، ويختصّ الباري تعالى بمحاسبة الناس على معتقداتهم.

(١) الباقلاني: الإنصاف ١/ ٦٧.

- ٨- يفتح القرآن باب الإنابة والتوبة لكلّ من خرج عن الطريق القويم.
 - ٩- ويغفر الباري الذنوب جميعًا إلا الشرك بالله بعناد.
 - ١٠- يأمر بالحكمة والجدال بالتي هي أحسن والموعظة الحسنة في الدعوة إليه.
 - ١١- يتطلّع القرآن في نزوله المكيّ إلى إنسان يؤمن طوعًا ويستعد عقلاً لتحمل مسؤولياته ثم يشرّع له بعد ذلك في السور المدنية نظامًا قانونيًا وأخلاقيًا للحياة.
- فهل تجربة الفكر التكفيري تجربة منسجمة مع هذه التعاليم القرآنية الوارد ذكر بعضها فيما تقدّم؟ وحتى نتوصّل إلى الجواب نقف عند الموقف القرآني من المشروع التكفيري.

ونعرض لنماذج قرآنية محدّدة:

- ١- يتّفق الفهم العلمي للقرآن الكريم على أن المعتقدات الأساسية هي الإيمان بالله واليوم الآخر، وبشرط توأمة الإيمان مع العمل الصالح أي المشروع البنائي (الإنساني)) فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ - البقرة ٦٢﴾
- ٢- يدين القرآن الكريم الغلظة وقساوة القلب (التوحّش البربري) فيقول: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً - البقرة ٧٤﴾، ومفهوم المخالفة أن المسلم يجب أن يكون رحيماً عطوفاً إنسانياً فيأصّب في إحسانه للغير.
- ٣- ويدين القرآن اتّخاذ المتشابه القرآني للفتنة يقول ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رِيبٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ - آل عمران ٧﴾ فيلزم أن يمعن النظر مرّات بنتاج المتشابه.
- ٤- يحرم القرآن إجبار الناس على الاعتقاد (بأنموذج خاص)، فيقول ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ - البقرة ٢٥٦﴾ وسياق الآية دالّ على العموم فعموم الإكراه محرّم.

٥- لا يفوّض القرآن البشر حقّ التفنيش عن عقائد الناس، قال: ﴿فَدَكَّرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُدَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ - العاشية ٢١-٢٦﴾ وقال تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ - آل عمران ٣٠﴾ وقد وردت لفظة البلاغ (١١) مرّة في القرآن الكريم وهي تحدّد أن الذي يحاسب على المعتقدات هو الله تعالى وأن الله لم يفوّض المحاسبة إلى البشر، إلا أنه فقط كلّفه بالدعوة والنصح والإرشاد وبوسائل الحكمة والموعظة الحسنة.

٦- إن المشروع الربّاني الذي أرسله الله إلى البشر بواسطة الأنبياء والقادة الربّانيين هو مشروع الرحمة بالإنسان مطلقاً، فقد قال تعالى يصف هدف الرسالة المحمّدية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ - الانبياء ١٠٧﴾، قال الزمخشري في تفسيرها: لأن النبيّ جاء بما يُسعدهم^(١)، وذكر البيضاوي أن الدين سبب لإسعادهم لصالح معاشهم ومعادهم^(٢)، وعند الرازي مباحث كلامية مهمّة في المراد من الرحمة للعالمين^(٣)، وقد روى أنهم قالوا له ادعُ على المشركين فقال (ص) ((إنما بُعثت رحمة ولم أُبعث عذاباً)).^(٤)

٧- يتّضح الموقف القرآني في معالجة ظاهرة الكفر من النصوص الآتية:

أ. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ - البقرة ١٢٦﴾. أي إن عقابه ديانّي أخرويّ.

ب. في آية الحجّ: قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ - آل عمران ٩٧﴾

ج. ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ - المائدة ١٢﴾. الضالّ يحتاج إلى الهداية.

(١) الكشّاف ١٦٦/

(٢) م ن ١٦٧/

(٣) الرازي: مفاتيح الغيب ٧١/٦

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ظ كثر العمّال ١١/٥٦٨

د. ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُنْفِيسِهِمْ يَمْهَدُونَ - الروم ٤٤﴾.

هـ. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ - لقمان ٢٩﴾.

هذه نماذج قرآنية تؤكد أن خصائص المشروع الرباني أنه يحقق مصلحة للإنسان بواسطة (العمل الصالح)، وإن القتل والقسوة والنكابة لا تتفق مع (مشروع العمل الصالح)، وأن مسألة الاعتقادات وتغييرها مسألة نظرية معرفية حوارية إقناعية طريقها العقل والجدال والتي هي أحسن.

من السنة الشريفة:

- ١- جاء في مسند أحمد قوله (ص): ((لا تنزع الرحمة إلا من شقي)).^(١)
- ٢- جاء في مسند أحمد قوله (ص): ((أنا محمد نبي الرحمة)).^(٢)
- ٣- في دلائل النبوة يقول ابن عباس تفسيراً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]، قال: السكينة هي الرحمة.^(٣)
- ٤- وردت مئات الأحاديث عنه (ص) بوجوب نصيحة المسلم لأخيه المسلم بل ورد أنها رأس الدين.
- ٥- جاء في مسند أحمد قوله (ص): ((لا تُقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل)).^(٤)
- ٦- عن ابن عمر أن النبي (ص) قال: ((المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله)).^(٥)
- ٧- ورد عنه (ص): ((إن القتل من كبائر الذنوب وهو قرين الشرك بالله)).

الحروب العقائدية: برغم كل هذه النصوص فقد نشأت حروب عقائدية كثيرة وسُفكت الدماء فيها وحلت الولايات من حروب مانعي الزكاة إلى اليوم، ومنها

(١) ٢٠١ / ١٦

(٢) م. ن: ١٦ / ٢٠٢

(٣) البيهقي: دلائل النبوة ٢٥٠ / ٤

(٤) مسند أحمد ٧ / ٤٨٥

(٥) م. ن: ١١ / ١٢٩.٤

صدّامات الحنابلة مع من يخالفهم رأيهم وتنظيرات ابن تيمية مع الآخر المختلف عنه بالاجتهاد، فقد عاش ابن تيمية عمراً مملوءاً بالصدّامات، فقد ذكر المقرئ مؤلّف كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك أن ابن تيمية أنكر على فقراء الأحمديّة من الصوفيّة ممارساتهم، وكادت تكون فتنة^(١) وناجز الصوفيّة فقاوضوه وقُضي عليه بالجلّاء إلى خارج الإقليم، وحارب الأشاعرة والفلسفة وكفّر الفلاسفة وأجهز على المنطق، وأشعل حرباً على الشيعة والمعتزلة والمذاهب الفقهيّة وحارب بنفسه ((النصيريين))، لقد كان رجلاً لا يخرج من معركة حتى يدخل في أخرى.

من الناحية المنهجية أن ابن تيمية لا يرى صحّة لتفاسير أغلب المسلمين، فأصحّ التفاسير عنده تفسير ابن جرير الطبري، لأنّه يذكر مقالات السلف ولا ينقل عن المتّهمين كما هو نصّ ابن تيمية، وقد أسّس مدرسة متشدّدة من تلاميذها ابن القيم وابن كثير والذهبي وابن مفلح.

وزاد على ما لتيّار الحنابلة من تشدّد في القرن الثالث والرابع والخامس فكان فكره أكثر تشدّداً.

ويذكر المؤرّخون أن الحنابلة كانوا قد هاجموا الطبري؛ لأنّه كتب كتاباً في اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه أحمد (لأنّه محدّث)، ويرى ابن الجوزي أنّه عظم أمر الحنابلة وقويّت شوكتهم^(٢)، وينقل أيضاً في الواقعة التي وقعت بين الحنابلة والأشاعرة، وقد سمّاها فتنة عظيمة^(٣). وفصل في ملاحقة الحنابلة لغيرهم من أتباع المذاهب^(٤)، وفي ذكر سبب الواقعة مع أبي نصر القشيري في النظامية أنّه أنكر عليهم التجسيم^(٥)، وجاء فيها تدخّل نظام الملك لإنهاء الشغب^(٦).

ونقل في تاريخ الخلفاء: فتنة أخرى قاموا بها بسبب تفسير ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا - الأَسْرَاءُ ٧٩﴾، إذ قال الحنابلة: يقعه الله على عرشه وأنكرها عليهم بقية المسلمين، وقد دام الخصام زمناً واقتتلوا فقتل منهم جماعة،

(١) المقرئ السلوك لمعرفة دول الملوك (٣٥٤/١)

(٢) ابن الجوزي: في المنتظم ج ٤٦١/٣

(٣) م. ن: المنتظم ٤٠٨/٤.

(٤) م. ن: ص (٤٤٧).

(٥) م. ن: ج ٤٧٥/٤.

(٦) كتاب (السلحقة) (١٩٨/١).

وفي عام ٤٦٤هـ قام الحنابلة بما سمّوه بإنكار المنكر لردّ القشيري حتى لا يُدرّس بالنظامية، وذكر صاحب كتاب السلاجقة (أنهم أعلنوا حربًا غير شريفة على من يخالفهم حتى قال ابن الجوزي رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم إلا العجز، وكان ابن يوسف (حاكمًا) والحنابلة في عصره يتسلّطون بالبغي على الناس.

القسم الثاني: تصوّرات لسبل المواجهة: إن خطورة مواجهة التطرف الذي يعتمد العنف الديني الذي أنتج (الإرهاب) بالمصطلح المعاصر تزيد على دخول البلاد في حرب كبرى مع دول أو عدّة دول إقليمية من حيث استنزاف الثروة، والأرواح وتعطيل الحياة المدنية، بل هناك آثار نفسية كبيرة تقع على الناس بسبب احتمالات الوقوع في واحدة من عمليات الغدر بالمفخّخات والأحزمة الناسفة العبوات العشوائية، وكلّ هذا يتطلّب اكتشاف سبل المواجهة وتصور أن المبادئ العامة لسبل المواجهة هي:

- أ- أن الدولة القوية تقلّل من فرص الإرهاب وقوى التطرف فكلّما كان النظام السياسي قويًا و متماسكًا كان لا بدّ أولًا من بناء دولة قوية.
- ب- تقليل حالات الخصومة الوطنية ((وإجراء عملية اندماج وطني)) وهو هدف أعلى من المصالحة وباستراتيجية عالية وحلّ الإشكال الطائفي.
- ت- الدعوة والسعي الدؤوب إلى سياسات إقليمية تصغّر المشكلات الجيوسياسية ((باتفاقيات اقتصادية وأمنية)).
- ث- تحليل مناشئ التطرف ورسم الخطط على أساس فهم أسباب النشأة والتطور على مستوى الفكر والثقافة.
- ج- تحقيق التوافق بين المراكز الدينية في العالم للتصريح بأن التطرف ظاهرة مدانة شرعًا، وأن العنف والإرهاب جريمة وانحطاط أخلاقي بحيث يضع على الإرهابيين عارًا دينيًا ووطنياً، والإعلان عن عدم استناد التطرف إلى أسس دينية صحيحة وذلك:
 - ج/١: بإعادة دراسة السيرة النبوية.
 - ج/٢: بدراسة سيرة الصالحين من أجيال المسلمين.
 - ج/٣: بإبراز القيم السلمية المشتركة.

ج/٤: بيان أن العقائد والمعتقدات هي حقّ خالص لله تعالى، ولم يفوّض الباري أحدًا يحاسب الناس على عقائدهم وآرائهم، فليس من حق أحد إدانة أحد، إنما حقّه الإعلان عما يعتقدّه صحيحًا والبرهنة عليه وتأشير الزلل كما يراه فيما يعتقدّه الآخرون دون إقصاء أو تكفير.

ج/٥: إعادة النظر بوسائل التعليم الديني وطرقه، وإعلاء شأن التفكير والبرهانية وأعمال النقل في مسالك العقل.

الخاتمة:

يمكن القول إن التطرّف الحاضن للعنف الديني نمط من استجابات غير واعية لوقائع الفشل ولأهداف سياسية تختفي وراء فكر ديني متزمت ماضويّ لإثارة الضمير الديني، ونزعة انتقائية للذات، وإقصائية للآخر بواسطة البدعة والتكفير.

١- إن للتطرّف جذورًا في التاريخ الإسلامي من القراءة الحرفية حتى أدبيات الحركات (الجهادية) المعاصرة، ومهما تعدّدت مراحل تطوّر موجات التطرّف إلا أنها متناسلة مما قبلها وكلّ مرحلة لاحقة تضيف (فكرًا متشدّدًا) عما في سابقتها.

٢- يجد الباحث أن هناك علاقة طردية بين التخلّف وفشل التنمية ومشروع النهضة وبين الفرص المتاحة للتطرّف، ومع تنامي العقلانية والنزعة النقدية للتراث فإن ثمة فرصًا لظهور موجات التطرّف؛ لأن هذه الجماعات توجّج الانفعال والعقل الجمعي وتستثير التاريخ الصراعي لإثارة الحروب الأهلية على خلفية طائفية.

البحث الرابع



التطرف ومخاطره المجتمعى



الدكتور صلاح السامرائي

القاء نيابة عنه فضيلة الشيخ الدكتور طالب أحمد
عواد

أما بعد: فإنَّ الإسلام يمنح المتعاطي معه بحقَّ بصيرةً بمثابة مرآةٍ للحقائق ينظرُ من خلالها إلى الأشياء من حوله فيُميِّزُ صالحها من طالِحها، وذلكم هو فرقانُ الصِّدقِ الممنوحِ مِن رَبِّنا لكلِّ مَنْ تحقَّقَ بشرطِ التقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ - الأنفال: ٢٩﴾ يجعل لكم فرقانًا؛ فرقانَ حقٍّ تدوبُ أمامه كلُّ محاولات التمويه، وتَسْقُطُ عندهُ كلُّ صورِ التشويه.

لقد اختصَّ الله عزَّ وجلَّ أُمَّةَ النبيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوسطية والاعتدال؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا - البقرة: ١٤٣﴾، وهنا إعجاز عددي في هذه الآية الكريمة، فعدد آيات سورة البقرة ٢٨٦ ÷ ٢ = ١٤٣، هذا هو رقم هذه الآية، فكان الآية نفسها جاءت وسطًا، وكفى بها رسالة للأمة لتكون وسطًا في كل شيء.

وكما أنَّ الإسلام دينُ الوسطية والاعتدال؛ فهو كذلك دين اليسر والرحمة، فالنبيُّ بُعث بالحنيفية السمحة، فأصل الدين قائم على اليسر وعدم المشقَّة، فالتيسير على العباد مراد الله، والمشقَّة لا يريدُها الله لعباده: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ - البقرة: ١٨٥﴾، فالمسلم لا يثاب على المشقَّة؛ إلا إذا كان لا يمكن أن يأتي بالعبادة إلا بها، فيؤجَّر على المشقَّة إذا كانت وسيلة للعبادة، أما تقصُّدُ المشاقِّ وظلِّبها، فلا يؤجَّر عليها المسلم، وكيف يؤجَّر على شيء لا يريدُه الله منا ولا يرضاه؟!

ولأهمّية اليُسْرِ في الشريعة الإسلامية فما خَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الْآخَرِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا؛ فَإِنْ كَانَ إِثْمًا
كَانَ أُنْبَعِدَ النَّاسَ مِنْهُ.

ومن مظاهر التطرّف وآثاره في الفرد والمجتمع، الجهلُ المُركَّبُ بمسائل
الشريعة: ولا سيما المسائل الدقيقة التي لا يُحسِنُها إلا العلماء وكذلك التعصّب
والولاء والانتماء إلى جماعة أو حزب معيّن: مع الاقتناع بأفكارهم وجعل التكفير
وسيلة في الانتقام من المخالفين، ومن مظاهر التطرّف وآثاره أيضًا: حداثة السنّ
وقلّة التجارب: وهذا موجود عند بعض الشباب الطائش الذين تشبّعوا بالفكر
التكفيرى المتطرّف؛ وهؤلاء يقول عنهم النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَأْتِي فِي آخِرِ
الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَاثُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنَ
الإسلام كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ)

ومن المظاهر: اتّباعُ الفتاوى المضلّلة: فالفتوى بغير علم من أخطر المصائب
والمحن التي ابتليت بها الأمة في عصرنا هذا؛ فهي تُسوّغُ لصاحبها فعلَ كلِّ مُنكِرٍ
وقبيح؛ وارتكاب أبشع الجرائم والموبقات بسبب هذه الفتاوى المضلّلة.

وكذلك التعصّب للرأي تعصّبًا لا يعترف للآخرين برأيٍ وهذا يشير إلى جمود
المتعصّب مما لا يسمح له برؤية مقاصد الشرع ولا ظروف العصر ولا يسمح
لنفسه بالحوار مع الآخرين فالمتطرّف يرى نفسه وحده على الحقّ وما عداه على
الضلال، كذلك يسمح لنفسه بالاجتهاد في أدقّ القضايا الفقهية وأعظم النوازل
التي تطرأ، ولكنّه لا يجيز لغيره من أهل العلم والخبرة والاختصاص ما داموا
سيصلون إلى ما يخالف النتيجة التي توصل إليها.

إنّ للتطرّف الفكرى عواقبه الوخيمة وأضراره الجسيمة على الفرد والمجتمع؛
فالتطرّف الفكرى ذريعة ومسوّغ لاستباحة الدماء وانتهاك الأعراض، وسلب
الأموال الخاصّة والعامة، وتفجير المساكن والمركبات، وتخريب المنشآت، وزرع
العداوات والأحقاد والفرقة بين أفراد المجتمع؛ فهذه الأعمال وأمثالها محرّمة شرعًا
بإجماع المسلمين؛ لما في ذلك من هتك لحرمة الأنفس المعصومة، وهتك لحرمة
الأموال، وهتك لحرمت الأمن والاستقرار، وحياة الناس الآمنين المطمئنّين في

مساكنهم ومعايشهم، وعُدّوهم ورواحهم، وهتك للمصالح العامّة التي لا غنى عنها للناس في حياتهم؛ وكلّ هذه الجرائم من آثار التطرف الفكري.

والتطرف الفكري بوصفه فتنةً لا يرتبط بزمان أو بلد أو دين بعينه، بل ينتشر حيث تنتشر قيم الفوضى ومظاهر الضعف، وخطورته تكون أعظم حين يتعلّق الأمر بفئة الشباب، فلقد أضّرّ التطرف الفكري بالمجتمعات الإسلامية وأدّى إلى نشوب الإرهاب، وأصبحت مشكلة التطرف في عصرنا خطرًا يُحدِقُ بالأمة الإسلامية خصوصًا، وأمّم العالم على وجه العموم.

كما يُعدّ الإرهاب ظاهرة قديمة وأحد الأساليب السياسية عرفتتها المجتمعات البشرية منذ العهد الروماني حيث ناهض اليهود الحُكم الروماني في القدس خلال الثلث الأول من القرن السابق على ميلاد السيّد المسيح عليه السلام ثم ظهرت حركة دينية سياسية أطلقت على نفسها اسم "حركة سيكاري" وانضمّ إليها أهمّ المتطرفين في العقيدة اليهودية من خلال سلوكياتهم المنافية للعلم والمجتمع من اغتيال وإحراق للمكاتب وإعدامٍ للوثائق وقضاءٍ على مصادر المياه في القدس.

ومن أهمّ الآثار التي تنعكس على المجتمع جرّاء التطرف الفكري:

- أنه يؤدّي إلى تدمير البنية الأساسية للمجتمع، حيث يكون الشباب في حالة ضياع وانحراف، ويُعدّون أداة لتدمير الدولة وتخريبها، بدلًا من حمايتها وعمرانها.

- اللجوء إلى العنف والقتل والاغتيال لأفراد المجتمع، خاصةً الأفراد المعارضين لأفكار المتطرفين واتجاهاتهم.

- انعدام مبدأ التسامح والسلام بين أفراد المجتمع، وسيادة الكراهية والحقد، نتيجة انتهاج أفكار ومبادئ مخالفة للأفكار والمعتقدات السائدة في المجتمع.

- لجوء المتطرفين إلى فرض معتقداتهم بكافة وسائل العنف، التي قد تؤدّي إلى الإرهاب.

- ينتج عن التطرف الفكري التعصّب للأفكار، والثبات على المعتقدات، مما يؤدّي إلى تعطلّ الهمم والإبداع، لخلق مجتمع إيجابي، يواكب التطور والتغيير.

- يعمل التطرف الفكري على انعدام الإحساس بالولاء والانتماء، ويولد شعور العزلة والاعتراب عن المجتمع.

.....

ما المخاطر الكبرى التي يشكلها التطرف والإرهاب؟

أخطر المخاطر يتمثل في غياب الأمن وفقدان السلطة السياسية لهيبتها وتعطيل سيادة القانون، ففي ظلّ التدافع الماديّ العنيف بين السلطة القائمة والعناصر المتطرفة والجماعات الإرهابية يصبح المجتمع كله مهددًا، وتصيب الفتنة الأقرين والأبعدين والمواطنين والرعايا لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً - الأنفال: ٢٥﴾، فإذا حصل هذا في أيّ مجتمع أو في آية دولة ولم تهبّ القوى المجتمعية مع النخب والجهات الرسمية إلى تطويقه في المهد اتسعت رقعة الصراع وتوالدت المخاطر؛ لأن الإرهاب الفكري أو السياسي أو الإيديولوجي (القائم على عقيدة ما) إذا تحوّل من مجرد قناعات إلى فعل ماديّ، فإنه يفرض واقعًا استثنائيًا على حياة الناس يتخذ عادة أحد شكلين:

إما الشكل الإداري بإعلان حالة الطوارئ لمدة محدودة أو دائمة، تتكيف معها حياة الناس، حيث يصبح العمل بالقانون هو الاستثناء، وتتسع نطاقات ما يُعرف بـ "الكلّ الأمني" الذي يقدم الواجبات على الحقوق. الخ

وإما الشكل الاستخباراتي بتقديم الحلّ الأمني على الاقتصادي والاجتماعي وقطع الحوار.. واستنفار المواطنين لليقظة والتحسيس، وإعادة جدولة الأولويات بما يجعل مكافحة التطرف والإرهاب أولوية وطنية تسخر لها الدولة كلّ الإمكانيات وتعبئ لها جميع الطاقات في مسمى "التعبئة العامة" أو النفير العامّ لمواجهة هذا الخطر الداهم المهدد لسلامة الأشخاص والممتلكات، وسلب الناس أمنهم نفسيًا وسياسيًا واجتماعيًا.

وإذا كانت حالة التعبئة العامة تمثل أعلى درجة من درجات التحسيس واليقظة مقارنة بحالة الطوارئ في مجال التشريع، إلا أن بعض الأنظمة تلجأ إليها حتى لا تعطل العمل بالدستور، وفي الوقت نفسه تهيئ مواطنيها لقبول سياسة

الأمر الواقع لإعادة تكييف عملي لعلاقة الحق بالواجب، بمنطق حقّ القوّة الذي يفرض هذا الوضع الطارئ من منطلق أن الحقّ العامّ وألوية وطنية وأن فرض السيادة الوطنية مقدّم على حقوق الأفراد والحريّات الخاصة، فتكون الآثار الناجمة عن هذه الوضعية عديدة ومتنوّعة وذات انعكاسات سلبية على الواقع برمّته.

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى بعض هذه الآثار المتعدّية للدلالة على المخاطر الجسيمة التي يشكّلها التطرف على الحقوق والواجبات، بل على مقاصد الشريعة الإسلامية نفسها، حيث يصبح الحديث عن حفظ النفس، والدين، والعرض، والعقل، والمال، وصيانة الحريّات الفردية والجماعية حديثاً استثنائياً يسبقه الحديث عن حقّ واحد، هو: الحقّ في الحياة (أي حفظ النفس من التهديدات الإرهابية)، فمع تفاقم موجة العنف والإرهاب تصبح حياة الناس جميعاً خاضعة لوضع استثنائي.

فالحريّات كلّها يتمّ تقييدها، وتتعلّط معها حركة التنقّل للأشخاص والبضائع والأموال والخدمات، وتصبح الرقابة الإدارية والقضائية والأمنية الصارمة قيوداً إضافية على الحقوق السياسية والمدنية وعلى الحريّات العامّة.

تضطرب سوق السلع والخدمات والشغل بسبب تباطؤ الدورة الاقتصادية والتنموية وكساد التجارة وهروب رؤوس الأموال وفساد مناخ الشراكة والأعمال وتتعلّط المشاريع الكبرى نتيجة خوف "رأس المال" من المجازفة تحت تهديدات الإرهاب الذي إذا نجح في تنفيذ تهديد واحد بقتل نفس واحدة يكون قد نجح في زرع الرعب في المجتمع كلّ، لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا - المائدة: ٣٢﴾، قتلاً معنوياً بشلّ حركتهم في الحياة وتعطيل أسباب العيش.

تشويه صورة البلد الذي يكثر فيه الحديث عن العنف والإرهاب، أو تُنفذ فيه عمليات إرهابية، مهما كانت طبيعتها، فتقلّ حركة الملاحة الجوية والبحرية باتجاهه، ويتناقص عدد السّيّاح، ويتمّ إدراجه على سلّم التصنيفات الدولية على أنه بلد مخاطر، وتجتهد الدول المدافعة ظاهرياً عن حقوق الإنسان والحريّات

بتحذير رعاياها من احتمالات عمليات إرهابية. الخ، فينهار اقتصادها وتتفاقم مشكلاتها الاجتماعية والسياسية والتنموية، ويصبح بلدًا مهددًا بالتفكك.

من التوصيات والمقترحات:

أن تتناول المدارس والجامعات والمعاهد في مناهجها الدراسية وأنشطتها موضوعات لمشكلات معاصرة كالتطرف لتبين خطره على الفرد والمجتمع وكيفية تفاديه حفظًا لأرواح المواطنين والمواطنات.

ولا يفوتني أن أؤكد أهمية دور وسائل الإعلام من حُسن انتقاء إعلاميين مؤثرين بشكلٍ إيجابي في المجتمع ليطرحوا لأفراد المجتمع برامج معاصرة تفيدهم، وتكثيف توعية وتثقيف أفراد المجتمع بالمنهج المعتدل الذي جاءت به الشريعة الإسلامية.

البحث الخامس



المخدرات واثرها في تفكيك النسيج المجتمعي



فضيلة الشيخ الدكتور حامد الحياتي
القاء نيابة عنه فضيلة الشيخ عبد الله الحنفي
عضو جمعية رابطة العلماء في العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه

السادة الحضور الكرام، مركز البلاغي في دار العلم للإمام الخوئي، مشايخنا
وأساتذتنا وعلى رأسهم فضيلة شيخنا وأستاذنا العلامة حامد عبد العزيز الشيخ
حمد، والمنظمين لهذا المؤتمر الكريم السلام عليكم ورحمة الله ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أزال الضلالة بنور باهر شرعته، وأسند نظام الملة بقوي
سلطان حجته، فوهب العقل للإنسان، وعلمه البيان، وفضله على كثير ممن خلق
تفضيلاً، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، الذي بعثه الله وأمواج الغي تتلاطم
أفواجها، وأمراض القلوب في تمحص فجاجها، فجاء بالنظام المستقيم والفضل
العميم، فسلمت العقول لجميل صنيعه أزمته، وقلدته قدوة عصمتها، فكان أول
ما دعا إليه وعمل بالجهد الجهد عليه أن ترتقي الإنسانية إلى الرتبة العلية التي
أرادها الله تعالى في سابق علمه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا -
الإسراء: ٧٠﴾، فسعد من سعد بعقله، وشقي من شقي بجهله، فعمدت الشريعة

الغراء إلى تأسيس النظام المتكامل للفرد المسلم الذي يحفظ عليه عقله الذي هو أساس رقيّه وتطوّره فكانت ضرورة حفظ العقل، فبه تتم الاستقامة للبشرية وبه يتغلب الإنسان على حضيض الشهوات النفسانية والاعوجاجات الشيطانية، فقال مولانا عزّ مجده: ﴿وَاللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا - النساء: ٢٧﴾، فالحقّ تبارك وتعالى أراد الفلاح للإنسانية بكلّ صنوفها، فهو الذي جعل هذا الإنسان موكلاً بعمارة الأرض ونشر قيم السماء فيها، فقال عزّ من قال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا - هود: ٦١﴾، قال علماؤنا: أي طلب منكم عمارتها، ولا يزال أعداء الإنسانية يهدفون إلى تقويض النظام الالهي، بل يعملون على تقويض القدرات المجتمعية لتحويلها إلى مجموعات غائبة عن الوعي مستغرقة في الشهوات والصراعات النفسية تارة بإثارة النعرات العنصرية وتارة بمحاربة المصلحين والداعين إلى الخير، وهذا ديدنهم الذي أخبرنا الله تعالى عنه فقال: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا - النساء: ٢٧﴾، هذا الميل إنما يتحقّق بغياب الوعي الفردي والمجتمعي والمؤسّساتي، فعمدوا إلى السيطرة على العقول من خلال نقلها من الواقع العلمي إلى الواقع الافتراضي، فأصبح العالم اليوم منتقلاً من الحقيقة إلى المجاز، فهو يعيش بوهم المادّية الصرفة التي تسلخه من قيمه ومبادئه ثم تعوّض الجانب الروحي فيه إلى ضياع في الهوية، ومن أخطر ما تواجهه مجتمعاتنا ظاهرة الإدمان التي تعدّدت صورها حتى أفسدت على الناس أديانهم ومعايشهم وأسرهم، ومن الخطورة العظمى أنهم استهدفوا طبقات المجتمع على اختلاف صنوفهم في شيوع المخدّرات التي تُغيّب الفرد وتجعله عبداً لشهواته ونزواته، والأخطر أن تجعله تحت سيطرة أعداء الإنسانية.

وهذا ليس تصوّراً نسبياً بل مصداق تعيشه شعوبنا المسلمة في غفلة من عدم الإلمام من قبل صنّاع القرار بخطورة المخدّرات على أمن ونظام أيّ بلد تنتشر فيه هذه الظاهرة التي تستهدف جميع أفراد المجتمع سواء المتعاطي أم الفرد السليم الذي يعيش في خطر وجود هذه الأصناف، وكما أن الإسلام الحنيف عدّ المخدّرات من المحرّمات المجزوم بحرمتها اتّفاقاً وأوجد سبل العلاج، وأوجب بالوجوب الفرضي تحمّل الفرد المسلم والمؤسّسات الإسلامية والأنظمة والحكومات

مسؤوليتهم العليا في المحافظة على المجتمع من هذه الآفة الفتاكة التي لا تُبقي ولا تذر، فهي التي تُعيب الإنسان عن وعيه فيكون الفرد المدمن بهذه المخدرات قاتلاً وسارقاً ومجرماً ومتطرفاً ومُلحدًا بل يكون خائناً لوطنه وخطراً على مجتمعه، إذ إنه أسيرٌ لهذه العقاقير ومن يوردها إليه، فيُستغلّ من الجماعات المنحرفة والمتطرفة، وبهذه الطريقة تُضرب المجتمعات في فكرها وحضارتها واقتصادها ونظام أمنها.

ومن أنواع المخدرات الغائبة عن الرقابة والتي لا يفقه فيها كثير من المؤسسات هي المخدرات الرقمية التي بدأ أعداء الإنسانية بالترويج لها بين فئات المجتمع، ولها الفعل والانفعال نفسه الذي تنتجه العقاقير المخدرة، وهنا يأتي الدور الرقابي للمصلحين في مختلف مواقعهم في العمل على محاربة هذه الكارثة التي لا نبالغ إذا قلنا إنها أساس كلِّ فساد في المجتمع، ولذا فإن الشريعة بيّنت ضرورة المسؤولية الشاملة العامة المنوطة بالجميع، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: "كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته"، فتعدّد أدوار المسؤولية لا يعفي أحداً من دوره الريادي المنوط به للتوعية والإرشاد واحتواء الشاب وتوفير الحياة الكريمة له، إذ إننا حيث شخّصنا المرض لا بدّ من تحديد أسباب الإصابة به للحفظ والوقاية وتوفير سبل العلاج والخلاص منه.

فنقول إن من أوضح أسباب تفشّي هذه الظاهرة وخصوصاً بين فئة الشباب ضياع الهدف وتجهيل المجتمع وإفقاره، فالشابُّ وُجد ليصنع المستقبل وليكون رائداً في مجتمعه، وما يعانيه شبابنا اليوم من انعدام فرص العمل والبطالة وضعف التعليم وقلة الثقافة والعوز المادّي وزجّهم بالأمر التي لا غاية منها ولا طائل والتفكك الأسري وضعف التوجيه الديني والتوعوي والاجتماعي هو السبب الواضح الجليّ الذي يسقطه في الضلال والانجراف مع هذه التيارات المنحرفة التي تصنع منه عنصراً هداماً في المجتمع.

لذا فإن جمعية رابطة العلماء في العراق ترى من الواجب على جميع المؤسسات الحكومية والدينية والخيرية أن تعمل بجدّ على معالجة المشاكل المجتمعية، وإيجاد اللجان المتخصصة بالتوعية والنشر والثقافة، كما لا يخفى دور الأسرة والملاك التعليمي ورجال الدين الذي له بالغ الأهمية في سبل التوعية العامة

والعمل المشترك للأخذ بيد المجتمع إلى ما يرضي الله ورسوله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحقق الأمن المجتمعي، وهو الذي في الأساس من الواجبات الدينية والأخلاقية علينا جميعًا.

نسأل الله تعالى لهذا البلد الطيب وشعبه الكريم المعطاء العناية والتألق ليكون رائد الحضارات الإنسانية دومًا كما هو في الواقع، وقد دعا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر وشيخ الإسلام فضيلة مولانا رئيس جمعية رابطة العلماء في العراق الأستاذ العلامة الدكتور حامد عبد العزيز الشيخ حمد إلى مراعاة الجوانب الشبابية والفكرية، وإلى النظر في تربية وسبل إنجاحها للأجيال القادمة، فكان من توصياته حفظه الله وأدامه، العمل بمقتضى لجان تدعو إلى الوحدة وعدم التطرف ومحاربة صنوف الأشكال المؤذية للمجتمع، وإن شاء الله تعالى أخذت جمعية رابطة العلماء في العراق على عاتقها تشكيل لجانٍ للعمل على المستويات الإصلاحية في الجامعات والمدارس والمؤسسات وإنشاء الورش العلمية والثقافية والتحضيرية على أرضها وفي مراكزها هذا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعموم أمته أجمعين وجزاكم الله خيرًا.

البحث السادس



أزمة المخدرات وأثارها المجتمعية



الدكتور نائر الشمري

أستاذ في كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، فطر عباده على توحيده ومعرفته، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار، ومن نهج نهجهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين والقرار.

أما بعد...

فتعدّ إشكالية تعاطي المخدّرات والإدمان عليها من أخطر الإشكاليات التي تعاني منها المجتمعات المتقدّمة المعاصرة منها والمتخلّفة على السواء، وذلك لأنها تُعدّ مصدر قلق وتهديد لاستقرارها وسلامة أمنها نتيجة الآثار السلبية التي تترتب عن أخذها سواء بالنسبة للمدمن أو المتعاطي أو بالنسبة للمجتمع واقتصاده ونسيجه الاجتماعي.

يُشار إلى أن ظاهرة تعاطي المخدّرات في الوقت الحاضر أصبحت أكثر انتشاراً مما كانت عليه في الماضي، والأخطر أنها أثّرت في شرائح اجتماعية مختلفة؛ إذ لم يتوقّف ضررها عند حدود التأثير في الجهاز العصبي للفرد بل تعدّى للنفس والجسم وعلاقاته بالآخرين ومكانته الاجتماعية.

المطلب الأول: التعريف بعنوان البحث

أولاً: الأزمة والألغاز ذات الصلة

يُعدّ مفهوم الأزمة من المفاهيم التي يصعب تحديدها، وتكمن الصعوبة في تعريف مفهوم الأزمة بطبيعتها الشاملة ونطاق استخدامها الواسع ليشمل مختلف أشكال العلاقات الإنسانية السلبية عادة في جميع مجالات التعامل وعلى قدر مستوياته، وعادة ما ترتبط الأزمة بالإحساس بالخطر والتوتر وأهمية عامل الوقت اللازم لاتخاذ قرارات وإجراءات المواجهة.

الأزمة لغة: وتعني في اللغة العربية: القحط والشدة، وأزم عن الشيء أي أمسك عنه، والأزمة الحمية، والمأزم هو المضيق^(١).

ويمكن تعريف الأزمة اصطلاحاً بأنها: حالة خارجة عن السيطرة، وتحوّل مفاجئ عن السلوك المعتاد يؤدي إلى اضطراب المصالح وتهديدها، ويؤثر في النظام العام للمجتمع، ومواجهة هذا الموقف تتطلب اتخاذ قرار محدد وسريع في ظلّ المعلومات المحدودة، والمفاجأة، وضيق الوقت المرتبط بالتهديد^(٢).

أو أنها حادث خطير يؤثر في أمن الإنسان أو البيئة أو سمعة المؤسسة، ويؤدي إلى سير العمل على عكس ما هو مخطّط له^(٣).

وتُعرّف الأزمة بأنها تهديد خطير أو غير متوقّع لأهداف وقيم ومعتقدات وممتلكات الأفراد والدول، مما يحدّ من عملية صنع القرار^(٤).

الهدف من تقديم المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بمفهوم الأزمة يكمن في حقيقة أن الخلط وعدم التمييز بين هذه المصطلحات يؤدي إلى ضبابية الرؤية وإدراك الحدود التي تفصل بينها، مما يؤثر في الفهم الصحيح والواضح لطبيعة

(١) ينظر: مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط ٥ / ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ١٧ / باب (أزم).

(٢) ينظر: استراتيجية التعامل مع الأزمات والكوارث: رجب عبد الحميد، دار أبو المجد للطباعة، ٢٠٠٨م، ص ٧٠.

(٣) ينظر: إدارة الأزمات: محمد نصر مهنا، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٤م، ص ٢٤٣.

(٤) ينظر: الإعلام وإدارة الأزمات: عبد الرزاق محمد الدليمي، ط ١، عمان، دار المسيرة، ٢٠١٢م، ص ٩١.

الأزمة والتي من شأنها أن تؤثر في فهم العلاقة بين مفهوم الأزمة وبعض المتغيرات الأخرى، لذلك أدرج الباحث في هذا المطلب بعض المصطلحات القريبة من مفهوم الأزمة، وهي كالتالي:

١- **الكارثة:** حدث مرّوع يصيب شريحة من المجتمع أو المجتمع بأسره بمخاطر جسيمة وخسائر مادية وبشرية، ويؤدي إلى ارتباك وتعطيل وعجز في التنظيمات الاجتماعية عن الاستعداد السريع للمواجهة، وتعمّ الفوضى في الأداء وتضارب الأدوار على مختلف المستويات^(١).

٢- **الصراع:** إن مفهوم الصراع قريب من مفهوم الأزمة، ويجسد إرادتين تتعارض مصلحتهما، لكن تأثير الصراع قد لا يصل إلى مستوى تأثير الأزمة التي قد تصل إلى نقطة الدمار، ويمكن أن يحدّد الصراع أبعاده واتجاهاته وأطرافه وأهدافه التي يستحيل تحديدها في الأزمة^(٢).

٣- **الخلاف:** الأزمة هي حالة أكثر تعقيداً أو شمولية وأعمق من الخلاف المحدّد حول قضية معيّنة، وهناك احتمال أن يتحوّل النزاع إلى أزمة إذا لم يتمّ تنفيذ عملية تحديده واحتوائه^(٣).

ثانياً: المخدرات لغة واصطلاحاً

المخدرات: جمع مخدّر، وهو مأخوذ من الخدر، أي الضعف، والكسل، واللامبالاة، والاسترخاء، فيقال: تخدّر العضو إذا استرخى فلا يطبق الحركة أي فتر^(٤).

(١) ينظر: سيكولوجية إدارة الأزمات: عبد الوهاب محمّد كامل، دار الفكر لطباعة والنشر، عمان ٢٠٠١، ص/ ٢١.

(٢) ينظر: إدارة الأزمات: عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للنشر، القاهرة، ١٩٩٣، ص / ٧٨.

(٣) ينظر: الإعلام والأزمات: أديب خضور، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، ط(١)، الرياض ١٩٩٩، ص / ٨.

(٤) ينظر: لسان العرب، محمّد بن مكرم بن عليّ، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، ط/ ٣، ١٤١٤ هـ، ٤ / ٢٣٠، مادة (خدر)، وينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الرّبيدي (ت: ١٢٠٥ هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ١١ / ١٤٠، مادة (خدر).

والمخدر اسم فاعل من خدر، ومصدره التخدير، ولفظة "خدر" لها معانٍ متعدّدة، فهي تُطلق على الفتر والكسل الذي يعتري الشارب في ابتداء سكره، وعلى الستر الذي يُمدّ للجارية في ناحية البيت، وعلى فتور العين وثقلها من قذى ونحوه^(١).

ومن هذا أن أهل اللغة يطلقون هذه المادّة وما أُشتقّ منها على كلّ من الفتر والكسل وعلى الستر، وقالوا إن منها فتور العين وثقلها من قذى ونحو ذلك.

المخدرات في عرف الاصطلاح:

"هي ما غيب العقل والحواسّ دون أن يصحب ذلك نشوة أو سرور"^(٢)، وعرفها ابن حجر الهيتمي^(٣) فقال: "ما يترتب عليه تغطية العقل لا مع الشدّة المطربة"^(٤).

المطلب الثاني: حكم المخدرات في الشريعة الإسلامية

حرّمت الشريعة الإسلامية تعاطي المخدرات بأيّ شكل من الأشكال، سواء عن طريق الأكل أو التدخين أو الاستنشاق أو الشرب أو الحقن، لأنها مفسدة، ودرء المفسد من المقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية، وقد اعتمد فقهاء الشريعة الإسلامية على عدّة أدلّة مستمدّة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

(١) ينظر: مختار الصحاح: ص / ٨٨ ، مادّة (خدر) ، وينظر: لسان العرب ، ٤ / ٢٣٠ ، مادّة (خدر) ، وينظر: القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ) ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف: محمّد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان ، ط / ٨ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م ، ص / ٣٨٣ ، مادّة (الجدر).

(٢) الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت: ٦٨٤هـ) ، عالم الكتب ، (د - ت) ، ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥.

(٣) هو أحمد بن حجر الهيتمي وعند البعض الهيتمي السعدي الأنصاري شهاب الدين أبو العباس، وُلد في محلّة أبي الهيتم بمصر- ونشأ وتعلّم بها، فقيه شافعي مشارك في أنواع من العلوم تلقّى العلم بالأزهر وانتقل إلى مكّة من تصانيفه "تحفة المحتاج شرح المنهاج" تُوفّي رحمه الله سنة ٩٧٣هـ. يُنظر: الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمّد بن عليّ بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦ هـ) ، دار العلم للملايين ، ط / ١٥ ، ٢٠٠٢ م ، ١ / ٢٢٣.

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر: أحمد بن محمّد بن عليّ بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (ت: ٩٧٤هـ) ، دار الفكر، ط / ١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ١ / ٤٦٨.

والإجماع التي ورد فيها تحريم المخدّر بصفته العامّة على أساس أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يحتويان على قواعد عامّة وشاملة توضّح لنا منهج الإسلام في الحلال والحرام.

أولاً في القرآن الكريم:

ورد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ - الْأَعْرَافُ ١٥٧﴾.

في هذه الآية الكريمة قاعدة عامّة يجوز فيها إباحة الطيبات وتحريم ما هو خبيث، والمخدّرات بجميع أنواعها تُعدّ من الخبائث، وإذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد وصف الخمر بأنها أمّ الخبائث، فإن هذا الوصف ينطبق من باب أولى على المخدّرات؛ لأنها أشدّ ضرراً من الخمر، فتكون محرّمة بدلالة النصوص، والتي استمدّت منها القاعدة الشرعية التي تُعدّ من أهمّ القواعد التشريعية في الإسلام، وهي "دفع المضارّ وسدّ ذرائع الفساد"^(١).

ثانياً: السنة:

احتجّ الفقهاء على تحريم المخدّرات بأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام))^(٢).

(١) ينظر: مكافحة جرائم المخدّرات في النظام الإسلامي وتطبيقه في المملكة العربية السعودية الرياض: خلود ساهي آل معجون، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، ص/ ٥٠.
(٢) سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شدّاد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت: ٢٧٥ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمّد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط / ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ك / الأثرية، ب / النهي عن المسكر، ٥ / ٥٢٣، حديث (٣٦٨١)، حكم المحدث ابن حجر العسقلاني: إسناده صحيح على شرط مسلم، فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن عليّ بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمّد فؤاد عبد الباقي ٤٣ / ١٠.

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - أنها قالت: نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كل مسكر ومفتّر^(١)، والمفتّر بتشديد التاء، من فتره، فالمفتّر: كل ما يورث الفتور والانكسار والضعف والخمول واسترخاء الجسم ورجفة الأطراف^(٢).

فالمخدرات تورث الفتور، والنهي عن المفتّر نهى عن المخدر، والنهي عن تناول الشيء يدلّ على تحريمه، فيكون تناول المخدرات حراماً؛ إذ إن القاعدة عند المحدّثين والأصوليين أنه إذا ورد النهي عن شيئين مقترنين ثم نُصَّ على حكم النهي عن أحدهما من حرمة أو غيرها - أُعطي الآخر ذلك الحكم بدليل اقترانهما في الذكر والنهي، وفي الحديث المذكور ذكر المفتّر مقروناً بالمسكر، وتقرّر عندنا تحريم المسكر بالكتاب والسنة والإجماع، فيجب أن يُعطى المفتّر حكمه بقريته النهي عنهما مقترنين^(٣).

المطلب الثالث: الآثار الاجتماعية

من أهم الأضرار الناتجة عن تعاطي المخدرات الأضرار الاجتماعية التي تؤثر في الفرد والمجتمع على حدّ سواء.

أثر المخدرات في الفرد والمجتمع

يُعدّ تعاطي المخدرات مرضاً اجتماعياً، يذلّ الفرد ويدمره، ويؤثر في نفسيّته، وينعكس على شخصيّته، فيمحو منه التعفّف، ويدفعه إلى الرذيلة، ويقتاد الشخص إلى البلادة واللامبالاة مما يفقده الاستشعار بالمسؤوليّة، ويبعده عن

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١ هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ / ١ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ك / مسند النساء ، ب / حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ٤٤ / ٢٤٦ ، حديث (٢٦٦٣٤) ، حكم المحدّث حديث صحيح لغيره.

(٢) ينظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمّى بـ (الكاشف عن حقائق السنن): شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ) تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكّة المكرمة - الرياض ، ط١ / ١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ، ٨ / ٢٥٥٤.

(٣) ينظر: بحث أثر المخدرات في تدهور الشعوب: عبدالقادر شيبية الحمد ، المؤتمر الإقليمي السادس للمخدرات، ١٩٧٤م، ٣ / ٦٣.

واقع الحياة، يبدو دائماً ضعيف القوى، دائم الجلوس قليل الحركة، لا يقوى على العمل، ولا يعرف معنى الكفاح، ينتهي به الأمر إلى الإقامة بأحد المستشفيات لعلاج مرض عضوي مزمن، لا شفاء منه، أو بمستشفى الأمراض العقلية إلى أن تنتهي حياته^(١).

تشير غالبية الدراسات والبحوث التي أُجريت على كافة أنواع المخدرات وفي مختلف المجتمعات أن تعاطي المخدرات له آثار سلبية على الفرد وفي علاقته مع غيره من الأفراد في المجتمع، وعلى إنتاجيته سواء أكان طالبا أم عاملاً، لما يطرأ عليه من تغييرات نتيجة مباشرته التعاطي^(٢).

الآثار الاجتماعية للمخدرات في الفرد

المخدرات تؤدي إلى نتائج سيئة على الفرد سواء في عمله أو إرادته أو وضعه الاجتماعي وثقة الناس به، تجعله شخصاً كسولاً ذا تفكير سطحي يتجاهل أداء واجباته، ولا يبالي بمسؤولياته، وينفعل بسرعة ولأسباب تافهة، وذا أمزجة منحرفة في تعامله مع الناس^(٣).

يؤدي تعاطي المخدرات إلى ضعف مستوى أخلاق متعاطيها، فيؤدي بهم إلى حب الذات، وعدم الشعور بالمسؤولية، والتقصير بالواجب، وضعف الإرادة، وإهمال الواجبات الأسرية، والتنكر لمبادئ الأمانة والشرف^(٤).

يسبب الإدمان على المخدرات للمدمن نقائص وعاهات جسيمة، وخلقية، وعقلية، تنتقل غالباً إلى ذريته، فالإدمان له أثر في سعادة الفرد والأسرة، وكذلك له ارتباط وثيق بالإجرام، فجريمة ما قد تكون نتيجة لتهيج حادث من تعاطي

(١) ينظر: الإدمان خطر يهدد الأمن الاجتماعي، محمد سلامة غباري، دار الوفاء، ط / ١، ٢٠٠٧م، ص / ١٥٦.

(٢) ينظر: الآثار الاجتماعية لتعاطي المخدرات: أحمد عبد اللطيف، المركز العربي للدراسات الأمنية، الرياض ١٩٩٢، ص ٦٨.

(٣) ينظر: السياسة الجنائية لمكافحة ترويج المخدرات في نظم دول مجلس التعاون الخليجي: أحمد بن عبد الرحمن بن علي، (الهدية دراسة تأصيلية تحليلية تطبيقية مقارنة). رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨، ص / ٨٦، نقلاً عن مجلة الباحث للعلوم الرياضية والاجتماعية، جامعة الجلفة، المجلد / ٤، العدد / ٨، ص / ٢٤٦.

(٤) ينظر: الإدمان على المخدرات الإرشاد والعلاج النفسي: محمد أحمد مشاقبة، دار الشروق، عمان، ط / ١، ٢٠٠٧م، ص ٣٧.

المخدّرات أو اضطراب عقلي متسبّب عن الإدمان المزمن، أو حادث من حالة الفقر التي سبّبها الإدمان أو للرغبة في الحصول على المخدّر بطريق غير مشروع^(١).

إن متعاطي المخدّرات يقدّمون المثل السيئ لأفراد أسرهم فهم غالباً ما ينساقون وراء غرائزهم ونزواتهم الأولية التي تحكمها الإرادة أو الظروف العاديّة، وذلك لانعدام قدرتهم على السيطرة عليها وعلى الدوافع الكامنة في أنفسهم.

يمنح المنشط أو المهلوس جرأة غير طبيعية تدفعه إلى التهجّم على من هو أكبر منه سنّاً ومقاماً وإهانته إهانة بالغة^(٢).

الآثار الاجتماعية للمخدّرات في المجتمع

إن تعاطي المخدّرات وإدمانها يمثّل مشكلةً اجتماعية خطيرة باتت تهدّد أمن المجتمع وسلامته، بل أصبحت خطراً داهماً يجتاح الإنسانية جمعاء، وتنعكس آثارها على المجتمع من مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحيّة.

ويمكن تحديد الآثار الاجتماعية للمخدّرات في المجتمع في المسائل التالية:

انتشار الجريمة والانحراف: - يُعدّ إدمان المخدّرات من الموضوعات التي ترتبط بالسلوك الإجرامي، وذلك من ناحيتين، الناحية الأولى، أنه جريمة في حدّ ذاته يعاقب عليها القانون، ومن ناحيةٍ أخرى أوضح عددٌ لا بأس به من البحوث والإحصاءات أن هناك علاقة بين تعاطي المخدّرات والأفعال التي يجرمها القانون، كجرائم القتل والاعتصاب والسرقه والتشردّ والزنى واللواط وكافة الممارسات

(١) المصدر نفسه ، ص / ٣٨.

(٢) ينظر: مشكلة تعاطي الموادّ النفسية المخدّرة: مختار صفوت وافيّ، دار العلم والثقافة ، القاهرة ، ط/١،

٢٠٠٥ م، ص/١٠٦.

الجنسية من الاعتداء على المحارم، وبذلك يمكن القول إن الجرائم الناجمة عن المخدرات هي جرائم مرگبة تُنشئ مضاعفات إجرامية خطيرة على المجتمع^(١).

إن انعدام دخل المتعاطي نتيجةً لبطالته وعجزه عن سدّ احتياجاته، نتيجته الحتمية لذلك أن يتعرّض المتعاطي لارتكاب الجريمة في بعض أشكالها وصورها كالنصب أو الاحتيال أو خيانة الأمانة، وفي هذه الحالة من الضروري أن يتعرّض أصحابها للتدهور الخُلقي، والاجتماعي، والتفكك الأسري، كالزنى، والطلاق، وتعدّد الزوجات، وإهمال الأبناء، وتعاطي المزيد من الموادّ النفسية الأخرى كالكحوليات^(٢).

الانحدار الخُلقي والاجتماعي: - بالرغم من أن المخدّر يُعدّ نتيجةً للتدهور الأخلاقي، إلا أنه في الوقت نفسه يُعدّ سببًا لهذا التدهور في القيم، وذلك نتيجة لعدم القبول الاجتماعي للمتعايطي كسلوكٍ غير محترم في بعض الأوساط الاجتماعية، فالمتعاطي يُضطرّ إلى ارتياد الأماكن والأوساط السيئة حتى يتوقّر له المخدّر، ومن ثم يحتفظ بذوي السلوك السيئ والسيرة الشائبة^(٣).

العداوة والبغضاء بين الناس: - إن تعاطي المخدّرات يُعدّ سببًا مباشرًا لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس حتى الأصدقاء منهم، لأن المدمن حينما يسكر ويفقد العقل الذي يمنع من الأقوال والأفعال التي تسيء إلى الناس، يستولي عليه حبّ الفخر الكاذب والكبر، ويسرع إليه الغضبُ بالباطل مما يدفع إلى ألوانٍ من البغضاء والعداوة بين المتعاطي وعمامة الناس، فينشأ القتلُ وإفشاء الأسرار وهتك الأعراض، وهذه أسقامٌ اجتماعية تؤذي المجتمع وتورده شرّ مورد^(٤).

اعتلال صحّة المتعاطي: - إن اعتلال صحّة المتعاطي الناجم عن المخدّرات يؤثّر في المجتمع؛ لأن الفرد ليس بمعزلٍ عن مجتمعه، بل هو جزءٌ منه يؤثّر فيه

(١) ينظر: إدمان المخدّرات رؤية علمية واجتماعية: محمّد هلال ناجي، دار المعارف القاهرة، ١٩٩٩م، ص/٩١.

(٢) ينظر: مشكلة تعاطي الموادّ النفسية المخدّرة: مختار صفوت وفيق، دار العلم والثقافة، القاهرة، ط/١، ٢٠٠٥م، ص/١٣٥.

(٣) ينظر: الإدمان أسبابه ونتائجه وعلاجه دراسة ميدانية، محمّد سلامة غباري، المكتب الجامعي، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص/٧٥.

(٤) ينظر: أثر المخدّرات على الواقع الفلسطيني في حدوث الجريمة، دراسة في جغرافية الجريمة: ميساء كمال: بحث مقدّم ضمن مساق جغرافية الجريمة، فلسطين، ٢٠١٠م، ص/٢٨.

ويتأثر به؛ إذ إن تعاطي المخدرات والحشيش يؤدي إلى سيادة الأمراض الاجتماعية في المجتمعات، مثل السلبية، والتواكل، والانتهازية وتعطيل أمور الناس في الدوائر العامة والخاصة، وهذا من شأنه أن يؤثر في تقدم المجتمع ونموه^(١).

زيادة حوادث المرور: - يُعدّ تعاطي المخدرات وإدمانها من الأسباب الرئيسة في زيادة معدلات حوادث المرور، وبالتالي في زيادة عدد الوفيات والإصابات البليغة أو العائقة في المجتمع، مما يتسبب في تكاليف مادية باهظة وخسائر اجتماعية واقتصادية كبيرة قد يكون المجتمع غير قادر على تحملها^(٢).

المطلب الرابع: الآثار النفسية

أثبتت الدراسات العلمية أن التعاطي للمخدرات له الأثر النفسي السلبي، فقد درس د. هارولد فوت المنحى النفسي لمدمن الحشيشة، وخرج بالتوصيف التالي لشخصية الحشاش: "أنه صاحب ذاكرة ضعيفة، يميل إلى السطحية في عواطفه، كما يميل إلى العدمية والتخلي عن صعيد الارتباطات، وقد يبدأ بالتخلي عن هواياته الرياضية، ثم التخلي عن المدرسة والعمل، وأخيرًا يتخلى عن العائلة"^(٣).

ومن الأضرار النفسية للمخدرات انعدام المحبة والألفة بين المدمن ومجتمعه، وبينه وبين أفراد أسرته، فهم ينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار، وهو ينظر إليهم نظرة عدا وانتقام، وبالتالي يدب الشقاق وتحدث الفرقة بينهم، وهذا من أخطر الأمراض التي تهدد كيان المجتمع بأسره.

والمدمن ينتج عنده ما يُسمى "جنون الاضطهاد" فيتوهم أن الناس يحيكون له المؤامرات ويدبرون لقتله أو الانتقام منه، ويتعاضم هذا الشعور ليصل به إلى

(١) ينظر: الأسباب والآثار الاجتماعية للمخدرات، حويبي أحمد، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد السابع، ٢٠١٢م، ص/٣٥.

(٢) ينظر: الأسباب والآثار الاجتماعية للمخدرات، حويبي أحمد، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد السابع، ٢٠١٢م، ص/٣٥.

(٣) ينظر: الإدمان وعلاجه: عبدالرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١/، ١٩٩٣م، ص/ ٦٥

التفكير في كيفية التخلص من الأعداء المزعومين، وهذا التوهّم يكون دافعًا من دوافع الجريمة^(١).

لقد أجملت بعض الدراسات الآثار النفسية للإدمان في الأمور التالية:

- ١- اضطرابات الهلوسة والهاء.
- ٢- اليأس والحزن الشديد.
- ٣- صعوبة التفكير.
- ٤- كساد في القوى الحيوية والحركية، وهبوط في النشاط الوظيفي.
- ٥- قلة النوم.
- ٦- الخوف.
- ٧- الأفكار السوداوية والاكتئاب الشديد.
- ٨- الانفعال والانسحاب من المجتمع.
- ٩- اضطراب الشخصية الفصامية.
- ١٠- فرط العاطفة.

أما تفصيلاً، فإن سوء استعمال المخدّر يؤدّي إلى تغيّرات أساسية في الشخصية إذ يجعل الإنسان قابلاً للأمراض النفسية، وهناك آثار حادة من الاعتياد على الحشيش، من أهمّها القلق والهلع والبارانويا، خاصّة بالنسبة للمتعاطين المحدثين، والوهن الإدراكي وخاصّة بالنسبة للتركيز والذاكرة وضعف الآلية النفسية وتأخّر ردود الأفعال مما يترتّب عليه مخاطر حوادث الطرق والسيّارات^(٢).

(١) ينظر: الإدمان، أنواعه، مراحل، علاجه: جواد فطاير، دار الأندلس، القاهرة - بيروت، ط/١، ١٩٨٨، ص / ٩٥.

(٢) ينظر: المخدّرات والمؤثرات العقلية: أسباب التعاطي وأساليب المواجهة، د. عبد الإله بن عبد الله المشرف، د. رياض بن علي الجوادي، الرياض، ط/١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص / ٥٦ - ٥٧.

الخاتمة

بشكل عام، يمكن أن نستنتج حجم الضرر الذي يمكن أن يلحق بالأمن القومي والاقتصاد الوطني نتيجة مباشرة لتعاطي المخدرات في ظل انتشار هذه السموم على نطاق واسع بين مختلف طبقات المجتمع وفئاته، وخاصة بين الشباب الأكثر قدرة على الإنتاج والعطاء، والمخدرات بلاء اجتماعي خطير، ومن ثم هذه اقتراحات عامة يمكن تلخيصها على النحو التالي:

١- هناك اتفاق عام على تعريف المخدرات بأنها تلك التي تخدر الإنسان وتفقد وعيه ويجب محاربتها.

٢- سوء فهم التعاليم الدينية ونقص التوجيه الديني هو أحد أسباب تعاطي المخدرات.

٣- أظهرت معظم الدراسات أن الرفقاء السيئين هم أول من يدفع الأفراد إلى تعاطي المخدرات ويجب أن يُؤخذوا في الاعتبار.

٤- تؤكد الحقائق العلمية أن تعاطي المخدرات يسهم في تعطيل تدفق الدم إلى المناطق التناسلية، وزيادة كبيرة في حالات الضعف الجنسي المبكر، وضعف الحيوانات المنوية مما يؤدي إلى العقم، ويجب مراعاة صحة الفرد.

٥- الدور السلبي للإعلام في عرض بعض الأفلام والمسلسلات والبرامج التلفزيونية التي تتسم بالعنف والإثارة، مما يترك أثرًا سلبيًا في المشاهدين، وخاصة الأطفال والمراهقين، ليدخلوا في دائرة التعاطي.

٦- إن الأسلوب غير التربوي للمعلمين وقساوتهم في معظم الحالات يدفع بعض الطلاب للهروب من المدرسة وسلوكهم طرّفًا خاطئة من شأنها أن تقودهم إلى عالم الانحراف وسوء المعاملة، حيث يرون أنها البيئة الأنسب لاحتضانها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- ١- الآثار الاجتماعية لتعاطي المخدرات: أحمد عبد اللطيف، المركز العربي للدراسات الأمنية، الرياض ١٩٩٢.
- ٢- إدارة الأزمات: محمد نصر مهنا، الإسكندرية: مؤسّسة شباب الجامعة، ٢٠٠٤م.
- ٣- إدارة الأزمات: عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للنشر، القاهرة، ١٩٩٣.
- ٤- الإدمان، أنواعه، مراحلها، علاجه: جواد فطائر، دار الأندلس، القاهرة - بيروت، ط١/ ١٩٨٨.
- ٥- الإدمان أسبابه ونتائجه وعلاجه دراسة ميدانية، محمد سلامة غباري، المكتب الجامعي، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- ٦- إدمان المخدرات رؤية علمية واجتماعية: محمد هلال ناجي، دار المعارف القاهرة، ١٩٩٩م.
- ٧- الإدمان خطر يهدّد الأمن الاجتماعي، محمد سلامة غباري، دار الوفاء، ط ١ / ٢٠٠٧م.
- ٨- الإدمان على المخدرات الإرشاد والعلاج النفسي: محمد أحمد مشاقبة، دار الشروق، عمّان، ط ١ / ٢٠٠٧م.
- ٩- الإدمان وعلاجه: عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١/، ١٩٩٣م.
- ١٠- استراتيجية التعامل مع الأزمات والكوارث: رجب عبد الحميد، دار أبو المجد للطباعة، ٢٠٠٨م.
- ١١- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: ١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملايين، ط ١٥ / ٢٠٠٢م.

- ١٢- الإعلام وإدارة الأزمات: عبد الرزاق محمّد الدليمي، ط ١، عمّان، دار المسيرة، ٢٠١٢م.
- ١٣- الإعلام والأزمات: أديب خضور، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، ط (١)، الرياض ١٩٩٩.
- ١٤- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الرّبّيدّي (ت: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، دار الهداية.
- ١٥- الزواجر عن اقتراف الكبائر: أحمد بن محمّد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (ت: ٩٧٤هـ)، دار الفكر، ط / ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١٦- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السّجّستاني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمّد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط / ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ١٧- السياسة الجنائية لمكافحة ترويج المخدّرات في نظم دول مجلس التعاون الخليجي: أحمد بن عبد الرحمن بن علي الهدية (دراسة تأصيلية تحليلية تطبيقية مقارنة).
- ١٨- سيكولوجية إدارة الأزمات: عبد الوهاب محمّد كامل، دار الفكر لطباعة والنشر، عمان ٢٠٠١.
- ١٩- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمّى بـ (الكاشف عن حقائق السنن): شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣هـ) تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكّة المكرمة - الرياض، ط / ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٢٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمّد فؤاد عبد الباقي.

- ٢١- الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت: ٦٨٤هـ)، عالم الكتب.
- ٢٢- القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.
- ٢٣- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، ط / ٣ ، ١٤١٤ هـ.
- ٢٤- مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط / ٥ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ٢٥- المخدرات والمؤثرات العقلية: أسباب التعاطي وأساليب المواجهة، د. عبد الإله بن عبد الله المشرف، د. رياض بن علي الجوادي، الرياض، ط / ١ ، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- ٢٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ) تحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط / ١ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- ٢٧- مشكلة تعاطي المواد النفسية المخدرة: مختار صفوت وفيق، دار العلم والثقافة، القاهرة، ط / ١ ، ٢٠٠٥ م.
- ٢٨- مشكلة تعاطي المواد النفسية المخدرة: مختار صفوت وفيق، دار العلم والثقافة، القاهرة، ط / ١ ، ٢٠٠٥ م.
- ٢٩- مكافحة جرائم المخدرات في النظام الإسلامي وتطبيقه في المملكة العربية السعودية الرياض: خلود سامي آل معجون، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

ثانياً: الرسائل والأطاريح

٣٠- الهدية دراسة تأصيلية تحليلية تطبيقية مقارنة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨. مجلة الباحث للعلوم الرياضية والاجتماعية، جامعة الجلفة، المجلد / ٤ , العدد / ٨.

ثالثاً: البحوث

٣١- أثر المخدرات على الواقع الفلسطيني في حدوث الجريمة، دراسة في جغرافية الجريمة: ميساء كمال: بحث مقدّم ضمن مساق جغرافية الجريمة، فلسطين، ٢٠١٠م.

٣٢- أثر المخدرات في تدهور الشعوب: عبد القادر شيبة الحمد، المؤتمر الإقليمي السادس للمخدرات، ١٩٧٤م.

رابعاً: المجالات

٣٣ - الأسباب والآثار الاجتماعية للمخدرات، حويتي أحمد، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد السابع , ٢٠١٢م.

البحث السابع



مخاطر مجتمعية المخدرات انموذجا



الدكتور محسد حميد المظفر
أستاذ في كلية الطب في جامعة الكوفة

السلام عليكم السيّد رئيس الجلسة، أصحاب الفضيلة، أصحاب السماحة،
الإخوة الأساتذة الكبار السلام عليكم...

شكرًا لمركز البلاغي دار العلم للإمام الخوئيّ على هذه الاستضافة، نتكلم اليوم
على ثلاث مخاطر وثلاثة أشياء غريبة على المجتمع العراقي.

أولها الإلحاد، وقد تكلم الإخوة عليه وأشبعوه، والثاني بعد الإلحاد التطرّف
والتكفير، والثالث المخدّرات، وهذه الأشياء الثلاثة كلّها غريبة، ومن الأشياء
الجميلة في حياتي هي أنني في سنة ٢٠٠٣ كنت في محافظة الأنبار في كلية طبّ
الأسنان، أستاذ ورئيس قسم أمراض الفم في جامعة الأنبار لمدة سنة ثم انتقلت
بعدها إلى جامعة الكوفة، وفي شهر رمضان حينما كنّا في الأنبار لم نكن نطبخ
الطعام وإنما الإخوة هناك كانوا يأتون لنا بالأكل في القسم، وكانت من أحلى أيام
حياتي حقيقة وأنا أشكرهم من كلّ قلبي من هذا المكان.

هنالك مفردتان ينبغي الحديث عنهما هما: المخدّرات والإدمان، وبشكل أدقّ،

ما المخدّرات، وكيف يحصل الإدمان؟

إنَّ المخدّرات على أنواع، وهذه الأنواع تختلف من حيث السعر والتأثير، فالكريستال مثلاً سعره عالٍ جدًّا، حيث يصل سعر الكيلو إلى ٧٧ مليون دينار عراقي، هذا بالنسبة للنقيّ منه، أما الخابط - أي الأقل نقاوة - فيصل سعره إلى ٥٥ مليون دينار عراقي.

وبإمكان أيّ شخص لديه اختصاص في الكيمياء صنع هذه المادة الخطرة، وقد وُجدت هذه المادة في ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم، وهناك أنواع منه ليست مؤثّرة جدًّا موجودة في اليمن، وموجودة أيضًا في مجتمعاتنا المعاصرة لكن المعنيتين لم يُعيروا انتباههم لها، ويُعدّ الكريستال الصلب الذي يشبه مادة الشب من أشدّ الأنواع ضررًا وفتكًا في المجتمع، حيث يُورّع على شكل حبوب للتعاطي. وقد أخذت العصابات والمنظّمات المشبوهة طريقًا لاستهداف المجتمع من خلال تجنيد المعلمين مثلاً بشراء ذمهم، ومن خلاله يستطيعون أن يعتمدوا عليه في التوزيع داخل المدارس، حيث يُباع في هذه الأيام النصف غرام منه بمبلغ ٣٥ ألف دينار عراقي.

من أول نصف غرام يصبح الإنسان مدمنًا، ويمكن بعدها أن يرتكب أعمالًا شنيعة حتى يصل به الأمر إلى إمكانية قتل حتى المقرّبين له كأبيه وأمه.

لذلك من اللازم أن تتضافر جهود الجميع من أجل حماية المدارس من المخدّرات، ينبغي الانتباه إلى أصدقاء أولادنا في المدرسة، ومن الكوارث أن ليس هنالك وجود لمصحّات نفسية لمعالجة الإدمان إلا في بغداد إذ يوجد مركز واحد وفي البصرة واحد، وبجهود العتبة العلوية مع دائرة الصّحة في النجف سيتمّ بناء مصحّة للمدمنين في حيّ النداء.

إنَّ المتعاطي في هذه الأيام يُوضَع بالسجن، حاله كحال المتاجر بها، فيُسَجَّن ثلاث سنوات، وبذلك سينتقل من متعاطٍ أو مجرَّب إلى مدمن، لأن المراحل أربع: التجربة ثم التعاطي ثم التعاطي عن عمد ثم الإدمان، بعد ذلك يصبح أسيرًا لتلك المادّة، ثم مرحلة اللا عودة والموت.

هنالك خلل في سنّ القانون، لذلك نحن بنا حاجة إلى سنّ قوانين مناسبة وتكون رادعة ومؤثّرة وتأخذ بعين الاعتبار حالات انزلاق الأبناء في هذه المنزلاقات، حيث كان في السابق حكم الذي يتاجر بالمخدّرات الإعدام.

في السابق كانت المخدّرات تُصنَع في مصانع خارج العراق، وتُسوّق إلى الداخل، أما الآن فأصبح هناك مصانع داخل العراق، ويقوم بعض الكيميائيين بصناعة المادّة الرئيسيّة لها كالأمفيتامين والميثامفيتامين.

وهنالك أمراض انتشرت بسبب المخدّرات، أمراض تؤثّر في مخّ الشخص فتجعله أسيرًا للمادّة المخدّرة، وهنالك مرض آخر يسمّونه مرض اضطراب الموادّ، يبدأ بنوعين: نوع طبيعي مثل الحشيش والمرجوانة والأفيون، ونوع صناعي مثل الكابتاغون الذي يستخدمه الإرهابيون المتطرّفون حيث يتناولونه لأهمّيته، ويستخدمه أيضًا الطيّارون في الطيران العسكري الأمريكي والروسي، حيث يتناولون هذه الحبوب لأنها تمنعهم من الخوف وتعطيهم انتباهًا كاملاً وتمنع الإدّار عنهم حيث يبقى القناص مثلًا جالسًا في مكانه ثلاثة أيام منتبّهًا، ويُعدّ بعض الكريستال أيضًا من المخدّرات المنشطة، لأنه على نوعين: طبيعي، وصناعي، بحسب تصنيفه الزراعي طبيعي أو صناعي، وهنالك تصنيف آخر وهو إمّا حبوب منشطة وإمّا مخدّرات مهبطّة، أي حينما يتناولها يعني يبقى نائمًا مثل الحشيش، وهنالك نوعٌ

آخر وهو القات الذي يُستخدَم بكثرة في اليمن، ومن الإدمان أيضا التدخين، حيث يبدأ الإدمان به وينتهي بالمخدرات.

وهذه كلها نتيجة مشاكل أسرية أو نفسية يلحقها استعداد داخلي، أو بسبب القدوة السيئة، مثلاً يرى أباه يدخن أو يشرب خمراً، أو يسمع أباه متحدثاً عن شبابه ويحاول تقليده، فلكي تكون قدوة حسنة لا تعاقر الكحول والمخدرات.

فلا بدّ من أن نقوّي الروابط الأسرية بيننا وبين أبنائنا، حتى نستطيع تجنّب الأسباب الموجبة للإدمان التي منها صديق السوء.

فأسباب الإدمان كثيرة منها: مرض نفسي، ضغط عمل، استعداد شخصي، الوحدة والفراغ، مشاكل أسرية، أصدقاء السوء – وهو السبب الأخطر.

كيف أعرف بأن ابني مدمن؟

هنالك بعض العلامات التي تكشف عن ذلك منها:

١. اكتئاب.
٢. تقلبات المزاج.
٣. طلب المال بشكل متكرر ومفرط.
٤. الهلوسة واضطراب النوم، ويصاحبه احمرار في العين واتساع في حدقيتها.
٥. فقدان الشهية للأكل.
٦. دائم التغيير للأصدقاء.
٧. جروح في الجسم.

وفي الختام أشكركم على حسن إصغائكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

البحث الثامن



الانحلال الأخلاقي وأثره في الأسرة والمجتمع



سماحة الشيخ محمد الكندي
الحوزة العلمية في النجف الأشرف

فكرة البحث

الهدف الأساسي من هذا البحث هو علاج لأخطر الأمراض الروحية التي من شأنها أن تنهي أممًا وشعوبًا بكاملها ألا وهو (مرض الأخلاق)، حيث يتكفل البحث ببيان دور الأخلاق في صناعة مجتمع متكامل وسعيد وقوي، وإن العكس يجعل من المجتمع مجتمعًا حيوانيًا مفترسًا (مجتمع الغاب) بل أسوأ من ذلك.

وقد وجدنا العلاج الناجع لهذا المرض الفتاك، وهو: الرجوع بحكمة وإتقان إلى فقه القرآن الكريم وسيرة الحبيب المصطفى (ص) وأهل بيته الكرام وصحابته الأجلاء.

البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين
حبيب قلوب العالمين محمد وعلى أهل بيته المعصومين.

في البدء أبارك لإخوتي وأحبّتي في مركز البلاغي في دار العلم للإمام الخوئي
(قُدّس سرّه) هذه الخطوة وهذا الجهد الكبير سائلًا المولى القدير لهم التوفيق
وتسديد الخُطى.

المقدمة

أقول: إن واحدة من البدهيات التي لا يختلف عليها اثنان، والتي رافقت مسيرة الإنسان بما هو إنسان - منذ نشأته - هي أن الإنسان لا يمكن له العيش بمفرده بعيداً عن بني جنسه، بخلاف الحيوانات الأخرى التي لم تُعظ هذه الميزة.

وهذا هو المُعبر عنه في علم الاجتماع (الإنسان مدنيّ بالطبع) فهذه المدنية تُعدّ الدافع الفطري الأساسي الذي يدفع الإنسان إلى العيش ضمن إطار مجتمعه وبهذا الاجتماع سوف تكتمل الحياة.

بعد هذه المقدمة نقول:

لا شك أن هذه الحاجة الفطرية للاجتماع والعيش المشترك لبني الإنسان، تفرز تصادمًا وتناحرًا وشجارًا كحالة طبيعية لطبيعة مزاجية الإنسان وطبيعة تفكيره وسلوكه وحبّه لنفسه.

من هنا أصبح وجود قانون أخلاقي ينظم حياة الإنسان الاجتماعية والفكرية والاقتصادية حتى الأسرية أمرًا ضروريًا بحكم العقل، وبمقدار ما يكون القانون الأخلاقي متكاملًا فسوف ينعكس تطبيقه على تكامل ورقّي وعلوّ ذلك المجتمع مهما كانت عقيدته وثقافته ولغته ولونه وموقعه الجغرافي.

وإن استقامة الأمم كلّ الأمم في مسيرتها الدنيوية متوقّفة توقّفًا كليًا على قوّة وتأثير المنظومة الأخلاقية المتّبعة لتلك الأمة.

فلم تسمع يومًا أن أمة من الأمم استطاعت أن تنهض وتصبح مثلًا يُحتذى به وهي منزوعة الأخلاق.

وأستطيع القول إن هنالك تناسبًا طرديًا بين حياة الأمة واستقرارها وبين القيم الأخلاقية، فبمقدار ما ترتقي الأمة بأخلاقها وقيمها الاجتماعية فسوف تكون أمة مستقرّة وقويّة، والعكس بالعكس فيما لو فقدت الأمة الأخلاق فإنها سوف تفقد الاستقرار الأمني والاجتماعي والعلمي و... الخ.

وبكلمة: لا يمكن تصوّر سعادة بلا أخلاق أو أخلاق بلا سعادة وبما أننا نتكلّم على موضوع الأخلاق وأهمّيته العظمى وانعكاساته الإيجابية على حياة المجتمع وتأثيراته السلبية في حال ضياعه وغيابه اجتماعيًا لا بدّ لنا أن نعرف ما السبب الرئيس في تدني المجتمعات أخلاقيًا؟، وما العلاج الناجع لهذا التدهور؟.

السبب والعلاج

لا شكّ أن السبب في تدهور أخلاق الإنسان فردًا ومجتمعًا هو (النفس الأمّارة بالسوء)، فإن هذه النفس هي حقيقة ثابتة لا نقاش في ثبوتها، وهي تحمل كلّ عوامل الخير والشرّ على حدّ سواء، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا - فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا - الشّمس: ٧، ٨﴾.

فمتى ما تُركت فسوف يغلب جنود الشرّ عليها وتتحوّل إلى وحش مفترس يُخاف منه كخوف أحدنا من كلّ حيوان مفترس.

ومتى ما هُدّبت فإن عوامل الخير التي أُودعت فيها سوف تحوّل الإنسان إلى كائن ملائكي.

ولذا فإن علاج هذا المرض الفتاك الخطير يكمن في رجوعنا إلى مصادر تهذيب النفس: القرآن العظيم، سنّة النبيّ وأهل بيته الكرام - سيرة النبيّ العملية وسلوكه مع أبناء جلدته - سيرة الصحابة الأجلّاء، وتتبع هذه السيرة الأخلاقية.

فقه القرآن وفقه السيرة يُعدّان ضمانةً فكريًا واجتماعيًا لمسيرة الإنسان على مختلف الصعد الحياتية.

ولذا فإن دعوتنا لكلّ المسلمين - بل حتى غير المسلمين - علينا أن نعود إلى القرآن الكريم لأنه الضامن الوحيد لسلامة حياتنا، وأستطيع القول جازمًا إنه ما من فضيلة تعشقها نفس الإنسان إلا وُجدت في القرآن الكريم وسيرة الحبيب المصطفى (ص)، وما من مُنكر يخرج الإنسان من إنسانيته ويرميه في معسكر الشرّ والبؤس والرذيلة إلا ونهى عنه القرآن الكريم.

ولذا ينبغي على مراكز العلم والمعرفة الحثّ والتأكيد بشكل مستمرّ على دراسة سيرة النبيّ (ص) دراسة شاملة ومتقنة إلى درجة (الفقه) وليس العلم فقط، فاذا فقهنّا سيرته (ص) فإننا بذلك قد عالجتنا أمراضنا الأخلاقية والاجتماعية والتربوية والفكرية علاجًا ناجحًا مئة بالمئة ولكن شريطة أن نلتزم بالعمل بسيرته بعد تعلّمنا وفقهنّا لها.

ولذا فإنّ هذا هو جزء مهمّ من مسؤوليّة الداعية الإسلامي والمؤسسات الدينية والأكاديمية على حدّ سواء؛ إذ إنها مسؤوليّة الجميع؛ وذلك لأنّ الحبيب المصطفى أوضح السبب من البعثة بقوله العظيم: إنما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق.

الخاتمة

نقول: لا سبيل أمامنا ونحن نسعى إلى التكامل المعنوي والمادّي إلا الرجوع إلى القرآن الكريم وسيرة الحبيب المصطفى (ص) لأنّه الضامن لسلامة الروح والجسد والطبيعة والأرض والحيوان والنبات و...

وعلينا التركيز المستمر في هذه النقطة التي تمثّل محور نهوض الأمة واستقرارها، وعلينا أن ننتبه إلى توحيد القرارات المصيرية للأمة وحصرتها بالقرار الإلهي لا بيد البشر ونفسه الأمارّة بالسوء وأهوائه وأمزجته، فلولا حصر القرار بيد السماء لما كان الإسلام أقوى دولة على وجه الأرض وأفضل مجتمع متحابب مُتوادّ متصالح ناكر لذاته مؤثّر في غيره بسلوكه وأخلاقه.

البحث التاسع



الانحلال الأخلاقي للأسرة والمجتمع



الدكتور مصطفى العلواني

متخصص في العلوم السياسية، ونظريات العلاقات الدولية بكلية القانون والعلوم السياسية جامعة الأنبار

فاعلية منظومة القيم العالمية وتفعيلها، إزاء "الانحلال الأخلاقي للأسرة والمجتمع"

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ عالمنا اليوم، وبكلِّ مجتمعاته ودوله ومسمّياته، يعاني من أزمات، يمكن وصفها بكونها: انحلالاً عن الضوابط القيمية، والأعراف الإنسانية، التي تصونها الفطرة، إن فارقت في بعض المجتمعات الدين وقيمه.

يمكن وصف فاعلية منظومة القيم الإنسانية العالمية، إزاء مشكلة "الانحلال الأخلاقي" في مستويات، تدرج في الآتي:

أولاً: الفاعلية الوقائية "المناعة عن الانحلال": ولا أقول من الانحلال، لأنَّ الانحلال- حتى إن لم نُصبِّ به- إلاَّ أنه موجودٌ من حولنا، يُتَخَطَّفُ الناسُ به، فنحن أمام مستوى للفاعلية التي يمكن وصفها ابتداءً بالمناعية، التي تكونُ فيه المنظومة القيمية واصفةً لما يمكن أن يكون:

١. تأصيلاً لما يتأسس على القيم، وهو أمرٌ يراعي-ولا شك- مؤثرين:
 - أ. أولهما ثابت، وهو ما يتصل بمنظومة القيم وبثوابتها، ومنها: الأصول الاعتقادية، والأحكام الشرعية، والأمور التوقيفية، التي لا تقبل التبديل، ولا تحتمل التأويل، ولا تسمح بالتحويل.

ب. وثانيهما، ما هو مؤثّر متغيّر، لا يسمح بالثبات في: الوصف لنماذج يكون الأصل فيها اعتبارًا التبدّل سنّةً، والتحويلُ اجتهادًا، والتغيّرُ مراعاةً، وأعني فيها ما يراعي واقع الإنسان بوصفها موضع تنزيل القيم عليه، لحلّ مشكلاته هو، في وقته، وفي مكانه، وأوصافه.

٢. مجانيةّ لما هو كائن من ممارسات الانحلال، وإعطاء البديل المخالف له، الذي يتماشى مع تلكم الأسس التي بُنيت على القيم، أو في الأقلّ لا تتقاطع تلكم البدائل مع المنظومة القيمية أصولها، وممارسات تفعيلها، في آنٍ.

ثانيًا: الفاعلية العلاجية للقيم، من الانحلال الأخلاقي: والعلاج من ضروب فاعلية المنظومة القيمة، ولا سيّما في مستوى التركيبة، للنفس وللأسرة وللمجتمع، جملةً واحدةً.

ثالثًا: معالجة الانحلال في المجتمعات الأخرى، في ظلّ الأقومية:

ومنه ما يأتي في فاعلية التركيبة للمنظومة القيمة، في المستوى العالمي، بوصفه مستوى يكمل تلكم الثلاث، في النقطة أعلاه.

المبحث الأول: التعريف بالانحلال الأخلاقي:

ويرادُ من التعريف بالانحلال تحديد طبيعته، وحقيقته، وما قد يدفع إليه، ويأتي من خلال ما يأتي:

أولًا: الأبعاد المفاهيمية، للانحلال: (١)

الانحلال، لغّةً، مصدرٌ للفعل "انحلّ"، فنقول؛ انحلّ ينحلُّ انحلالًا، فمصدره "انحلالٌ". والانحلالُ فسحُ العقود، والانفكاكُ عن الالتزام بها، وإنهاءُ مدّة الالتزام بمقتضاها، وانحلال الخيوط "انفكاكُها" عمّا عليه قد لُقِّت، وحلّ العقدة؛ إذا فتحها فأنحلت وانحلال الأخلاق: فسادُها، وقد قيل: انحلّ الجسم؛ إذا ضَعُفَ،

(١) ينظر: موقع "المعاني"، معجم المعاني الجامع، "مصطلح الانحلال"، تأريخ الزيارة ٢٠٢٣/١/٢١، <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar>

وانحلال الشيء؛ فسادُهُ،^(١) ومن حيث كون الانحلال مصدر "انحلَّ"، أي من "الحلَّ"، فيأتي بمعنى "الفتح" و"النقض"، وقيل: حَلَّ العقدة؛ يَحْلُهَا حَلًّا، إذا فتحها ونقضها؛ فانحلت، ولم تُعَدَّ عقدةً^(٢)، ويأتي الانحلال- كذلك- بمعنى الذوبان لما كان جامدًا فيذاب تطويعًا؛ ليدوب استجابةً.

ومن ذلك يأتي الانحلال بوصفه ضدَّ الانتظام، والانحلالُ ضدُّ الشدِّ، وضدُّ الارتباطِ، وبذلك يكونُ الانحلالُ ضدًّا للتماسك.

والانحلالُ يحملُ في بنائه معنى "التحوُّل" من جانبٍ لآخر، ومن موقفٍ لسواه، أعني أننا أمام مفهومٍ قابلٍ للتأثرٍ فيما يحمله من "دلالةٍ"، وما يؤدِّيه من معنى، قابلٍ للتأثرٍ بما يُوصَفُ به اللفظُ، أريدُ به "لفظ الانحلال"، وقابلٌ- كذلك- للتأثرٍ بما "يضافُ إليه" من الألفاظ، بما يمكنُهما- بالتالي- من توظيفِ معنَى بعينه، يُفهم من التركيبين: أعني:

- التركيب بالوصف، ومثاله: "الانحلالُ عن الإيمان"، ولكن يمكن القول بالوصف: "الانحلالُ عن الكفر"، وهو ما يعطي مساحةً واسعةً لما يمكنُ أن يُستدلَّ باللفظ المرطب بالوصف عليه؛ وقد يأتي وصفه لفظًا مفردًا، أو يأتي غير ذلك؛ ومنه الوصفُ بجملة.
- والتركيب بالإضافة: ومثاله: "انحلالُ القيودِ" بما تحمله من المعاني المحمودة، وقد يأتي "انحلالُ العهد" للدلالة على ما هو مذمومٌ، في هذا الإطار.

اصطلاحًا: يأتي المعنى الاصطلاحي "للانحلال"، قريبًا من دلالاته اللغوية، وما ترتبط به من ألفاظ، تكوُّنُ في تركيبها "مصطلحًا بعينه"، أعني أن له دلالاته المرتبطة به، ما لم يكن- غير ذلك- موصوفًا بصفةٍ ما، وقد ذكر أنفًا.

ومن معانيه ودلالات ما جاء بالقول: "الجِلُّ"-بالكسر-الحلال وهو ضدُّ الحرام، وقيل "رجلٌ جِلٌّ من الإحرام" أي حلالٌ، إذا هو تحلَّل عن الإحرام، لكن

(١) ينظر؛ أحمد مختار عمر، وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب للنشر، القاهرة: ٢٠٠٨، المجلد الأول، ص ٥٤٩.

(٢) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، الجزء الثالث،

بإتمام الأعمال، التي لأجلها أحرم، سواءً من شعائر الحج، أو أعمال العمرة، التي تقتضي منه الإحرام.^(١)

ثانيًا: الأبعاد المفاهيمية للأخلاق:

"الأخلاق" لفظ يشير إلى جمع؛ مفردُهُ "خُلُق"، والخلُق "الخليقة"، وهي "الطبيعة"، أي ما يكون عليه الإنسان من طبائع؛ ومن سجايا،^(٢) ويرى الباحث أنّ الخُلُق يمكن أن يأتي بوصفه "اسم جنس"، أي أنّ دلالتُهُ تمتدُّ لتلامس الأخلاق كلّها، ألا ترى ما قد وُصِفَ به الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، من ربِّ العزّة جلّ جلاله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ - القلم: ٤﴾، إذ لا يستقيم أن يكون المراد بالخلُق مفردًا، فالوصف بالعظيم؛ وقد سبقه التوكيد بالحرف إنّ، وأعقبه اللام الذي يفيد التوكيد، موضعٌ يستقيم معه الدلالة على كلّ الأخلاق التي كان عليها خير الخلق وأتقاهم وأعبدهم إلى ربّه، ونريدُ من ذلك: تأكيد أمرين:

الأول: أنّ الأخلاق جملةٌ، يُنتظرُ من صاحبها أن يكونَ عليها كلّها، بتغليب الظنِّ وتوقُّعه.

الثاني: أنّ من يكون على خُلُقٍ حسنٍ، يمكن أن تتفاوتَ خصاله، لميله إلى الأحسن، مع أنّه على أخلاقٍ حسنةٍ، ومنه تميُّزٌ أحدهم بالكرم، وآخر بالبرِّ، وسواهما بالصدق، وآخر بالأمانة، وسواها ممكنٌ كذلك.

وعليه؛ فإذا جيء بالوصف لمن قيل في حقّه أنّه صاحبُ خلقٍ، فالأصل أنّه حسنةٌ أخلاقه، ما لم يُوصَفْ خُلُقُهُ بصفةٍ؛ تجعلُ الخُلُقَ في الموضع المقصود به وصفه؛ وهو أمرٌ تعارفَ عليه الناسُ، فإذا قيل أنّه ذو خُلُقٍ، فالإمساك عن الوصف؛ يعني أنّه على خُلُقٍ حسنٍ، والمرادُ به الإجمال والإطلاق، لتشملَ سائرَ السجايا؛

(١) مختار الصحاح، من موقع المعاني، متاح على الرابط <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/>
(٢) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، حرف الخاء ١٢٤٥. وينظر: معجم مصطلحات العلوم الشرعية والتقنية، مجموعة مؤلّفين، ط٢، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم، الرياض: ١٤٣٩هـ، ص ٧٥٩.

التي يمكن تعدُّدها، وحتىَّ اختلافها، المعبّرة- في أصلها- عن الطبيعة التي يغلب عليها الثبات، ما لم تتأثر بالتطبُّع الذي قد يكون طارئاً أو أنّه غير متأصل في الفطرة.

والأخلاق طبائع محمودة؛ يراذ منها ما يُبنى عليه من أفعالٍ وأقوالٍ تتَّجهُ إلى الله تعالى عبادةً، وإلى خلقه في علاقاته مع الناس، وفي إطار بيئته وما فيها، ولعلَّ الفيصل في ذلك الأعمال، ودليله الحديث الشريف: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مِضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْسُلُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعٍ، يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ثُمَّ يُسَبِّقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ثُمَّ يُسَبِّقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا))^(١).

وما ذُكِرَ أعلاه أمرٌ يجعلُ الأخلاقَ فيصلاً في تحديد المصير في الآخرة، وقد جاء في الحديث: ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوِنَ وَالْمَتَشَدِّقُونَ وَالْمَتَفِيهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوِينَ وَالْمَتَشَدِّقِينَ فَمَا الْمَتَفِيهِقُونَ؟ قَالَ: الْمَتَكَبِّرُونَ))^(٢).

ثالثاً: الأبعاد المفاهيمية للانحلال الأخلاقي:

قد ذُكِرَ آنفاً أنَّ الأخلاقَ كُلُّ، يتكامل حُسْنُهُ، لتتكوّن منه سلسلة، محمودةٌ حلقاتها، ولا نريدُ من ذلك ما يتّصل بالفرد، ولا بطبيعته، وتقييمها، بل الحديث يأتي مسوقاً للإشارة إلى وجودِ ناطمٍ لما يمكن وصفه أنّه منظومةٌ، مركّبةٌ، أي إنّها سلاسلٌ مختلفة المستويات، متعدّدة الفاعلية، متكاملةٌ في آثارها.

(١) حديث ابن مسعود، أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، عن الدرر السنّية، <https://dorar.net/hadith/sharh/>، تاريخ الزيارة ٢٠٢٣/٢/٢.

(٢) حديث جابر بن عبد الله، أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، عن الدرر السنّية، <https://dorar.net/hadith/sharh/> ١١٣٥٧٦ تاريخ الزيارة ٢٠٢٣/٢/٢.

ومن ذلك؛ يمكن القول بتكامل ما عليه كلٌّ من: الفرد، والأسرة، فالمجتمع، من حيث:

أولاً: تحديد أبعاد المنظومة الخلقية-إذا صحَّ الوصفُ- بمعرفة أبعادها.

ثانياً: الإيمان بفاعليتها، فيما يصلح: الذات فرداً، والأسرة نواةً، والمجتمع مجالاً.

ثالثاً: اليقين بضرورة مراعاتها، والالتزام بها، في كلِّ المستويات كذلك.

يعني ما تقدّم أنّ الأصلَ في المنظومة الخلقية تفعيلها بتشغيل مقتضيات مراعاتها، وإلاَّ صرنا أمام ما يمكن وصفه "انحلالاً خُلُقياً"، تجعلنا أمام إشكالية منهجية، ومشكلة تستحقُّ التشخيص، والمعالجات في آن.

يُرادُ بالانحلال الأخلاقيّ الذي يشيرُ-ابتداءً-إلى مفارقة المنظومة الخلقية، ومخالفة مقتضاها، وتعطيل فاعليتها، والإتيان بما يجعلُ الإنسان، أو الأسرة، أو المجتمع، على حالٍ مذمومٍ مستقبح.

ويُثار في هذا الموضوع تساؤلٌ-على ذمّة بحثنا-يتّصل بالكشف عن الفاصل الذي يبدأ عنه الانحلال، ويأتي من خلال ما يجدرُ ذكره؛ أنّ حسنَ الخُلُق يأتي من جانبين:

الجانب الأول: ما هو فطريٌّ بالخلقة، وهو أمرٌ يتّصل بصلاح فطرة الإنسان؛ كلُّ إنسانٍ دونما فرز، ويتميّزُ به المعصومون عليهم الصلاة والسلام، أنبياءٌ ومرسلين، ومنه مدحه عليه الصلاة والسلام، بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ - القلم: ٤﴾.

الجانب الثاني: ما هو أمرٌ تعليميٌّ، في إطار فضل الله تعالى بعباده بما جاءهم تزيلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا - النساء: ١١٣﴾.

وتكشف الآية أعلاه؛ عن وجود إرادة إلهية، لتتحقق الاستقامة، بما أنزله الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام، وعلى أمته والناس أجمعين، بما يحقق بتعلم ما في التنزيل من محققات الاستقامة التي تكون بمراعاة منظومة القيم، وهو محض فضل من الله على عباده، بما بعث فيهم الرسول الخاتم؛ رحمة منه، تلكم القيم التي تفوق ما في الفطرة من صلاح، مع ما يشير إلى وجود تأثيرات بشرية ضالّة، تحاول من جانبها- أن تقطع المؤمنين عن منهج الاستقامة، بأن يقترف الطريق زلل، بما للنفس من عوامل الفساد، وتعطيل ما تسكن به النفوس؛ حال موافقة الإنسان دواعي فطرته، وأوامر الله في تنزيهه.

ومن الأبعاد التي تلامسها الأخلاق، في دلالاتها: (١)

أولها: البعد الفطري، وما يحمله من صفات متناسقة في إطار جامع، هو الاستقامة.

ثانيها: العادات المكتسبة التي تتحوّل إلى موجّه أساسي، وضابط سلوكي، ومرشد يدافع إلى الفعل الخلاق.

ثالثاً: أنها تلامس التكوين النفسي والدافع السلوكي معاً.

وبناءً على ما تقدّم؛ نصل إلى التمييز بين أمرين؛ يبيّنان أننا في هذا البحث أمام التمييز بين حالين، للفرد، وللأسرة، وللمجتمع، يمكن وصفهما- في إطار المسؤولية- بالحال "المنتقلة"، وهما:

- الامتثال: ويكون بمتابعة قيم القرآن الكريم، العالمي الإنساني، الموصوف بالأقومية، على سائر الشرائع، ومنه ما كان من سابق التنزيل، بوصفها خاصّة: بأسرة، أو بقوم، أو بأمة.
- الانحلال: ويكون بتحقيق الزلل عن مقتضى المنهج الإلهي في إرادته، الرباني في لطفه.

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية، يالجن مقداد، عالم الكتب، الرياض، ص ٧٠، (عن) الانحلال الأخلاقي في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف، "٤٢٢-٤٤٨هـ-١٠٣١-١٠٩٠م، بعاج مقدّم، وغنيمي أميمة، "مذكرة ماستر"، مقدّمة لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة محمّد خضير-بسكرة، ١٤٤٢هـ-٢٠٢١م، ص ١٧.

المبحث الثاني: "فاعلية" الأصول القيمية التي تقي من الانحلال وتعالجه:

لا شكَّ أنَّ الحديثَ عن الوقاية من الانحلال، ومن كلِّ ما يعترضُ حياة الإنسان ومجتمعه، يستوجبُ الذهابَ إلى مرجعية معرفية، يتوقَّرُ فيها ما يمكنُ من الوقاية من مظاهر الانحلال وأشكاله، ومن معالجته وآثاره، حال تحقُّقه، وثبوت الإصابة به.

ولا بدَّ من التعامل في إطارٍ واقعيٍّ، يلامس أشكالاً موصوفةً من الانحلال، وفي كلِّ المستويات التي أنشأها الإنسان؛ أسرةً أو مجتمعاً، لنستنطق تلك المرجعية، وننزل مقتضى أصولها على ما يعانيه الإنسان من تسويل الانحلال، وملدَّاته الزائلة، وآثاره المُثقلَة.

المطلب الأوَّل: المرجعية المعرفية القادرة على تجاوز الانحلال، وترميم آثاره:

يمكنُ الحديث عن جدارة مرجعية الوحي: قرآناً، وسنةً في تبوُّو مكانة الهدى وفاعليته، لما يحيي الناس حياةً طيبةً، من خلال ما يأتي من محاور، صُنِّفَتْ ووُصِفَتْ على ذمَّة هذا البحث.

أوَّلاً: إطار للعناصر المرجعية القادرة على تشخيص الخلل، ثمَّ وصف علاجه: العنصر الأول: أن يكون مصدره من العلوِّ الذي يجعل الفصل في توصيف حدود الامتثال والانحلال واضحةً جليَّةً.

العنصر الثاني: أن يكون المرجع المعرفي مستوعباً لسيرورة الإنسان وحركة الزمان، في إطار اعتبار ثوابت: الفطرة في المستوى الفردي، والسنن في المجال الاجتماعي.

العنصر الثاني: أن يكون المرجع المعرفي:

١. مبنياً على قيمة التوحيد؛ مؤسساً عليها، تتصل بما سيكون من

فاعلية الإنسان:

٢. استقراراً في إطار السكن.

٣. ترقيةً للنفس في إطار قيمة التزكية.
٤. تآلفًا للمجتمع في ظلّ التعاون والتكامل والتكافل.
٥. تعارفًا في ظلّ العالمية الإنسانية.

العنصر الثالث: أن يكونَ منزَّهاً عن الواقع وما يشهده من مظاهر الانحلال، مبرِّاً عن وصفها جزءاً من الثقافة، التي يمكن التسليم لها وقبولها، بوصفها أموراً يشهدها الواقع، ومعبّرةً عن تفضيلاتِ الناس في مجتمعهم، بغضّ النظر عن آثارها التي قد تأتي على وجود المجتمع، وعلى ما يصلحه جملةً واحدةً.

العنصر الرابع: أن تتعدّد مستويات معالجاته في آنٍ واحدٍ، فلا يقصرُ دون التعامل مع ما يتعرّضُ له مستوًى من مستويات "الوجود الإنساني"، أعني به: الفرد، والأسرة، فالمجتمع المحلي، فالمجتمع الإقليمي، فالعالم كُله.

والعنصر الخامس: أن يتجاوز-في فاعليته-حدودَ الزمان، وفواصل المكان، فتأتي فاعليته مشعّة، كما استنطقَ نظامه المعرفي، أو استهديت قيمه.

والعنصر السادس: ألا ينحازَ لأحدٍ على حسابِ أحد، ولا لفئةٍ على حسابِ فئة، بل تتأسس أصوله على هدي منظومةٍ قيمية، لا تتأثّر بالذوات، ولا تنفعل بهم.

والعنصر السابع: أن يأتي من خارجِ المجتمع الإنساني، وأبعد من قدرات بلوغ العقل الإنساني، لضمان تزهِه عن الانجراف وتأييد ما يراه الغارقون بانحلالهم، ممن قصرت رؤيتهم، وضاعت منافعهم، وتفلّنت من نفوسهم طوألها.^(١)

العنصر الثامن: ألا تجد ثمة اختلافاً، أو تعارضاً بين مستويات الإرشاد القيمي، ولوازم الاستقامة.^(٢)

العنصر التاسع: أن يقبلَ التقاوم المنهجي، بل يستدعيه، بما يثبت أقوميته.

(١) لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى *** لك الطولُ المرخى وثنياه في اليد.
(٢) القيم السياسية العالمية، القيم السياسية العالمية في الخطاب القرآني، مدخل منهجي لدراسة العلاقات الدولية، مصطفى جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا: ٢٠١٥، ص ١٨١.

ثانياً: إقرار المرجعية المعرفية التوحيدية، بوجود أزمة مركبة:

والمراد بتلك الأزمات، ما يكون تأثيرها متشعباً، فمنها ما يأتي على مستوى الإنسان، ومنها ما يصيب المجتمع بمختلف صورته، ومنها ما يعاني من آثاره العالم الإنساني على الأرض كلها، وبالتالي تتأكد الأزمة، ويُسلم لضرورة التحرك على كل المستويات، لوضع حدٍّ لآثارها، واحتوائها؛ فالتحكُّم فيما ينهي المعاناة منها.

للقرآن الكريم- بوصفه منهاجاً- أبعاداً عالمية، في وقتٍ أجمع المعنيون فيه على وجود أزمة معرفية، سجّلتها الحاجة الملحة لوجود نظام معرفي، يمكن أن يوصف بالكمال وبالتمام، ويتحلّى بالمثالية الحقّ، وفي الوقت نفسه، لا يعيَّب قراءة الواقع، وقياس معالمه وحسابها؛ فيكون مستنداً إلى: مصادر معرفية، ومنهجية معرفية، يستعين العقل به، ويستهدي مصادره، وينتفع من محتوياته، فالأزمة قد تفاقمت، واتّخذت من العالمية طابعاً لها، وقد تفاقمت، وتفاقمت آثارها.^(١)

وقد ارتبط التنزيل-كله- بمقاصد التقويم والإصلاح، بل إنّ مسوّغات إرسال الرسل تمثّلت فيما كان من فساد المعنيين برسالاتهم، حتّى ارتبطت طبيعته التنزيل بطبيعة معاناة الناس، وبما يعانيه واقعهم الموصوف بالتعدّد، ومدى التنزيل بآفاق مجتمعاتهم.

ومع ذلك بُنيت كلُّ محاولات الرسائل الإصلاحية على "التوحيد" بوصفه قيمةً، مؤسّسة للقيم، وموجهة للسلوك، رافعة للمعاناة، دافعة لتصويب مسارات الحياة؛ والمعنى بالتقويم-ولا شكّ- سلوك الناس، وهو ما عالجت الرسائل في إطار: البشارة، والندارة، ما يعني أنّ الهداية إلى الاستقامة: تكون بعد تحقّق حاجة الناس إليها، وهي سنّة إلهية ثابتة في الرسائل، وفق قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - البقرة: ٢١٣﴾.

(١) القيم السياسية العالمية في الخطاب القرآني، مصدر سابق، ص ٤.

والاختلاف الذي حدّث عنه الآية أعلاه جاء نتيجة غياب معالم الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لعباده، وغياب الرؤية السليمة للحقيقة، والتعامل على أساسها، سوّغت إرسال الرسل وبعث النبيين، عليهم الصلاة والسلام، لتوضيح معالم الطريق ووصف المنهج، وتبيين ما كان من معرفة الناس عليه بالفطرة.^(١)

نحن إذن في ظلّ منهج التوحيد، وقد غابت عن الناس معالمه، وقد نزل آدم وقيم التوحيد ومبادئه لم تزل شاخصه في صدره، ومهمّة الرسل عليهم الصلاة والسلام وما أنزل معهم مرتبطة ببيان الاستقامة: قيماً، ومنهجاً، وما يتأسس على البيان من: الهداية، والدعوة، والبلاغ، وفق قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - المائدة: ١٦﴾، تؤكّد أنّ الهداية إلى الصراط المستقيم - الذي لا نقص في بيانه، ولا تحريف عن مواضعه، ولا اختلاف فيه، ولا ظلمات - تتحقّق بوسيلتين:^(٢)

- أ. الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، الموصوف بالنور.
- ب. الكتاب المبين.

المهمّة البيانيّة تلك تكشف حقيقة الطريق المستقيم ومعالمه، بنور الرسول الخاتم ورسالته، وتكشف زيف المناهج إلّا طريق الاستقامة، وفق قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ - الأنعام: ١٥٣﴾؛ فالقيم التي جاء القرآن بها واضحة في ذاتها، موضحة لغيرها.^(٣)

ثالثاً: قيم المرجعيّة المعرفية: لعلّ الفصل بين: ما هو انحلال، وما هو امتثال، يبدو جليّاً - وقد نتبنا عليه في موضع سابق - يكون بتفعيل قابليات:

(١) القيم السياسية العالمية في الخطاب القرآني، مصدر سابق، ص ٤٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

الإرشاد، والضبط، والحكم، والتوليد، التي تتحلّى بها المنظومة القيمية العالمية الإنسانية التي نظمها القرآن الكريم، وأطرها العقل المسلم الفاعل المتمثّل لسياقاتها في إطار نصوصه، ويمكن التمييز بين مستويين للقيم، أو لمنظومتين إذا صحّ الوصف.

وما يُنتظر من بحث المستويين من المنظومات القيمية يتمثّل في بلوغ أمرين اثنين رئيسين، هما:

- أن تكونَ تلكما المنظومتان تميّزان بين ما هو من قبيل الامتثال، وما هو من قبيل الانحلال، فيكونُ الأوّل مقبولاً، وهو أمرٌ ثابتٌ بغضّ النظر عن تغير المجتمع وإقليمه وقرنه.

- وأن تكون المنظومتان معنيتين دون سواهما بتحديد مجال الفاعلية الإنسانية المقبولة، فالاستقامة تكونُ في حال انضباطه بالمجالات التي يفتح آفاقها: التوحيد، والتزكية، والعمران، ويكونُ كذلك بتوصيف الفعل الإنساني، وتوجيهه، وبيان عواقبه، وبوصف الوجهة المقبولة للفعل الإنساني، وتوجيهه الوجهة الصحيحة، التي تصلح حال الإنسان ومجتمعاته، وتحسن عاقبته في آنٍ.

المستوى الأول: منظومة القيم المقاصدية الكلية:

وقد أُطّرت، ابتداءً في تحديد منظومة قيم كَلِيَّة، أبعادها التوحيد، التزكية، والعمران، والتي تُعنى بجانبين اثنين معاً، وتراعيهما:

فالثابت: هو ما يتّصل بالأحكام، بوصفها ثوابت، صدرت بإرادة إلهية ولطفٍ إلهيٍّ وعلم مطلق.

والمتغير: ما يتّصل بأفعال الإنسان وبفاعليته في الامتثال لتلكم الأحكام.

والمقصد: الذي يراعي مراد الشارع من الشريعة كلّها، وما فيها من أحكام، تلزم الفاعلية الإنسانية، بالاستجابة لما فيها، وتجعلها "مشروعة" ما دامت دائرةً في إطار مقاصد تلكم الأحكام، فتكونُ مكانة الشريعة وما فيها من أحكام مرعيةً بوصفها

تعبيراً عن الإرادة الشرعية، وتراعي أهميّة الفعل الإنساني، بوصفه أمراً يتّصل بالإرادة الربّانية التي منحتها القدرة على الفعل، وكذلك الإرادة الإلهية التي صدرت عنها الأحكام متعلّقة بفعل الإنسان.

ولعلّ المراد من ذلك كلّ، أن يكونَ الوحيّ مرجعاً، يصدرُ بناءً عليه، وعلى قيمه توصيف: طبيعة الفعل الذي يصدره الإنسان، وتحديد وجهته، وموقعه من تلك المنظومة القيمية،^(١) وهذا الأمر يؤسّس للفاصل الذي يميّز - وقد نبّهنا عليه في أكثر من موضع - بين ما هو امتثالٌ وتمثّلٌ للقيم، موافق لمقصدتها ومقتضاها، وفي المقابل ما هو "انحلال" عن ذلك كلّ، تفلّت عنه في الوقت نفسه.

فالفرض الذي تبنيه القيم المقاصدية هو أن يكون الفعل الإنسانيّ في مختلف المستويات: الفردية، والجماعية، والعالمية الإنسانية مراعيّاً لكونه مندرجاً ضمن مساحة كلّ قيمة من القيم الكلية، والمقاصد التي حظي بها الإنسان من التمكين في الفعل، وفي التفاعل كذلك.

فالتوحيد جوهر الرسالات كلّها، وأصل منهج الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وعليه تُبنى القيم الأخرى، أعني: التزكية، وال عمران، ولا يستقيم شأنُ إلاّ بمراعاة التوحيد، وبه يمكن تصوّر "الرؤية الكليّة" لانتظام الحياة والكون والإنسان، في ظلّ قدرة الله تعالى ومراده، من الخلق.^(٢)

ولا يستنير الفكر؛ لا يُرتضى السلوك الإنساني إلاّ بمراعاة مقتضى التوحيد، ولا تتحقّق التزكية، ولا يبلغ العمرانُ كماله، ولا يكون ثمة عدلٌ، عدالة إلا بعد اليقين به، ولا حرية، إلاّ باستهداء منهج التوحيد، ومراعاة مقتضياته.^(٣)

فالتوحيد تلامس انعكاساته حياة الفرد، والأسرة، والمجتمع، والعالم، وتكون آثارُ إشعاع التوحيد علاجاً الشافي لكلّ الأزمات، ومهما كانت طبيعتها، ومستوياتها، في ظلّ علاقة الإنسان:

- برّبّه خالقه.

(١) ينظر؛ التوحيد والتزكية وال عمران محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، طه جابر العلواني، ط ١، دار الهادي، بيروت: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه.

- وفي علاقته بأبناء جنسه.

- وفي تعايشه مع بيئته.

فتصبح الحياة صالحة، تُحَقَّقُ فيها الاستقامة: الهدى، والحق، وتراعي العدل، وتؤدِّي الأمانة، ويُساوى عند ذلك الناس في كرامتهم.

المستوى الثاني: منظومة الخلافة الأرضية: (١)

يمكن الحديث عن قيم الخلافة التي تُعنى بالحياة، وتتخذ من الإنسان فعلة تحديداً، موضع الاعتبار في تصنيف القيم، مع أنها حاکمة على فعله ذاك، وتتمثل في القيم الآتية:

أولاً: الجماعة ورعاية الاختلاف: ففي قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى - البقرة: ٣٨﴾، تركيز في الجماعة، فالناس كلهم مخاطبون بالقرآن، معنيون بالهبوط، وبمسؤوليتهم في الخلافة الأرضية.

ولم يُلغِ خطاب الجماعة الإنسانية المسؤولية الفردية، فالعقل شرط الابتلاء، ومعني بالخطاب، جعل التوازن بين الجماعة والفرد في ظلّ الابتلاء أمرًا يراعي حرية الفرد في الاتّباع، بما لا يتجاوز حقّ الجماعة في بقائها وأمنها ومصالحها، بدليل قوله ﴿فمن تبع هداي - البقرة: ٣٨﴾، و"من" اسمٌ موصولٌ للعاقل، فلا تتجاوز الجماعة رعاية الحقّ الفرديّ، ورعاية العقل.

والناس مختلفون، وقد ربط الخطاب القرآنيّ "سمة الاختلاف" بمقاصد الخلق الإنسانيّ وربط الاختلاف باستخلافهم، وفق قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ - هود: ١١٨-١١٩﴾، فالتوازن بين الفردية والجماعية يسوّغها وحدة الأصل الإنسانيّ، وجاء تبرير انتشارهم لكونهم مختلفين. (٢)

(١) لمزيد من التفصيل، ينظر: القيم السياسية العالمية، مصدر سابق، ص ٣٠١-٣٠٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ثانيًا: الاستقرار: من الأمور التي رافق ذكرها أمر الله الناس بالهبوط في إطار الجماعية-تعبيرًا عن إرادته- جاء ذكر الاستقرار في إطار من الطمأنينة والتهدئة اللتين لحقتا خطاب آدم وزوجه بإرادة الله في هبوطهم إلى الأرض، وقد ذكر الهبوط لصيقًا بالمعصية، التي اقترفها آدم وزوجه، فالجوّ النفسي الذي يثيره النصُّ، يوحى بأنّ الهبوط عقاب لهما، ولهذا جاء الاستقرار تعبيريًا عن لوازم الحياة الأرضية الجديدة، وبما يسهّل تلقّي منهج الهدى للناس، وبما يسهّل الاتّباع نفسه، ويمكن ملاحظة أمور تتصل بالاستقرار، تتلخّص في الآتي:

والاستقرار قيمةٌ كئيّة تُعنى بالجماعة الإنسانية، في قوله: ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ﴾؛ فالاستقرار من حقوق الإنسان المقرونة بحياته وبوجوده على الأرض، وأنه لا يتصل بالتكليف، وليس من لوازم التكليف، ويسبق الابتلاء، شرط ألا تتجاوز الحقوق؛ آثار حرّيته الفردية؛ الحقوق الجماعية.

ولازم الاستقرار الاستمتاع لقضاء حاجات الناس، ممّا في الأرض، فيكون الاستقرار قيمةً ظرفية.

ثالثًا: الاستقامة: قوله: ﴿فَأَمَّا يَا تَبَنُّكُمْ مِيَّ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ - البقرة: ٣٨﴾، فالاستقامة قضية مرعية في حياة الجماعة الإنسانية في الأرض، وتبلغ مستوى التكليف الشامل لكلّ الناس، وتتحقق الاستقامة شرط أن يكون مصدرها إلهيًا، خارجًا ساميًا على إطار الجماعة الإنسانية، وفق قوله ﴿مِيَّ هُدًى﴾، فالهدى مصدره العلوّ الإلهي، إلى الناس في الأرض.

وتهدف الاستقامة تحقيق غاية سامية، تتصل بترقية الإنسان، إذا اتّبع منهج الهدى، يتطلّع إلى حياة ما بعد الهبوط، واستيعاب مراد الله، لتكون الحياة محققة الأمن والسرور.

المبحث الثالث: فاعلية القيم في الانحلال الأخلاقي: تشخيص، وعلاج:

بناءً على ما قد تمّ بحثه في المبحثين السابقين، نكون في إطار تفعيلٍ مرجعية الوحي المعرفية الكلية، والاستئناس بفاعلية قيمها، لتكون مدخلًا منهاجيًا مرشدًا؛

يُسْتَنَارُ به في معالجة قضايا يفرزها الواقع الإنساني؛ لا حصر لها، بما يحقُّ باستهداء تلك القيم تحقُّق الهدى، وبلوغ النجاة، وفق ما جاء في الحديث الشريف الجامع لمعانٍ كثيرة، وواصفٍ لعلاج ما سيكون من الاختلاف عن القيم، ومخالفة لمرجعية الوحي: فقد روى ابن ماجة عن العرياض بن سارية،^(١) قال: "قال: وعظنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعْيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ فَمَاذَا تَعْهَدُ لَنَا؟ فَقَالَ: تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَيْفِ كَلَّمَا قَيْدَ انْقَادَ." (٢)

ويُصَارُ إلى معالجة الانحلال، والوقاية منه كذلك، من خلال المحاور التأسيسية التقويمية، وانتخاب بعض من القضايا التي تأتي في إطارها؛ لتكون أمثلة لمخالفة الامتثال للمثال القيمي، على أن تكون تلك القضايا نماذج أساسية، تلامس أصول البناء، وتحكم المبادئ؛ وليست هي فرعية، ولا موسوعية، بقدر ما هي تقويمية للانحراف عن الأصول، ومراعية للثوابت، وتندرج في المجالات القيمية، الحاكمة على المجالات الإنسانية، بكل مستوياتها: الفردية، والأسرية، والمجتمعية، والإنسانية العالمية، ويمكن معالجتها في الآتي:

أولاً: منهج التوحيد ومقتضياته الكفيلة بالتأسيس والتقويم:

ويكون في هذا الموضوع توصيف مستويات البيان والاستقامة، ورصد موجبات التقويم، فيما يأتي:

(١) "كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو أَصْحَابَهُ إِلَى الْخَيْرِ وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ الشَّرِّ، وَيَعْظُمُهُمْ وَيَذَكِّرُهُمْ بَيْنَ الْحَيَاتِ وَالْآخِرَةِ"، وهو أمرٌ يدعم ما نذهب إليه من منهجية هذا الموضوع من البحث. الدرر السننية، <https://www.dorar.net/hadith/sharh/> ٦٣١١٩

(٢) موقع إسلام ويب، <https://www.islamweb.net/ar/fatwa/> ٧٢٧٣١، وموقع الدرر السننية، المصدر السابق، ويراجع ما ذُكِرَ في المبحث الثاني من هذا البحث، النقطة "ثانياً".

المستوى الأول: معالم المنهج التوحيديّ وسماته:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ - الذاريات: ٥٦-٥٨﴾، تؤكد مقاصد خلق للمكلفين، وأن الأمر يأتي في إطار إرادة ربّانية، بيدها: الخلق، وتعبيد الناس، ورزقهم، وأنّ الناس من البشر كانوا أمّة واحدة، أي على التوحيد، فاختلفوا، أي عن سبيله،^(١) يبيّنه قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - البقرة: ٢١٣﴾، فالهدى محاولة تصحيحية، تؤكد أمرين:

الأول: تحقّق حاجة الناس للرسالات.

الثاني: أنّها سنّة إلهية.

الثالث: حصول الاختلاف في الناس عن الفطرة-الموحّدة لربّها- سوّغت إرسال الرسل وبعث النبيين، لتوضيح المنهج، وبيان ما أدركته الفطرة منه، فالاختلاف مفارقة المنهج الإلهي، وقد أهبط آدم؛ وقيم التوحيد ومبادئه معه..

الرابع: ختم النبوات والرسالات بإرادة الله بالإسلام العالميّ الذي يؤكد أمرين:

١. عالميّة الأزمة، وتداخل مستوياتها، والاختلاف عن الفطرة، شمل كلّ

عوالم الإنسان ومجتمعاته.

٢. عالميّة المنهج القرآنيّ، وإنسانيّة قيمه، وأنّها دون سواها مقبولة من الله

مرضية منه، وهي فاعلٌ يكافح الانحراف وينمي الاستقامة، كونه إلهياً ربّانيّ المصدر، وفق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - الأنعام: ١٦١﴾، فالاستقامة صفة الرسالة

(١) القيم السياسية العالمية، مصدر سابق، ص ٢٢٠ وما تلاها.

قبل أن تكون حركة فاعلةً ناقلةً، تتحرك صوب الواقع؛ فالدين مستقيم في ذاته، فهو محتوى منهجٍ قويم، مصدره الله المنزه عن النقائص، أكدته الآية.

المستوى الثاني: من مظاهر الانحراف عن منهج التوحيد:

يمكن إدراج بعض مظاهر الانحراف عن منهج الفطرة، منهج التوحيد العالمي، ممثلًا بالخطاب القرآني، من نماذجها في الآتي:

أولاً: هجران المنهج التوحيدي القرآني؛ من لدن متبعية:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا*وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا - الفرقان: ٣٠-٣٢﴾، ضرورة الإيمان بالقرآن وتصديقه، وأنه نازل من الله، واتخاذ منهجه موجّهًا وضابطًا لفعل المؤمنين به من الناس، والامتثال للقرآن وتحكيمه في سائر شؤونهم، خلافًا لمقتضيات التصديق من: قراءته، وتتبع خطابه، واتخاذها إمامًا موجّهًا لأفعالهم وضابطًا لها. (١)

وللهجر مظاهره؛ فمنها: إنكار حقيقة الكتاب، وإنكار نزوله من الله، وعدّه سحرًا، أو أنه كلام بشر مفتري، أو الصدّ عن سماعه، والتريص بالدعاة إليه، وتبني دعوة مضادة إليه، مهما تعددت صورها، أو مسوغاتها، أو ما فيها من بريق الجذب الزائف.

ثانيًا: محاولة الطعن فيه من غير المؤمنين به، لتضررهم من بيان حقيقتهم.

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ* وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ* إِنَّ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنَّ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ - التوبة:

(١) القيم السياسية العالمية، مصدر سابق، ص ١٧٣.

٤٨-٥٠﴾، يرادُ بالأمر: المكائد والحيل، "قلِّبوا لك الأمور" إذا أظهرها خلاف الحقيقة، واستبطنوا ما يريدون.^(١)

ومنه ما تضمَّنه ممَّا يُحدِثُ التذكرة: وفق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا - الإسراء: ٨٩﴾، في القرآن من موجبات الإيمان لمن أراد أن يذكَّر.

ثالثًا: محاولة تأسيس "شراكة دينية" لتذويب عالميته، بدمجه بسواه من التنزيل:

جاء قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ - الأعراف: ١٥٧﴾، بيانًا لتخفيف الشريعة المحمدية، للشريعة الموسوية، وما كان فيها من إصر وأغلال، وهو العهد باتيان ثقال الأمور بمقتضى الشريعة، الذي يسوِّغُه اصطفاؤهم بالكتاب والنبوة-حينها-^(٢) ولكنها نُسخت بتخفيفها، ويسوِّغ التخفيف عالمية الشريعة المحمدية، لتشمل بني إسرائيل الرحمة التي حظي بها مخاطبو العالم، وحظى بنو إسرائيل بالتخفيف كذلك.

١. وجاء الرسول العالمي من خارج دائرة الإصر والأغلال، لتتحقق به رحمتهم، بإعادة التشريع إلى ميزان الفطرة التوحيدية الأولى، لتجاوزها حدود المستوى الأممي، وتحاكي الناس إلى قيام الساعة.

٢. ورگزت الآية في ضرورة متابعة شريعة القرآن، بوصفها شرطًا للتخفيف، ما يؤكِّد ضرورة نسخ الشريعة الموسوية، التي كانوا عليها، ويدخلهم العالمية من باب الرحمة بهم بالتخفيف.

(١) المصدر السابق ص ٨٢.

(٢) القرطبي، (الأعراف: ١٥٧)، وينظر؛ حاكمية القرآن، طه جابر العلواني، ط ١، المعهد العالمي للفكر الإنساني، سلسلة أبحاث علمية (٨)، هيرندن: ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ١٦-١٧.

ورحمة المنهج ويسر شريعته، وقدرته في تحقُّق الاستقامة والهدى للناس كافة، وقبول التوبة، ما يجعل الجميع في دائرة الخطاب القرآني الرحيم، فمظهر الرحمة الشامل في القرآن: استمرار خطابه للناس كافة، بقدرته في احتوائهم، وتقويمهم رحمةً بهم؛ فالرحمة في وسطية الإسلام، وهي سمة اعتدال.^(١)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا - الإسراء: ٩﴾، حديثٌ عن: كنه وظيفة الخطاب القرآني ومحتواه، وأنَّ وظيفته الهدى، فالهدى: هو "نتاج وظيفة المنهج القرآني وقيمه؛ في سلوك الناس"، ولأنَّ محتوى المنهج هو القيم، وُصف القرآن بالمستقيم، وفق قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - المؤمنون: ٧٣﴾، ليكون الهدى متحققًا في الناس، إذا استقاموا عليه، فلا تتحقَّق استقامة الناس كاملةً؛ إلا بتحقُّق متابعتهم المنهج كاملاً، بتحقيق كامل الإيمان به، وتمام النية في متابعتة، وفق دائرة الوسع المرعي في التكليف.^(٢)

ثانياً: الزوجية، وأثرها في بناء المجتمع الإنساني واستمراره:

ويمكن- في هذا الموضوع- توصيف مستويات البيان والاستقامة، في إطار الزوجية، وآثار تفعيل بواعث الاستقامة فيها، ورصد موجبات التقويم، نتيجة الانحراف عنها، والتحوُّل إلى الانحلال بديلاً عن الامتثال، في إطار ما يأتي:

المستوى الأول: وحدة الأصل، ورعاية الزوجية تفعيل للاستقامة:

ومن ذلك، قضايا يمكن مناقشتها في إطار النقاط الآتية:

أولاً: وحدة الأصل:^(٣)

الإنسان من خلق الله، فالناس محكومون بمقصده من خلقهم، وأن يكونوا متميزين في الكون، لتميُّز وظيفتهم الحضارية، وتنبني على خلافة الإنسان في

(١) ينظر رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ضوابطه وتطبيقاته، د. صالح بن عبد الله الفوزان، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ط ١، الكتاب الثلاثون، مكة المكرمة: ١٤١٣ هـ، ص ١٣.

(٢) القيم السياسية العالمية، مصدر سابق، ص ٢٩٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤٦.

الأرض، والانتشار الإنساني جاء لتحقيق غايات الخلافة في الأرض، وأنها وسيلة تجعل للناس كلهم أجمعين "شخصيةً معنويةً"، اسمها "الإنسانية"، لتدلّ على جنس، فتكون الخلافة وظيفة ممتدة امتداد الإنسان، ولا تقف إلا حيث ينتهي الانتشار الإنساني، ويتوقف امتداده، وينتهي تعاقبه، فالمعنى بخطاب الله الإنسان؛ كلُّ إنسان، وعليه السعي وفق منهج حضاري، يشترك فيه كلُّ إنسان فردياً وجماعياً.

ويكشف مشهدُ الجنة، والهبوط منها إلى الأرض؛ بيان أسباب الزل، وأنّ مروّجيه هم أعداء للناس كافة، وأنّ عداوة الشيطان تبلغ كلَّ نشاط إنساني، أنّ مصير الناس واحد، وغاياتهم واحدة، فالتعاون والتكامل والتقارب ضرورات، تؤكّد الجماعة في بلوغ الاستقامة؛ بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

ثانياً: الانتشار بالزوجية، فاعلية الاختلاف:

ويبنى على قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ - النساء: ١﴾، صاحب تسبيح الله ذكر الأزواج، "وتزيه الله عن كلّ نقص وعيب"^(١)، لخلقه الأزواج كلّها، دلّ على أنّ نظام الزوجية من: دلائل وحدة الخالق، ومن بدائع صنعه، التي أتقنها فتزّه بدلالاتها عن عيوب الصنعة، وعن نواقص الخلقة، فالزوجية نظام خلق انعكست فيه آثار: كمال الخلقة وحسنها.

ومنه "تزيه الله عن مشابهة خلقه"^(٢) يجعل الزوجية سمةً للخلق كلّ، والتفرد والتوحيد صفة الخالق جلّ شأنه؛ والتسبيح علاقة جامعة بين: الخلائق الأزواج المنزّهة، والخالق المتفرد المنزّه.

وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ - الذاريات: ٤٩﴾، تذكير في سنّة الزوجية وما يتّصل بها، وأنها صورة أرادها الله، لتنضبط بإرادته، وتخضع

(١) سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، مصدر سابق، ص ٢١.

(٢) الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: جماعة من العلماء، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٤ هـ، ج ١، ص ١٠، وينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمّد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله الزرعي، تحقيق: محمّد حامد الفقي، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م، ج ٣، ص ٤٤٧.

لقيم خطابه الموجه للناس، ومنها أن يجعلوا الزوجية تذكرهم بعهدهم، وبشهادتهم على أنفسهم- وهم ذرٌّ في الظهور- (١) بربوبيته. (٢)

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا ثَمِينًا يُغْنِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ - الرعد: ٣﴾، فالله هو المسخر، والعلاقة هي التسخير، (٣) ويتفرع إلى أمرين:

١. تسخير معاش: بتسخير الأشياء للإنسان، وتتضمنها الإشارة إلى الأكل (٤)، (٥) ومن هذا التسخير ما يسهل التنقل الآمن، بينه قوله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ - الزخرف: ١٢﴾، يسوغ ذكرها في إطار الزوجية استمرار التسخير، وتعاقبه وانتشاره، مع تعاقب الإنسان وانتشاره، وضرورة مراعاة الأجيال القادمة من الذرية، الشريك القادم في التسخير، ولا يكون استنفاذ المسخرات مقبولاً، ما لم يراع الشركاء فيه.

٢. تسخير معاد: للدلالة على الآخرة والحساب؛ ومراعاة القيم القرآنية، الخاصة بالتعامل مع المسخرات، فهو محاسب عليه.

(١) وقال ابن منظور، لسان العرب، "مصدر سابق" ج٤، ص٣٠٤ "الذر الذي هو صغار النمل... وذرية الرجل ولده، والجمع الذراري والذريات". والذراري في الفقه تشير إلى الصبيان والنساء معاً، والمراد فيها الذرية والنساء، وإنما شملت النساء بالغلبة وفق رأي الباحث، ألا ترى أن الموضوع يراد به التمييز بين المقاتل، ومن سواه من خلفه من الضعفاء؟ ودليله: التمييز بين: الأسر للرجال، والسبي لمن سواهم، ولا سيما النساء بالغلبة لأنهم الأضعف بين الصبية والنسوة.

(٢) "العهد الذي أخذه الله على عباده حيث أخرجهم أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ألا تست بربكم فأقروا له بالربوبية وأذعنوا له بالوحدانية"، فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت ج١، ص٩٩.

(٣) من معاني التسخير: "سياقه الشيء إلى الغرض المختص به قهراً"، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (إبراهيم: ٣٤). وقيل إن معنى التسخير اللغوي: التدبير والقهر، معاني القرآن ج٣، ص٦٨٤. "والتسخير هو التذليل وجعل الشيء داخلًا تحت الطوع، قال الراغب التسخير القهر على الفعل وهو أبلغ من الإكراه"، تفسير البحر المحيط، (البقرة: ١٥٨). "وقيل تسخيرها له أي: "تذليلها وتيسيرها وتهوينها له". فتاوى السبكي، الإمام أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، دار المعرفة، بيروت ج١، ص١٠٩.

(٤) وثمة ما يميّز بين الحلال والحرام من المسخرات للإنسان، وقد ذكرت في إطار الزوجية، ومنها ما جاء في قوله: ((خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)) (القمين: ١٠)، فذكر الزوج الكريم دلالة على الطيبات المسخرة لنا، وبمثلها جاء قوله تعالى: ((خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِي تُصْرُفُونَ)) (الزمر: ٦)، فيه التركيز على ما أحل أكله من الأنعام.

(٥) راجع؛ (الرعد: ٤).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ - الحجرات: ١٣﴾، خطاب الناس كلهم، وسبب كثرتهم: ذكراً، وأنثى، وهما آدم وزوجه، لبيان مرجعهم، وهو الاختلاف، وأنَّ اختلافهم شعوباً وقبائل؛ اختلاف تمييز بينهم "أنواعاً" وليس التمايز بينهم أجناساً^(١)، مثلما تميّز: الذكر والأنثى، فالزوج: هو اللون،^(٢) وأنَّ الناس بمختلف شعوبهم وقبائلهم؛ هم من ذكر وأنثى، ونسبتهم إلى الذكر والأنثى أبلغ من نسبتهم لوحدة الأصل، فالتركيز في قضية الاختلاف الذي يميّز بين نوعي: الذكر، والأنثى، وأنَّ الاختلاف النوعي أصل الانتشار؛ والامتداد الإنساني عن ذلك الجنس الواحد، فالاختلاف يدفع إلى التعارف.^(٣)

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ - الروم: ٢١﴾، وصف لعلاقة الزوجية التي تقوم على "الافتقار"،^(٤) الذي يدفع إلى "التكامل"، ولهذا وُصِفَت العلاقة الزوجية بالموَدَّة والرحمة، لتحقيق التكامل، والتعارف، في مستوى الأسرة.

ويأتي قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ، إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ - الليل: ٣-٤﴾، ليربط خلق النوعين آدم وزوجه، بالانتشار الذي يشمل المخاطبين-الناس كافة- في إطار التكليف، وهو سبب الهبوط، بعد تحقق توبة آدم وزوجه، فلا يخرج الناس المنتشرون-بسعيهم- عن ضوابط التكليف،^(٥) التي ضببت سعي أبويهم.

وثمة آثار للسكن النفسي لبناء الأسرة؛ غرزه الله في الناس، فالزوج في أصل خلقته من النفس، وكانَّ ثمة انفصاماً نفسياً شعورياً تشعبه علاقة التزاوج الذي

(١) ينظر؛ التسهيل لعلوم التنزيل، محمّد بن أحمد بن محمّد الغرناطي الكلبي، ط ٤، دار الكتاب العربي- لبنان: ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، (الحجرات: ١٣)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمّد الأمين بن محمّد بن المختار الشنقيطي، (النجم: ٤٥-٤٦)،

(٢) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٩٣؛ وتاج العروس، ج ٦، ص ٢١، والطبري، (هود: ٣٨-٤٠)؛ وتفسير البحر المحيط، (الشعراء: ١).

(٣) القيم السياسية العالمية، مصدر سابق، ص ٢٠٩.

(٤) ومن دلالات الافتقار الدافع للزواج الذي: "يوجب استحكام الألفة والموَدَّة وحصول المصالح الكبيرة"، التفسير الكبير، (الأعراف: ٨١)، وبالافتقار يكون دافعاً "لتميلوا إليها وتألّفوا بها فإن الجنسية علة للضمّ والاختلاف سبب للتنافر"، تفسير البيضاوي، (الروم: ١٩).

(٥) "التكليف هو إلزام ما فيه كلفة كما هو مذكور في أصول الفقه"، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، محمّد بن عبد الرحمن المغربي أبو عبد الله، ط ٢، دار الفكر، بيروت: ١٣٩٨هـ، ج ١، ص ٤١٣.

يعيد ما انفصم بخلق الزوج عن النفس، يعيده مجدداً إليها بالتزواج، فيكون السكن، وهو سكن نفسي،^(١) يؤكد قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا - الأعراف: ١٨٩﴾.

والزواج حاجة مشروعة، لإشباع ميل غريزي، وحاجة أصيلة، ولذا ارتبط السكن بالخلق وليس بالجعل، في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا - الروم: ٢١﴾، فوق ما ذكر في الآية السابقة: ﴿...وجعل منها زوجها﴾، ومن أهميته صارت العلاقة بين النوعين مجال ابتلاء وموضع افتتان، في إطار حقائق الوجود: وسيلة انتشار في المقام الأول.

ثالثاً: قوامة الرجال على النساء:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ - آل عمران: ٣٦﴾، يبين اختصاص كل من النوعين؛ في بعض التكليف، لاختلاف قدراتهما الخلقية، ليس للتفضيل بل للتكليف، فقوامة الرجل على المرأة من باب التكليف المحدد، وليس لتفضيل مطلق، فالقوامة إذا ما روعي الشرع حقوقاً وواجبات تكون،^(٢) والقوامة واجب الرجل برعاية المرأة، دون أن يقابله حق، ومثاله واجب الولي في تزويج البكر، وقوامة الزوج على زوجته تُبني تأسيساً على "المودة والرحمة".^(٣)

والقوامة مسؤوليّة مقابل تفضيلهم بقضايا معيّنة للتأهيل، وطاعة الرجل من العدل لتحمله مهمة القوامة والرعاية، ومؤهلاتها: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ

(١) بخلاف السكن المادي المرتبط بمحيطه وبظرفيه.

(٢) ينظر؛ أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي- بيروت: ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص ٧٣.

(٣) وينظر؛ ضرب المرأة وسيلة لحلّ الخلافات الزوجية، د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان، ط ١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ودار السلام، القاهرة: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ١٩-٢٠.

حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا - النساء: ٣٤﴾: فالرجال ذوو قيام على النساء في تأديبهن بالأخذ بأيديهن، وهي مسؤولية ورعاية، والقوامة بمثابة توكيل من المرأة، لتصريف شؤونها بما فيه صلاحها وصلاح شؤونها، في المجالات التي لا تقوى المرأة على بلوغها، أو لاستقرارها ببيتها لأداء وظائفها الأسرية الاجتماعية.

والقوامة محدودة بأوامر ونواهٍ كثير، منها: بإيتائهن صدقاتهن، والإمساك بهنّ بمعروف، أو تسريحهنّ بإحسان، وما يحفظ لهنّ مهورهنّ ومستحقّاتهنّ الزوجية، والحقوق الآجلة، لتبقى هي ويبقى كيانها، ولا يملك منها إلاّ بضعها، وحقوقها أوسع في الرجل من حقّه فيها.

والقوامة وظيفة أسرية، محكومة بالقرب والتلاحم والموّدة، وغيرته ورغبته في عنايتها، وإلاّ فلن يجد ما يريد منها، ما لم تجد ما تريده منه، فثمة عناية متبادلة بصور مختلفة المستوى والنوع بين الزوجين، تدعم أن تتّجه القوامة صوب الرجل.

رابعًا: الجماعة، ورعاية الاختلاف:

"الجماعية" وما فيها من "رعاية الاختلاف" أمرٌ مرعيٌّ، في مشهد الهبوط إلى الأرض، في قوله تعالى: ﴿فَلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]، تركيز في قضية الجماعة، بأمر الله بالهبوط للجماعة، فالناس أجمعهم مخاطبون بالقرآن، ومعنيون بالهبوط، وبما يترتب عليه، وهم بنو آدم كلّهم، ممّن تحقّق وجودهم في الأرض.

ولم يُلغ خطاب الله-الجماعة الإنسانية- المسؤولية الفردية على أتباع الهدى، لتمتّع المخاطب بالعقل وأدواته، وجعلها شرطًا للابتلاء، فثمة توازن بين الجماعة والفرد في إطار الابتلاء، لضمان حقّ الفرد؛ في الحرّية في الاتّباع، بما لا يتجاوز حقّ الجماعة ببقائها، ومراعاة قيمها الناظمة لها ولأفرادها، وتأكيد حقوق الأفراد فيها في تلقّي خطاب منهج الهدى، وبناء موقف مسؤول منه، يوضّحه التركيز في الفردية بقوله: ﴿فمن تبع هداي﴾، وتأكيد رعاية الحقّ الفرديّ، ورعاية العقل.

وتأتي أهميّة "الجماعية" بتركيزها في العلاقات البيئية للناس، وضرورتها في حياتهم، وكأنّ الجماعية؛ وبناء المجتمع الإنساني؛ شرط لإرسال الهدى، بل وكأنّ منهج الهدى جاء لتنظيم حياة الجماعة الإنسانية، وبمراعاة الناس قيمه الناظمة للجماعة الإنسانية، منظمّة لعلاقاتها البيئية؛ وهو أمر تؤكّده سنّة الله في إرسال الأنبياء والرسل في أقوامهم وأممهم.

ورعاية الجماعة في إطار العالمية قضية مرعية من الخطاب القرآني، وأنّه المنهج الوحيد الذي يحتويها، بعنايته بالجماعة الإنسانية، وبرعايته الإنسان فرداً، على أسس قيمية؛ فتكون "الجماعية" قيمةً كليّةً مولّدة للقيم في إطار العلاقات، تخصّ حال الناس وانتظامهم.

المستوى الثاني: من مظاهر الانحراف عن المستويات الإنسانية:

ثمّة مظاهر كثيرة، تشكّل انحرافاً لا يقبلُ عن مقتضى الاستقامة، وتفتلت عن الانضباط بمنهج القيم المعرفي، فضلاً عن تجاهل مرشداته، ومن بين تلكم الانحرافات:

أولاً: تحويل الإنسان إلى مركز توليد قيمٍ:

هو في ذاته، وفي وجوده، تجاهل لموجده، ومقاصده من ذلك الإيجاد، بل جعلت القيم ومنظومتها منسوجةً بالإنسان مستلهمةً ممّا يتّصل بذاته، وبدنه، وما يشتمله، وما يتّبعه، وما يشعر به، وما ينزعُ إليه بناءً على نوازع النفس وشهواتها، فعُدّ الإنسان هو الذات الفاعلة، وما سواه منفعل به.

وهو أمرٌ يتجاهل ما قبل خلق الإنسان، ومقاصد خلق الإنسان، وعلاقة ذلك بعبادة الله تعالى خالقه، ومستخلفه، وما سخّره له من خلقه، في أرضه، وفق قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ - الروم: ٢٠﴾، جعلنا الآية في مشهد يستحضر آيات الله، وتحديد معالم منهج التوحيد، وآفاق

تفعيله، وقضاياه؛ جعله المقصدَ الأسمى: للوجود وانتظامه، وللإنسان وخلقته وانتشاره؛ فلا بدَّ من استرشاد القيم، والتسليم لحقيقة التوحيد، فمنهج الحق.

فالمنهج التوحيديّ، يجعلُ الإنسانَ شخصَ العالمية التي ينسجها بمتابعته قيم القرآن، والإنسان هو المحقق لها، كونه الفاعل الناسج للعالمية، القادر على نسجها، المنتفع منها، المسؤول عنها، فلامس البحث في هذا المجال: خلقة الإنسان ومادته، وأصله الآدمي، وانتشاره بالزوجية، وتكريمه بالعقل، وتفضيله بالعلم، وتشريفه بالسجود، وتكميله بالاستخلاف، والرحمة به بالتكليف.

وإن استحضَرَ البعض خلقَ الإنسان من الله تعالى، فإنَّه قد يفصل بين ذلك الخلق، وما يريده الإنسان من اختيار نمط حياته، في الأرض المسخَّر ما فيها للإنسان، من غير تفكُّرٍ بمقاصد هذا التسخير، وذلك الخلق.

والأبعد من ذلك إتيانُ ما تستقبحه الفطرة، بحجة حرية الإنسان، وقدرته على الإنجاز، وعلى اختيار صفة إنجازهِ، في إطار وجهته، وميدانه، وعدَّهم ما دون ذلك استعبادًا، وسلبًا لإرادته، بل إلغاءً لإنسانيته.

في حين يأتي ما يصفون، انحدارًا بالإنسان إلى حيوانية، لا تقبلها غير الشهوات، ولا تستسيغها سوى مواضع الملذات.

وبتجاهل وحدة الأصل الإنسانيّ، حُرِّقَ تراخُم الانتساب إليه، وإلى الأسرة المنتشرة، فبدا الاختلاف ميدانًا للتنافس، والتصارع، والاستئثار، حتَّى بات التعالي بين الناس مُسوِّغًا باختلاف القدرات، وبتفاوت سعة الممتلكات، فخرقت ثوابت المساواة في الكرامة، بتركيزهم في متغيّرات الواقع، وتجاوز التساوي الاعتباري، الذي يؤسّس له "جامع الأصل الواحد"، "ورابط الانتماء الأسريّ الآدمي"، "ووحدة الوظيفة الحضارية"، لصالح هدم لوازم تلكم الوظيفة، التي بها سما الإنسان فوق سائر المخلوقات-بتسخيرها إليه أو لتفكُّره-ليكونَ خليفةً في الأرض؛ يُرتجى إصلاحُه لشؤونها وما عليها، ولا يقف عند صلاحِه؛ بعبادته ربَّه جلَّ جلالُه.

ومن نواحي التعدُّد والاختلاف الذي يُعدُّ سنَّةً في الخلق، وآيةٌ تدلُّ على وجودِ الله، وعلى وحدانيّته، وعلى ربوبيّته، صارَ ذاك الاختلاف مجالًا للتفاضل، بديلاً عن التعارف، والذي يكون بمعرفة وحدة الخالق باختلافهم، وليكون الاختلاف

دافعًا: للتراحم وتفعليل الالتزام بمقتضيات التآخي، وحافزًا للتعاون، بما يحقق مراد الله تعالى من استخلاف الإنسان، ويلبي حاجاته ولوازم خلافته، أعني: الاستقرار، والاستمتاع، وحتى حمل الدعوة إلى مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ، ولا خطأبها، وهو ما نتلمس معانيه من دلالات الآيات، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ - الروم: ٢٢﴾.

ثانيًا: تجاهل مقاصد بناء الأسرة بالزوجية:

ومنه الإسراف بتحكيم الشهوة النفسية، وتغييب الميل للزوجية الفطري،
ومنه الانحلال عن رابط الزوجية الأسري:

تبيّن أنّ الله تبارك وتعالى؛ قد شاءت إرادته أن يكون الإنسان خليفةً في أرضه، وقد كان من مقاصده تعالى في آدم وزوجه، الرحمة بهم، ورفع شأنهم بين سائر خلقه، ولذلك قيل: إنّ الله قد أهبط آدم ليكملهُ، لا لينقصه.^(١)

وقد بيّن العلماء الأجلّاء أنّ للشريعة مقاصد عامّة، ومنها "حفظ النسل"، وهو أمرٌ يجعل الزواج فوق مستوى المباح، وقد يرقى إلى الواجب، من حيث "الالتزام الإنساني"؛ إذا صحّ لنا الوصف، وإنّما لم يكن واجبًا لاحتمال غياب الميل والشعور بالحاجة إليه على المستوى الفردي، بما يفرغ الأمر من سببين مبرّزين للزواج الواجب: حفظ النسل والجنس البشري، وإشباع الحاجة في حلال، بما يحقق الاستقامة، ويجتنب الإنسان الانحراف والزلل.

وتأتي مخالفة "الزوجية" من نواحٍ، أبرزها:

أولًا: تحريف أصل الزواج المرتبط بافتقار المختلفين، وميلهما للزواج، بالإقدام على اكتفاء "النوع بنوعه": "إنثاء، أو ذكرًا".

(١) قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: "والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، وإنّما أنزله إلى الأرض ليكملهُ". التنوير في إسقاط التدبير، الإمام ابن عطاء الله السكندري، تحقيق وتعليق: موسى محمد عليّ وعبد العال أحمد عرابي، دار التراث العربي، ص ٦٩، وينظر عالمية الخطاب القرآني-دراسة تحليلية في السور المسبّحات الخمس، مصطفى جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، هيرندن: ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م، ص ٨٠.

ثانيًا: تجاوز الحدّ بطغيان الشهوة الحيوانية، على ما يوافق الفطرة، ويرتضيه العقل، ويقبله الحياء.

ثالثًا: تعطيل الفاعلية الحضارية للأسرة، بالإسهام في التنمية البشرية، وجعلها مهبطًا للإنسان: دون إنسانيته، ودون أداء واجب خلافته.

رابعًا: تعطيل التعاقب بين الأجيال، نتيجة الارتباط الشهواني، الذي لا يثمر تناسلاً جيلاً عن جيل، ولا يحقق انتشارًا.

خامسًا: إفساد البيئة، فيفسد فيها البرّ والبحر معًا، ما يأذن بالخراب.

سادسًا: انتشار الأوبئة.

سابعًا: الإيذان بخراب المجتمعات، وزوال الدول.^(١)

وبعد؛ فإنّ ما يبدو ممّا "عُرِف بالشذوذ الجنسي"،^(٢) وهو إتيان ما لم يُقبَل إتيانه: أنّه يبدأ بما يُعرَف "باضطراب الهوية الجنسية"، وهو الشعور بالتناقض بين جنس الشخص المحدّد بايلوجيًا، وشعوره هو بجنسه-^(٣) إلّا أنّ الإشكالية أنّه تحوّل إلى المكابرة وعدّ ذلك الاضطراب توجُّهًا اجتماعيًا، يشترك فيه نسبة غير قليلة من المجتمعات؛ التي تعاني وطأتها، فباتت تطالِب بتحوّل الثقافة الاجتماعية، والتحوّل حتّى عمّا ألفتُه الفطرة البشرية السويّة، فبات الأمر بمثابة حربٍ معلنة، تستهدف: المجتمع، وثقافته، وقيمه، وحتّى وجوده.

وقد جاء في الحديث: ((إذا استحلّت أمّتي خمسًا فعليهم الدمان: إذا ظهر التلاعن، وشربوا الخمر، ولبسوا الحرير، واتّخذوا القيان، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء)) (رواه البيهقي)، فالانحلال أمرٌ يستوجب دفعه ومجاوبته، حفاظًا على بقاء المجتمع، وهو مصلحةٌ عامّةٌ في الناس، ممتدّة من الدنيا إلى

(١) ومنه ما كان من زوال ملك العرب في الأندلس. ينظر: الانحلال الأخلاقي خلال عهد ملوك الطوائف ٤٢٢-

٤٨٤هـ/١٠٣١-١٠٩٠م، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م.

(٢) لمزيد من التفصيل، ظاهرة الشذوذ في العالم العربي- الأسباب والنتائج والآليات، د. نهى قاطرجي، مجلّة البيان، العدد ٢٧١، ربيع الأول: ١٤٣١هـ. متاح على موقع صيد الفوائد، http://www.saaidd.net/daeyat_nohakatergi/103.htm..

(٣) اضطراب الهوية الجنسية لدى المراهق، سارة بوزغاية، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، ص ١٧-١٨.

الآخرة، وليست هي كما توصفُ مصادرةً؛ لحرّية شخصيّة، أو لدّة تسعدهُ سعادةً حسّيّةً؛ لا حقيقةً لها، بل تجرُّ على مقرفيها الأمراض، والهدم، والخسران.

ثالثاً: تعطيل المسؤولية الجماعية، وعواقبها:

تغييب المسؤولية الجماعية على صيانة ثقافة المجتمع، بتفعيل منظومة قيمه، وإدامة بقائه، بإزالة ما يعترض سيرورته، من المخاطر يُنظر؛ والأمر المهتددة له: كياناً، ومؤسّساتٍ، وأفراداً، وغياب المساءلة، بتغييب المسؤولية الجماعية؛ ينافي ما كان من نشأة الأمة، والانتماء إليها طوعاً؛ إذ لا إكراه في الدين؛ لكنّه يولد ما يوجبُ على الفرد رعايته، من حيثُ التزامه بالحقوق والواجبات؛ وخضوعه للأحكام السائدة، والشريعة الحاكمة، وقبول العقاب على ما يكون من خرقٍ لها.

والجماعيّة ومسؤوليّتها مقيّدان بوظيفةٍ يؤدّيها القائمون على شأن المجتمع المنظّم؛ وبالتالي تتقيّد سلطته بمقاصد نشأة المجتمع نفسه، بما يجعل السلطة مقبولاً قهرها، لكونه من لوازم استقرار المجتمع بتوفيق سلطانه، وفق ما ذهب إليه الماوردي، وقد سردَ سنّةً من تلكم الشروط؛ وهي: دينٌ متّبعٌ، سلطانٌ قاهرٌ، أمنٌ عامٌ، عدلٌ شاملٌ، خِصبٌ دائمٌ، وأملٌ فسيح.^(١)

ليكونَ مفهوم الإمامة-عند الماوردي- بناءً على مقاصدها، بأنّها: ((مَوْضُوعَةٌ لِخِلَافَةِ النَّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا، وَعَقْدُهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا فِي الْأُمَّةِ وَاجِبٌ بِالْإِجْمَاعِ))،^(٢) والإمامة عند عبد الرحمن بن خلدون "حَمْلُ الكَافَّةِ عَلَى مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية، والدنيوية الراجعة إليها"،^(٣) وهو أمرٌ يظهرُ قضايا؛ أبرزها:

الأولى: أنّ قيادة المجتمع، واجبٌ عليها: حراسة الدين، وقيمه، وأحكامه.

(١) محاضرات اتجاهات الفكر السياسي الإسلامي، محاضرات تُلقى على طلبة الثالث علوم سياسية، مصطفى جابر العلواني، بكلية القانون والعلوم السياسية، بجامعة الأنبار، ٢٠٢٢-٢٠٢٣.

(٢) الأحكام السلطانية، الماوردي، الباب الأول "في عقد الإمامة"، ص ١، متاح على موقع المكتبة الشاملة، <https://shamela.ws/book/٨/٢٢٨٨١>.

(٣) كتاب تعدد الخلفاء ووحدة الأمة فقهاً وتاريخاً ومستقبلاً، محمد خلدون مالكي، ص ١٩، متاح على موقع المكتبة الشاملة، <https://shamela.ws/book/٢٣/٩٦٢٣٤>.

الثانية: أن عليها كذلك؛ سياسة الدنيا، بما يصبون المجتمع، والدين جملةً واحدةً.

الثالثة: أن سياسة الدنيا، تأتي على مدار مقاصد مفهوم السياسة في التراث الإسلامي؛ بوصفها-أعني السياسة- "قيادة المجتمع إلى ما فيه صلاحه".

ومما يسوغ واجب الجماعة، بإمامها إزاء الانحلال بمجابهته، ووقف آثاره، أنها تتقيّد بتنمية ما يصلح شؤونها، جماعاتٍ وأفرادًا، ويحرس لها دينها، ويحسنُ سياستها، ويتجلّى في أمرين:

١. أن تكون حراسةُ الدين، العمل وفق منظومة قيمه، ولتكون مصدر

ثقافة المجتمع.

٢. ومنها يؤخذ معيار التمييز بين ما هو صالح ينمّي، وما هو فاسدٌ.

والحمد لله من قبلُ ومن بعد.

البحث العاشر



التحوّل الرقميّ، قراءة في مراحله الثلاث



سماحة الشيخ وائل الظالمي الحوزة العلمية في النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تحاول هذه الدراسة تلخيص أهمّ التحوّلات التي مرّ بها المجتمع في تعاطيه مع الشبكة العنكبوتية خلال العقود الثلاثة الأخيرة، وما أنتجه ذلك من تغيّرات طالت جميع جوانب الحياة بلا استثناء، وتركت أثرًا عميقًا في بنية المجتمع.

تبدأ الدراسة باستعراض الاتجاه العالمي بعد الحرب العالمية الثانية، الذي قرّر فيه المنتصرون تعزيز النموذج الليبرالي الاستهلاكي بدعامتيه الكبيرتين، الثقافة العولمية والأسواق المفتوحة.

ثم تتناول دور الإنترنت في دعم هذا النموذج من خلال مراحل ثلاث يعرفها العالم كقفزات مرّت بها الشبكة العنكبوتية:

أولاً: مرحلة الاتّصال المعلوماتي:

حيث كانت الشبكة العنكبوتية تعبّر عن رغبة الجنس البشري في تناقل المعلومات والبيانات بأسرع الطرق، فكان الإنترنت معبّرًا عن المرحلة التي وصلها العالم فيما بات يُعرّف بعصر السرعة، ويُسهم في دفع الخطوات الليبرالية إلى الأمام.

ثانيًا: مرحلة التواصل الاجتماعي:

حين تحوّلت الشبكة إلى مسرح للصراع، ومساحة للقضايا والهموم الاجتماعية ومكان يستقطب الشباب ويلبّي طموحهم العاطفي، واكتسبت بالتدرّج صفة (واقع) وإن بقي هذا الواقع يحافظ على تصنيف (افتراضي).

ثالثًا: مرحلة التحوّل الرقمي:

في هذه المرحلة، حيث تتّجه الأمور إلى الانقلاب والتحوّل الحادّ، فيصبح هذا العالم الرقمي هو الحقيقي وليس الافتراضي في تأثيره في الأفكار والسلوكيات وفرص العمل.

وتساءلت الدراسة في كلّ من المراحل الثلاث، حول مدى قدرة مجتمعنا العراقي على استيعاب هذه التحوّلات والتعاطي معها بالشكل المناسب، وختمت بضرورة الأخذ بزمام المبادرة من خلال الاعتراف بحقيقتين:

الأولى: تجاوز مرحلة التفكير بالواقع الرقمي كواقع افتراضي يمكن التعاطي معه كخيار بالنسبة للجيل المعاصر.

الثانية: إعادة صياغة مفهوم التربية المجتمعية للأسرة بحسب مقتضيات هذا الواقع.

نسأل الله تعالى التوفيق للعاملين في المؤتمر، وأن تُكلّل جهود الأكاديمية بالنجاح، إنه سميع مجيب.

البحث الحادي عشر



الاعلام الرقميّ المعاصر التحدّيات الإمكانيات الفرص
في منظور الفكر الإسلاميّ



الدكتور جاسم محمد حرجان السدر
كلية العلوم السياسية جامعة بغداد محور
المجتمع الإسلامي والتحديات المعاصرة

ملخص بحث: الاعلام الرقمي المعاصر التحديات الامكانيات الفرص في
منظور الفكر الإسلامي

خطة البحث:

المقدمة، وتتناول أهمية الموضوع وأسباب الاختيار وإشكالية البحث
والمنهج والدراسات السابقة والزيادة على حقل المعرفة وأهم المصادر التي استقى
منها البحث وأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول: الإعلام الرقمي المفهوم الأهداف التحوّلات.

المطلب الأول: مفهوم الإعلام المفهوم الأهمية الأهداف.

المطلب الثاني: التحوّلات الرقمية وتأثيراتها وأبعادها.

المبحث الثاني: تحديات الإعلام الرقمي وإمكانيات التوظيف وفرص
الاستثمار.

المطلب الأول: التحديات.

المطلب الثاني: الإمكانيات والفرص.

الخاتمة والنتائج والتوصيات.

المصادر

الملخص: يُعدّ الإعلام الرقمي المعاصر بكلّ ما يتضمّنه من وسائل تواصل نقلة نوعية عزّزت الاتصال بين سكّان المعمورة تجاوزت الجغرافيا وأصبحت عابرةً للحدود ومؤثّرة في مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة وصناعة الرأي وتبادل الأفكار وتسويق المنتجات وغيرها، مما يتطلّب استيعابًا لمعطياتها واكتشافًا لإمكانات التوظيف وتعزيزًا لجدولة فرص الاستثمار وقايةً من بعض ما تتضمّنه من مضارٍّ وإتقانًا للاستفادة منها على صعيد تعزيز القيم عبر ابتكار آليات برامجية تثور الأفكار الملهمة الدافعة وتبدع في تسويقها لمجتمعاتنا المحلية، أما إذكاء الحوارات مع محيطنا الإقليمي والعالم فيتطلّب إعداد رؤية وآليات تنفيذ تنتهجها الجامعات ومراكز البحوث وهو ما يُعدّ بعيد المنال في الوقت الحاضر نظرًا لعدم الاتفاق على مقارنة تقييم للإعلام الرقمي المعاصر؛ إذ تتعدّد المواقف كما جرت العادة إزاء كلّ جديد بين رافض بشدّة ومُنكر بلا هوادة، وبين موقف أقلّ حدة يُقدّر بضوابط ويوظّف بمقدار، وبين ثالث ما زال في المرحلة الجنينية لم يُولد بعد يتمثّل ببضعة أفراد يحاولون تأثيث رؤية لمقاربة جديدة متعدّدة المسارات، تحترم الرأي المحافظ وتتفهّم مخاوفه وتثمن الموقف الثاني وتدعو إلى تبنيه وتطويره وتنتمي بطبيعة الحال إلى المسار الثالث الذي ينظر إلى الإعلام الرقمي كفرصة ينبغي اكتشاف إمكانات التعامل معها عبر توظيف معطياتها استثمارًا لما تتضمّنه من فرص واعدة لتعزيز التعليم والتواصل وغيرها.

تحديات الإعلام الرقمي المعاصر واضحة بلا ريب في ظلّ تفشي الأمية الفكرية والغيبوبة الرقمية، مما جعل مجتمعاتنا في مهبّ الريح، المحافظون يدافعون وعظيماً ويتمترسون خلف ما تبقى من القيم المختلطة بالأخلاق والتاريخ والتقاليد والبيئات في ضوء غياب نحت منظومة القيم وبرمجتها الحضارية والاكتفاء بالثناء والتمجيد، والعالم يتغيّر من حولنا ومحيطنا الاجتماعي ولاسيما شرائح الأطفال والصبيان والأحداث والشباب يركضون مسرعين لاحتضان ما تقدّمه الميديا/ الإعلام ولاسيما وسائل التواصل الاجتماعي من أفكار وسلوكيات دون امتلاك للوعي الناضج الذي يميّزون به بين غثّ سامّ وحيوي رصين.

أما الوسطيون الإصلاحيون فيحاولون طرح مقارنة تبدو متوازنة تجاه الإعلام الرقمي المعاصر، ولكنهم يتبنون المنظور المحافظ نفسه، فيطرحون بأسلوب أقل حدة نموذجًا للتعامل بقي سجينًا للإنشائيات دون هندسة معرفية تروي شغف المجتمع وشرائحه عبر برمجة واعدة.

أما الباحثون فيرون أن الإعلام الرقمي المعاصر تكمن في أرحامه أجنة الفرص التي تتطلب تثويرًا للإمكانيات المهارية الرقمية تعزيزًا للتعامل نوعي مع مخرجات الإعلام الرقمي، مما يُعدّ مهمة معلقة للجامعات ومراكز البحوث تنتظر الاشتغال الفكري عبر ابتكار مقاربات جديدة تحترم القيم وتدرك بعمق أهمية الإعلام الرقمي وتتبنى اكتشاف الإمكانيات الرقمية وتطويرها وتجدول الفرص وتستثمرها بذكاء.

خرج البحث بمجموعة من النتائج أهمها:

- جدولة تحديات الإعلام الرقمي المعاصر واستيعابها
- اكتشاف نقاط الضعف وتقويتها
- تحديد نقاط القوة وتوظيفها
- البحث عن الفرص وابتكار استثمارها

التوصيات:

- نحت وتأثير منظومة القيم وبرمجتها عبر مناهج التعليم والإعلام
- دعم المهارات الرقمية الشبابية عبر فتح مراكز التأهيل الرقمي.

خالص الامتنان لإدارة المؤتمر والقائمين عليه والجهات الراعية.

البحث الثاني عشر



في محور الاعلام الرقمي والمجتمع المعاصر



الدكتور حيدر جلوخان

المشرف العام على مجموعة قنوات كربلاء الفضائية

بسم الله الرحمن الرحيم، حقيقة بداية أشكر الإخوة القائمين على هذه الجلسات النقاشية كما أشكر الإخوة الذين دعونا أن نكون جزءًا من هذه الندوات وإعطاء ما لدينا ولو بشكل مختصر وسريع عن هذه الورقة البحثية.

موضوع الإعلام الرقمي، بداية لماذا سُمِّي الإعلام بالإعلام الرقمي؟ ولماذا ارتهن موضوع الرقم بهذا النوع من الإعلام؟

سأعرج بسرعة على مبدأ، سابقا كان الإعلام يُسمَّى الإعلام، طبعًا هو مقابل الرقمي يوجد الإعلام الذي كان يُستخدم في المنحنيات هو الأنلوب الذي كنا نشاهده بشاشات التلفاز القديمة والتي كانت تحتوي على ما يسمى باللمبات، ولكن مع تطوّر العلم تحوّلت شاشة التلفاز التي كانت تزن أحيانًا ٢٠ أو ٢٥ كيلو إلى كيلو أو كيلو ونصف.

بحكم الإعلام الرقمي توجّه الباحثون عبر سنوات البحث إلى تحويل الأنلوب إلى الديجيتال، ماذا نعني بالديجيتال؟ هو استخدام لغة خاصّة بالأرقام علمًا هنالك عدة لغات للأرقام، هناك لغة الهكسادمسل والدمسل والأوكتل، ولا أحبّ أن أخوض في تفاصيلها، ولكن ما تهمني هي لغة البايزي التي تتكوّن من رقمين فقط هما (الزيرو والون) (صفر واحد)، ولذلك تلاحظون بعض الإعلانات أو بعض الأمور التي تتطرّق إلى الجانب الإلكتروني يستخدمون ضمن الدعايات أو ضمن مناهجهم أصفار وواحدات هذه اللغة التي تتكوّن من هذين الرقمين، هي الآن تدير هذا العالم الذي سمّيناه الافتراضي أو الواقعي أو هو الإعلام الرقمي.

تطرق الإخوة إلى موضوع الإدمان وأنا سأخذ بعض النقاط أحاول أن أكرر بعض المعلومات التي وردت وأحاول أن أربطها بالجانب البحثي، تطرق الإخوة إلى موضوع الإدمان وأهمية الإدمان، وكان الدكتور حقيقة أعطانا معلومات قد تكون غائبة عنا بوصفنا شبه بعيدين عن هذا المجال، ولكن أنا أجد الإدمان الإلكتروني أو إدمان الإعلام الإلكتروني هو أشدّ خطورة من الإدمان الذي يستخدم الموادّ المُدمِنة، لماذا؟

لأنه، كما أعلمنا الدكتور، هنالك أعراض تظهر على المدمن كتوسّع الحدقة كالحالة النفسية كتصرفات... إلى آخره، ولكن مدمن الإعلام لا تظهر عليه هذه الأعراض البدنية، نعم تظهر عليه الأعراض النفسية التي ليس من السهولة على الآباء أو الأمّهات في البيت أن تكتشفها، أنا أعتقد أن الإدمان على استخدام الأجهزة الحديثة وبالتحديد جهاز الموبايل اليوم أصبح أكثر خطورة من استخدام الكريستال أو غيره من الموادّ التي تسبّب الإدمان، فأرجو أن تكون لدينا سلطة وإن كان أن أضعها بين قوسين لأنه لا توجد سلطة من الآباء والأمّهات للأبناء في استخدام هذا الجهاز عدا زيادة في التربية وإعطاء المعلومة بأن هذا جيد وهذا سيّء، وكما قال أيضا الدكتور نحن نتميّ أن يكون أبنائنا يترّبون بتربيتنا ويأخذون منا، ولكن نحن لسنا المسيطرين الوحيديين، قد تكون سيطرتنا على أبنائنا هي أقلّ بكثير من سيطرة خارج المنظومة قد تكون أجهزة الموبايل أو ما يشاهدونه في المدارس أو الجامعات، طيّب، لماذا أصبحت اليوم هذه البرامج التي تُسمّى ببرامج التواصل الاجتماعي هي الأكثر تداولاً عند الناس؟، نعم، قد تكون نسبة الشباب لديها عالية، ولكن هذا لا يعني أن باقي الأعمار لا تستخدم هذا الجهاز، ولدينا في تجربتنا في إعلام مجموعة قنوات كربلاء الفضائية أكثر من دليل على ذلك، والسبب التوجّه في الوقت الحاضر إلى المعلومة القصيرة السريعة، سابقاً كانت الوجبات الغذائية تكون بمجمع العائلة ومرتبّة بثلاثة أوقات قد تكون في الفطور والغداء والعشاء، لكن اليوم ترى ما يُسمّى بالوجبات السريعة هي أكثر انتشاراً من الوجبات الطبيعية، إذًا هنالك تحوّل من موضوع الاعتماد على وجبات كثيرة إلى وجبات سريعة.

البحث الثالث عشر



مقدمة في اصلاح الخطاب الديني



سماحة السيد مضر الحلو
الحوزة العلمية في النجف الأشرف

يتمحورُ الحديث عن اصلاح الخطاب الديني في محورين:

الأول: يمتلك الخطاب الديني عموماً تأثيراً مباشراً على جمهورٍ عريض في المجتمع الإسلامي، وهو أكثر الخطابات سماعاً ومتابعة واهتماماً به. خصوصاً بعد صعود تيار الإسلام السياسي للحكم في أماكن عديدة من العالم الإسلامي زوده بطاقةٍ اضافية، وأتاح له مساحةً من الحرية أوسع.

أما تأثيره على مريديه وهم شريحة اجتماعية واسعة فيكفي أن خطبةً دينية واحدة يمكن أن تؤدي إلى انهيار السلم المجتمعي، وتمزق الانسجام والتعايش في مجتمع ما، بالأخص المجتمعات التي تعاني من انتشار الأمية وتفشي الجهل وتوطن الخرافة، والتي تعيش حالة من الضعف والهشاشة في نسيجها الاجتماعي كما هو الحال في مثل الواقع العراقي حالياً،

هنا تكمن خطورة موضوعة الخطاب الإسلامي وأهميتها.

الثاني: تجتاح الخطاب الإسلامي حالةً من الرثاثة والهبوط ربما غير مسبقين. فهو جزء لا يتجزء من الواقع الإسلامي المأزوم والمتردّي جراء ما يعانيه من أزمت حادة في الثقافة، والوعي، والمستوى العلمي، وغيرها. وما الخطيب والخطاب الا نتاج المجتمع ينهض بنهضته ويتعثر بالفشل حال فشله، كما ينعكس ذلك على

تخلف المجتمع على الصعد كافة كالتربية والتعليم والصحة والزراعة والصناعة وغيرها.

أسهم تسنم التيارات الدينية مقاليد الحكم في بعض البلدان الإسلامية بتدني مستوى الخطاب الديني بعد أن أصبح رهان السياسة الجدد في التشبث بالسلطة والنفوذ على ما يحققه لهم هذا الخطاب من تغيير وعي الناس، والتلاعب بسلم أولوياتهم من خدمات في الصحة والتعليم والامن وغيرها فتحقق للحاكم بأمر الله الجديد ما كان يأمله من الخطاب بعد أن منحه الشرعية وجعله خارج نطاق المسائلة، فلا يُسئل عن تقصيره ولا يُحاسب على فساده، بل لا يتوقع منه أحد انجازاً مادام هو الحامي للعقيدة والحارس للدين والمذهب. ولذا كانت أبرز سمات هذا الخطاب التخلف وازدراء العقل واقصائه لصالح الخرافة، والمنامات، والقصص الخيالية، ونشر الكراهية بين اتباع الطوائف والإثنيات في المجتمع الواحد ما أوجد حالةً من الاستقطاب أتاحت لهؤلاء السياسة التفاف الناس حولهم والقبول بهم على كل حال ما جعلهم يمسكون بالسلطة رغم كل ما هم عليه من فساد، وتقصير، وفشل فاضح.

تبنّت الأحزاب الدينية القابضة على السلطة في أكثر من بلد في العالم الإسلامي هذا المستوى من الخطاب وشجعتهم رغم عدم إيمانها به، واستهجانها له في أروقتها الخاصة، وفي أدبياتها أيضاً لكنها بذات الوقت منحتهم إمكانات هائلة استحوذت عليها جراء سلطتها التي بسطتها على وسائل الاعلام كالفضائيات وسواها من منابر إعلامية، ما أدى إلى انحسار الخطاب العقلاني المسؤول، والمعتدل وبالتالي تهميشه وإقصائه، وتسيد الخطاب المأزوم، المنفر للآخر.

ظلت أزمت هذا الخطاب تتفاقم، إذ يكفي أن ترمي ببصرك إلى كل زاوية من العالم الإسلامي لتدرك حجم التدهور وتكتشف فداحة الانهيار وتقف على الهوة السحيقة والمفارقة الهائلة بين هذا الخطاب وبين مآلاته "لقد وصلنا إلى درجة مخيفة، إذ توطن وحش الكراهية قلوب جماعات من الشباب في مجتمعاتنا، فأضحى مرضاً يبلغ مرتبة تفوق قدرة الكائن البشري على التحكم به، وتفاقم هذا المرض بنحو تغلغل فيه العنف وتشبعت به الذات، فتبدّى في لغتهم وأصواتهم وأجسادهم ومواقفهم، وفشلوا في إخفائه مهما حاولوا أن يغلفوه ويتكتموا عليه.

أعرف شبابا ممن يتفانون في تلوين سلوكهم بصورة مشرقة، ويحاولون تقليد ومحاكاة سلوك شخصيات مسالمة دافئة وديعة، لكنهم يفشلون في التغلب على عدوانيتهم المتجذرة، وكراهيتهم لكل شيء من حولهم، فصاروا كأنهم قنبلة موقوتة تتفجر عنفا، مع أول تماس بأي كائن بشري". (د. عبد الجبار الرفاعي، الدين والظماً الأنطولوجي، ص ٩٨).

ما يلفت النظر في عالمنا الإسلامي ويميزه عن غيره، كثرة خطب الوعظ والارشاد، والوعد والوعيد، مع تعدد واختلاف القنوات الاعلامية التي تكفلت نقلها وبثها من خطب جمعة إلى خطب المناسبات كالاعياد وغيرها أضف إلى خطب شهر محرم وشهر رمضان وباقي مناسبات أهل البيت (ع) عند المسلمين الشيعة فلا يكاد يمر يوم الا ويستمع المسلم فيه إلى خطبة على الاقل، لكن في المقابل تجد هذه المجتمعات ذاتها يعصف بها الفشل، وتمر بحالة من التقهقر والنكوص في كل ما هو ايجابي وبتاء مع طغيان الظواهر السلبية كانتشار الايتام في الشوارع وتسللهم من مقاعد الدراسة (حيث بلغ عدد الايتام في العراق مثلا ٥ مليون حسب احصائية اليونسيف الصادرة في إبريل ٢٠١٧ منهم نصف مليون مشرد في الشوارع بدون مأوى يحصل هذا في بلد وصفت ميزانياته بالانفجارية ولكنها لم تستوعب هؤلاء الاطفال)، إلى تفشي الرشوة، والفساد المالي بأسوء صورته، وضعف ملحوظ بالخدمات، وغياب المسؤولية. وحيث كنت أدون هذه السطور صدرت إحصاءات ومسوح عن القمة الحكومية العالمية المنعقدة في دبي تقارير رسمية تشير إلى تراجع كارثي في التنمية البشرية حيث أظهرت النتائج فيما يخص العالم العربي أن ١٣.٥ مليون طفل عربي لم يلتحقوا بالمدرسة عام (٢٠١٦).. ٣٠ مليون عربي يعيشون تحت خط الفقر.. تريليون دولار كلفة الفساد في المنطقة العربية.. ٥ دول عربية في قائمة العشر دول الأكثر فسادا في العالم.. ٢٠ ألف كتاب فقط ينتجها العالم العربي سنويا أقل من دولة مثل رومانيا.. ٤١٠ مليون عربي حظهم ٢٩٠٠ براءة اختراع فقط أقل من كوريا حيث أنجز ٥٠ مليون كوري ٢٠٢٠١ براءة اختراع، أما الإرهاب والحروب والفتن الداخلية فللعرب والمسلمين الحظ الأوفر منها فرغم أن العالم العربي يمثل ٥% من سكان العالم إلا أنه يعاني ٤٥% من الهجمات الإرهابية عالميا، ٧٥% من اللاجئين عالميا هم عرب..

٦٨% من وفيات الحروب عالميا عرب.. من عام ٢٠١١ حتى ٢٠١٧ خسائر بشرية تصل إلى ١.٤ مليون قتيل وجريح من العرب.. من عام ٢٠١١ حتى ٢٠١٧ تم تشريد ١٤ مليون عربي.. من عام ٢٠١١ حتى ٢٠١٧ تم تدمير بنية تحتية بقيمة ٤٦٠ مليار دولار.. من عام ٢٠١١ حتى العام الحالي ٢٠١٧ خسائر في الناتج المحلي العربي بقيمة ٣٠٠ مليار دولار. (القمة الحكومية العالمية التي انعقدت في دبي بتاريخ ما بين ١٢ و ١٤ فبراير عام ٢٠١٧).

فقد الخطاب الديني في هذه المجتمعات تأثيره الإيجابي الذي يمكن أن يسهم في منع أو تحجيم هذه النتائج الفجائية، والأمراض الفتاكة، والظواهر المدمرة، والسؤال الذي يطرح نفسه بجدارة: لماذا لم يتأثر سلوك أفراد المجتمع المسلم بهذا الخطاب خصوصا هو لا يبرح: قال الله تعالى، وقال رسول الله (ص واله)، وقال الامام (ع)، في مجتمع يفترض أنه الاشد تمسكا بهذه المقدسات واحتراما لها؟

لماذا أصبح قوت اليتامى، والفقراء مستباحا للطبقة الحاكمة، وللأقوياء؟ لماذا لم يعالج هذا الخطاب الفساد، وموجات الكراهية والاحقاد والكذب والنفاق والغش و... الخ؟ لماذا فشل هذا الخطاب غالبا في بناء مجتمع صالح عبر تربية أبنائه على قيم المحبة، والتسامح، وحب الخير، والصدق، والامانة، والنصيحة، والحرص على الصالح العام، وروح الانسانية، والمسؤولية، الخ؟ وفشل في بناء الايمان بالله تعالى في النفوس قبل كل شيء؟.

بكل تأكيد ليس الخطاب الديني وحده من يتحمل مسؤولية كل ذلك الفشل بل هي مسؤولية تضامنية يتحملها معه أكثر من طرف، الدولة أولا بوضع المناهج التربوية الملائمة للأطفال في المراحل العمرية الأولى، والاعلام بكل تلوناته.

أسباب فشل الخطاب الديني المعاصر:

يمكن إيكال إخفاق الخطاب الديني المعاصر في تحقيق أهدافه إلى جملة أسباب تشكل جميعها أبرز ملامحه الحالية، أذكر منها:

١- الأسلوب التربوي الخاطئ الذي يعتمد عليه الخطاب الديني بصورة عامة

حيث يجري التركيز عادة على الشعائر والطقوس يقابله إهمال واضح لمبادئ الاخلاق، والقيم الروحية. يضح فضاؤنا الإسلامي ويزدحم بالخطب التي تشكل محوريّتها العبادات وخاصة الصلاة: أجزاءها، شرائطها، أركانها، ما تصح به وما يفسدها، كيف تتم عملية إصلاح الخلل فيها؟ ما هو فضلها؟ وعقوبة تاركها؟ الالتزام بأدائها في أوقاتها، وهو مهم بحد ذاته، لكن في ذات الوقت لم تحصل موضوعة الاخلاق والقيم الروحية من الاهتمام في ذات الخطاب إلا على مساحة لا تكاد تلاحظ. فهي تقع على الهامش من إهتمامات الخطيب الإسلامي. أضحى مآل ذلك أن تولدت لدى الفرد المسلم قناعات نرى تشوهات الفضيعة في سلوكه، أقصته عن قيم الانسانية، وأبعدته عن الحياة الروحية، يتجلى ذلك بوضوح في استعداده لبذل الأموال الطائلة في بناء المساجد والحسينيات لكنه ذاته يحجم عن الانفاق لتكفل يتيم مثلاً، أو تبني إرجاع طفل إلى مقاعد الدراسة بعد أن تسرب منها جّراء فقر عائلته، أو إشباع بطن تصارع الجوع، أو دعم مشروع خيري يمكن أن ينقذ حياة انسان، أو يساهم في التخفيف من آلامه.

صار المسلم في الغالب يتقن صلاته لكنه لا يتورع عن الكذب، ويتم صيامه بأجزائه

وشرائطه لكنه لا يؤتمن على المال العام، ويسعى سنويا إلى الحج وهو ينضح حقداً، ويفيض كراهية وعداءً لمن يختلف معهم ومن لا يختلف أحياناً.

حدث ذلك بعد أن لّقنه هذا الخطاب رسالةً وإن كانت غير مباشرة مفادها إن ما تؤديه من طقوس وشعائر فحسب هي السبيل لإحرازك رضا الله ووصولك إليه تعالى وفوزك برضوانه أما القيم الاخلاقية فمسألة هامشية، تأتي بدرجة ثالثة أو رابعة من حيث الاهمية، خلاف ما أشار له رسول الله (ص واله) بقوله: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، إذ اعتبر الأخلاق هي السبيل الموصل الى السماء، وكل ما سواها كالعبادات وغيرها إنّما هي روافد تصب في نهر الأخلاق لتثريه وتديم تدفقه وحيويته، وقد أثرى القرآن هذه المسألة كي يكرّس الحالة الروحية عند الانسان المسلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ - العنكبوت: ٤٥﴾. فما تشريع الصلاة إلا لكي تنهى عن الفواحش والمنكرات، وفي الحديث عن النبي (ص واله):

(من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلا بُعداً) وما الفحشاء والمنكر سوى رذائل الاخلاق، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ - البقرة: ١٨٣﴾. والتقوى من أجلى القيم الروحية التي يمتنع معها الانسان وينفر من ارتكاب الرذائل، ويدنو كثيرا من التحلي بالفضائل، وحين يذكر القران الكريم فريضة الحج يتبعها ما يترتب منها فيقول تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ۗ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ - البقرة: ١٩٧﴾. إذن فريضة الحج ترويض للمسلم كي يتجنب مصفوفة من الاخلاق السيئة، بذات الوقت يتحلى بالاخلاق الايجابية الصالحة.

كالتقوى وفعل الخير، وكذلك ما ورد في شعيرة الزكاة، اذ قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) فالغرض من الزكاة أن يتطهروا من كل رجس أخلاقي، ويتزكوا من كل رذيلة.

مراجعة سريعة لحركة الأنبياء في القران الكريم تكشف أن البعد الاخلاقي هو المهمة العميقة للأديان، وفي الصميم من حركتهم، والهدف الاسمي الذي كانوا يبشرون به. هذه بعض النماذج، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ يَنْ - الهود: ٨٤﴾، جاءت الاخلاق بعد التوحيد مباشرة في دعوة نبي الله شعيب (ع) قومه، وهكذا مع دعوة لوط (ع): ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) - العنكبوت: ٢٩﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ - البقرة: ٨٣﴾، ولم تكن دعوة نبينا الكريم محمد (ص واله) بعيدة عن هذا الخطاب قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَالْبِالُغَاتُ حُسْنًا ۚ وَلَا تَقْتُلُوا

أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ - الانعام: ١٥١ ﴿﴾.

الخطاب الديني المعاصر أهمل غالباً هذه الأهداف التي تحكي مقاصد الشريعة وروح الدين، ما يحتم على الخطيب الديني أن يتبنى المنهج القرآني ويضع المسألة الاخلاقية في سلم أولوياته، تسير جنباً إلى جنب مع العبادات فلا يتقوم أحدهما الا بالآخر معتبراً ذلك ضرورة تربوية تفضي إلى خلق مجتمع أخلاقي حيث أن حاجة المجتمع لأخلاق الفرد لا تقاس بحاجته لعبادته فهذه الأخيرة له وحده هو ينتفع بها، يتسامى بها روحياً، ينال بها القرب والانفتاح على الله تعالى، أما أخلاقه فتشرك كالشمس على الجميع، يستوعب دفؤها القاصي والداني، الكل ينتفع منها، وقد نبه النبي الأكرم (ص) على ذلك في قوله: لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطننتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة.

٢- اضحى الخطيب الإسلامي غالباً يخوض في كل شيء إلا جوهر الدين وروحه، يتحدث عن مفردات خير ما يقال عنها أنها جزئية هامشية ليس لها أولوية في حاضر المجتمع أو مستقبله، ولا هي من صلب الدين، متجاهلاً تشييد الحالة الروحية الإيمانية، وتشييد العلاقة مع الله تعالى على أساس الحب وحضوره تعالى في قلوب المؤمنين، وما يتجلى عن ذلك من قيم روحية، ومبادئ إنسانية كالمحبة، والتسامح، وحب الخير للآخر، والرحمة، وهو بذلك يستبدل اللباب بالقشور، والجوهر بالعرض، والمضمون بالشكل، ويرسل - من حيث يقصد أو لا يقصد- رسائل خاطئة لمستمعيه مفادها أن هذه العرضيات والشكليات تمثل حقيقة الدين وغايته، حيث يكفي للوصول الى الله التمسك بها، فأضحى أفراد المجتمع بتأثير هذا النوع من الخطاب قشرياً، سطحيّ الوعي، ساذج الثقافة، يعاني من خواء داخلي، يتهالك على التمسك بالظواهر، تمتلئ بهم المساجد أيام الجمععات والأعياد، وبذات الوقت تمتلئ بلدانهم تخلفاً وفساداً، يؤمن بكل ما يطرق سمعه من أفكار مهما بلغت درجة سذاجتها.

٣- الاعتقاد الشائع خطأً لدى غالبية عظمى من الناس، أن الخطيب الديني إنما ينطق عن الله، فهو وكيله والناطق الرسمي باسمه، وحلقة الوصل بينهم وبينه، والمتحدث نيابة عنه، وفي هذا السياق جاء مَنْ لا همَّ له سوى تحقيق مصالحه، وبسط نفوذه للإستحواذ على الهيمنة والقوة والمال. مكرّساً هذا الفهم الساذج في وعي الناس، ومؤكداً عليه ليفتح الباب على مصراعيه في أن يقول ما يشاء مما لا يقبله عقل ولا منطق، ومما لا شاهد عليه من كتاب الله أو سنة النبي وأهل بيته الكرام (ع)، ويخوض في ما لا دراية له به ضامناً قبول الناس به، وإيمانهم المطلق بما يقول فضلاً عن أن يفكر أحد بالمجازفة بنقده أو الاعتراض عليه ومسائلته.

٤- ولع غالبية الخطاب الديني بلغة التهديد، والوعيد، والتخويف، والارعاب، حد الإفراط. أسهب هذا الخطاب في تفاصيل لا حجة له بها متكاً على روايات ضعيفة مهجورة، وقصص خيالية من قبيل عظم حجم الحيات والعقارب التي ستنهش لحم من يذنب ذنباً مهما كان صغيراً، وسيسلط عليه أنواعاً من العذاب لو سلط على أهل الدنيا لضجوا منه! يحسب أنه بكثرة تهديده ووعيده إنما يكرس الحالة الروحية، ويثري الحياة الأخلاقية، ولم يدرك أصحاب هذا النوع من الخطاب أنهم بذلك إنما يخرجون الله من قلوب الناس ليرسخوا مكانه الكراهيات، ويفشوا فيه التعصبات، وستكون طاعتهم له تعالى قائمة على أساس الرعب منه لا محبته، والخوف من قسوته لا رجاء رحمته. نعم الخوف مع الرجاء هما أحد الخطوط المتقابلة في نفس المؤمن تنظمان مسألة الطاعة لله تعالى، ولكنه أي خوف؟ إنه خوف المحبة لا خوف الرعب وشتان بينهما، خوف من يحرص أشد الحرص أن لا يشهد منه حبيبه مايسوؤه، لاخوف من يتوعدك أن يظفر بك وهو جبار السماوات والارض الرحمن الرحيم، والقوي القادر، وأنت في أضعف حالاتك، أعزل لا حول لك ولا قوة ليصب عليك جام غضبه فيذيبك أصنافاً من العذاب ما لو عُرض بعضه على الدنيا لضج أهلها من هولته! ناهيك ما يمارسه بعض من تضيق حريات الناس -أعني الحرية بحدودها المشروعة- إلى حدود قصوى، ما أنزل الله بها من سلطان. لدرجة أن بعضهم اعتبر أن مفهوم الحرية دخيل على الإسلام!

متناسين أن ذلك إنما يسهم إسهاما مباشرا في تشويه صورة الله الرحمن الرحيم عند المسلم، إضافة إلى تآزيم علاقته بربه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۗ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ - الزمر: ٥٣﴾. ورد في الاثر عن الامام امير المؤمنين (ع) قوله: (ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله).

أنهك هذا الخطاب المفرغ من المعنوية أرواحنا، واستنزف قلوبنا، وعمل هذا الخطاب على رسم صورة مفزعة لله تؤدي إلى الغرق في القنوط والقلق والخوف، وكأن الإنسان المؤمن في معركة مزمنة مع الله. (ليست المهمة الأصلية للأديان رسم صورة مرعبة لرب العالمين، وتحويل صورة العالمين - الدنيا والآخرة- إلى سجون أبدية ووضع الكائن البشري في قلق متواصل، وزرع الخوف في قلب الإنسان مما سيفضي إليه مصيره في القبر وعذابه، وجحيم العالم الآخر). د. عبد الجبار الرفاعي، مصدر سابق ص ١٨٠).

شاء الله تعالى أن تكون علاقة المؤمن به مشيدة على أساس من المحبة وحسن الظن ﴿...يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ... - المائدة: ٥٤﴾. قال تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ... - البقرة: ١٦٥﴾، كما عمل هذا الخطاب المأزوم على تفرغ الدين من قيمه الروحية كمحبة الخلق، وحب الخير لهم، والتوق إلى الجمال، والرحمة، والتسامح ليحل محلها القبح والكراهية والاحقاد والعداوات وسوء الخلق.

٥- يراهن كثير من المتصدين للخطاب الديني - من الذين أصبحوا نجوما على الفضائيات - على ما يدره خطابهم الطائفي المأزوم المتسخ بسباب الاخر والنيل من مقدساته ولعن رموزه من الشهرة والمال إضافة إلى السلطة الروحية بأيسر الطرق وأقلها جهدا، وهؤلاء عادة ليس لهم حظ من تحصيل علمي جاد، ولم يتحلوا بثقافة عامة، فصار هذا الخطاب بضاعتهم الرائجة في المجتمعات الإسلامية في السنين الاخيرة. مخالفين بذلك سيرة آل بيت رسول الله ص، ضاربين بها عرض الجدار، فقد ورد عن الإمام الرضا (ع) وقد سأله ابن أبي محمود: يا بن

رسول الله، إن عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين (ع)، وفضلكم أهل البيت، وهي من رواية مخالفيكم ولا نعرف مثلها عنكم، أفنديين بها؟ فقال: يا بن أبي محمود، لقد أخبرني أبي عن أبيه عن جده (ع) أن رسول الله (ص واله) قال: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس، ثم قال الرضا (ع): يا بن أبي محمود، إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة: أحدها: الغلو، وثانيها: التقصير في أمرنا، وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفروا شيعتنا ونسبواهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوا فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - الانعام: ١٠٨﴾، يابن أبي محمود إذا أخذ الناس يمينا وشمالاً فالزم طريقتنا، فإنه من لزمنا لزمناه، ومن فارقنا فارقناه، إن أدنى ما يخرج الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة هذه نواة، ثم يدين بذلك ويرأى ممن خالفه. يابن أبي محمود، احفظ ما حدثتك به فقد جمعت لك فيه خير الدنيا والآخرة.

يلاحظ أن السمة البارزة لهذا الخطاب هي العدوانية تجاه الآخر المذهبي أو الديني، مفترضا على الدوام وجود عدو، وخصم لا بد من مواجهته، "وعادة ما تتلفح هذه الخطابات بغطاء، يصاغ عبر شعارات استنهاض واستغاثة تثير المشاعر، وتوقد العواطف، وتحرض على الانخراط في عداوات وحروب باسم الله، والعقيدة. ما خلق شرخاً في الأمة يتعذر رتقه في الأمد المنظور، ورسم حواجز منيعة بين إنسان وآخر سواء بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين الآخرين. إضافة إلى زعزعة ونسف أسس العيش المشترك، كان أحدهم في خطبة عامة تبث على الفضاء يصنّف شريحة من شرائح المجتمع (الکرد) أنهم قوم من الجن يكره التزويج منهم! معتمداً على مرويات ضعيفة لم يُقم لها العلماء المتخصصون وزناً، إذ بناء عليه يلزم عدم تكليفهم الإنس! أسوق ذلك على سبيل المثال وإلا فالشواهد أكثر من أن تحصى.

٦- أحد الأسباب الهامة لابتعاد الخطاب الديني عن التأثير في اصلاح المجتمع كونه خطابا تبجيليا، تنزيهيا، تمجيديا، تزلفيا في الغالب، يُقرّ الناس على أخطائهم بل يمتدحهم عليها إرضاء ومداراة.. يبتعد الخطيب فيه عن كل ما يجعلهم يستأوون منه وبالتالي ينفضون عنه، يخشى ممارسة نقدهم في حال جانبوا الاعتدال في تمثلات الدين وتطبيقاته، لا يؤشر على عاداتهم السيئة وممارساتهم الخاطئة، وشعائهم الدخيلة بل هو مواضب على كيل المديح لهم وأنهم الافضل من بين الامم على ما هم عليه من أخطاء، أو جهل وتخلف، وأنهم الناجون الوحيدون يوم القيامة، وما خلقت الجنة الا لهم! لا لأنهم يعملون الصالحات بل لأن أجسادهم فيها شيء من أجساد أئمة آل البيت (هكذا كان يخاطب احدهم مستمعيه)، إذ تتغذى أجسادهم على ثمارٍ بدورها تغذت على أجساد أئمة أهل البيت!، وأن كل شيء فيهم مختلف عن غيرهم، ألا ينظرون إلى طيب ريحهم؟! ألا ينظرون إلى مناخهم فإنه حار في الصيف بارد في الشتاء!! هكذا كان يخاطبهم، لا أدري بَمَ يمتاز هذا المناخ عن غيره؟ فهل هناك مناخ بارد في الصيف حار في الشتاء كما نعتبر أن الله قد ميزنا على غيرنا؟! ويستمر بإسلوب التبجيل: أطيب الثمار بالعالم ثماركم، أطيب اللحوم لحوم أغنامكم، ولكن كل هذا لا يكفي، فاختم حديثه بقوله: أنتم في كل شيء أطيب!. أترك للقارئ اللبيب تقدير مدى خطورة هذا النوع من الخطاب على مجتمع يعاني تفشي الكثير من الامراض والعاهات المزمنة جراء السياسات الظالمة للأنظمة الاستبدادية التي توالى على حكمه منذ عقود من الزمن، والحروب والأزمات التي انهكته على أكثر من صعيد.

ولد هذا النمط من الخطاب حالة من الزهو والرضا عن الذات يمتنع معها أن يفكر الانسان بحاجته إلى إصلاح منظومته السلوكية والفكرية، فضلا عن المبادرة بالإصلاح، ناهيك عن حالة التعالي على الآخر وازدراؤه. يحصل ذلك في وقت أحوج ما يكون مجتمعنا لمن يصارحه بمشاكله المعرفية والثقافية، وأمراضه الروحية والأخلاقية، ويمارس نقده في بعض أنماط حياته وعاداته. ما أحوج مجتمعنا إلى من يحمل مشرطا كمشرط الجراح ليزيل الكثير من الأورام الخبيثة التي انتشرت في جسده فأنهكته وأضعفت مناعته لدرجة أن أصبح يقبل كل ماهو غث وساذج، ولا يميز بين ما يضره وما ينفعه، بين من يريد به سوءا ومن يبتغي له رفعة وسموا. أقول

ذلك مدركاً ضرورة تعضيد الحالة النفسية لأفراد المجتمع، وتأكيد ثقتهم بأنفسهم والتركيز على النقاط المضيئة التي يتحلون بها.

٧- الازدواجية عند بعض المتصدين للخطاب الديني. إذ يرصد المستمع مفارقات مزعجة، وتناقضات منفرة عند هذا البعض، خلقت بين المتلقي وبين الخطاب الديني عموماً هوة سحيقة. حين يجلس الخطيب ساعة يتحدث فيها عن مفهوم ديني معين وما أن ينتهي من خطابه حتى يمارس خلاف ما تحدث به تماماً، بل ربما كان أسرعهم إلى مخالفة ما قال، فكان من الطبيعي والحال هذه أن يزدري الناس هذا الخطاب، وينفضوا عنه، كيف وهو قد نصب نفسه إماماً للناس وواعظاً. فهو يعالجهم بالادعية والأوراد ولكنه يقصد عواصم الغرب حين يمرض ويحتاج إلى العلاج، أو يكلمهم عن الزهد والتقشف في الحياة، ولكنه من أشد الناس تكالبا وحرصاً على الدنيا وملذاتها، أو يحث شباب المسلمين على ما يدعونه (الجهاد ضد الكفار) وهو يرسل أبناءه إلى (الكفار) ليزاولوا إتمام دراساتهم في أرقى جامعاتهم.

"الإنسان بطبيعته لا يهتدي إيماناً إلا بالقدوة العملية الملهمة، تلك القدوة التي تسقيه الارتواء الروحي، وتمنحه السلام النفسي، وتغمره بالرأفة والشفقة، كي تخلصه من الاغتراب، وتشعره بالحماية والأمن في الحياة. الناس كي يؤمنوا، يفتشون دائماً عن نموذج بشري مجسد للإيمان... يحتاجون إلى من يشعرهم بوجود الله في حياتهم، لا من يثبت لهم وجوده كفكرة مجردة لا صلة لها بحياتهم".

٨- واحد من أهم الأسباب التي جعلت الخطاب الديني يفرط بتأثيره في نفوس المريديه ويخسر من قاعدته الكثير هو انشغاله بالأوامر والنواهي المتعالية على الواقع والتي يتعذر تحققها لتنافيها مع الطبيعة البشرية كالنهي عما يعتمل في صدر الكائن البشري من خلجات لا سلطة له عليها كالحسد وسوء الظن وغيرهما، وما ذلك الا نتيجة الفهم الخاطئ للنصوص الدينية التي وردت محذرة من هذه الصفات النفسية، والخلجات الداخلية وناهية عنها إذ لا يتسنى للناس بحكم

بشريتهم أن يتحكموا بما يعتمل في نفوسهم بحيث لا يسيؤا ظنا ولا يحسدوا أحدا، ولذا ورد عن النبي (ص واله) (كما في حديث الرفع المشهور، قال رسول الله (ص واله): "قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): رفع عن أمي تسعة أشياء: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطقوا بشفة."، وقوله (ص واله) "إذا ظننتم فلا تُحققوا، وإذا حسدتم فلا تبغوا، وإذا تطيرتم فامضوا؛ وعلى الله فتوكلوا".

وربما كانت المشكلة عند بعض الدعاة الدينيين في فقه النص سواء كان آية قرآنية أو رواية وعدم القدرة على تفكيكه، وقراءته قراءة معاصرة منسجمة مع ظروف الاستشهاد به مما يسبب إرباكا لدى المتلقي يدفعه ليتخذ موقفا سلبيًا من الخطاب الديني عامة. كنت استمع إلى خطيب في دولة أوروبية فذكر الحديث المشهور في كتب المسلمين عن النبي (ص واله) أنه قال: "لا تسلموا على تارك الصلاة ولا تجيبوا سلامه، ولا تسمحوا له، وإذا مرض لا تعودوه"، ولم يدر في خلده أن هذا النوع من الخطاب يخلق فضاء متنافرا مع الاهداف التي يسعى إليها، وعليه كيف بإمكانه أن يمارس مهمته التبليغية ويحقق النجاح بها وهو يعرض عن إلقاء السلام على غالبية الشباب الذين لم يتلقوا تعليما كافيا على أهمية العبادات ووجوبها على الفرد المسلم؟ ولم يلتفت إلى أنه لم يقدر ظروف هؤلاء الشباب وكونهم يعيشون في مجتمع غير منسجم معهم دينياً، ثم كيف يتوقع أن يستجيبوا إلى وعظه ونصحه ويتأثروا به وهو يكف عن السلام عليهم؟ ثم ألا يترك هذا التصرف (الامتناع عن السلام على تارك الصلاة) انطبعا سلبيًا عن رجل الدين وربما عن الدين برمته عند هؤلاء الشباب الذين من المفترض أن يكونوا هم هدف المبلغ الديني ومن يجهد لهدايتهم؟.

٩- من الأسباب العميقة التي دعت الكثير من رواد المنبر الديني للإنفضاض عنه وهجرانه هي "القراءة التعسفية للنص الديني"، واتكاء الخطيب على مرويات ضعيفة، ونصوص شاذة مهجورة، وقصص المناطات، والاساطير، وجعلها رأس ماله، ومادته الأساسية، بلا رصيد علمي، ولا مخزون ثقافي روحي. لا يمتلك اضاءة

يمكن أن يقدمها لمريديه، عاجز عن التفلت من شبك الأمية العلمية والثقافية. كيف لمن يثمن عقله ويحترمه أن يواضب على الحضور والاستماع لمن يحشو عقله بخرافات وطرهات، أو يحوله إلى إنسان كاره لكل ما هو جميل في الحياة، حاقد على الناس، مبغض لكل ما هو مبهج ومفرح.

بلغ فقر هذا الخطاب وضحاوته، واتكاؤه على ما لا يقبله عقل عاقل حدا جعل المعنيين يبحثون عن علاج لهذا التردّي، ومحاولة إصلاح هذا الكم الهائل من التدهور. لفتني سؤال موجه إلى سماحة العلامة الخطيب السيد منير الخباز: "كثُر مؤخراً اتكاء بعض الخطباء على قصص الأحلام والرؤى في الطرح المنبري، بحيث أصبح أمراً مشاعاً ومتداولاً، كيف تقيمون هذه الحالة؟". يجيب: "إن المنهج الصحيح هو المنهج العقلاني، وهو عبارة عن ربط عقل المستمع بالبراهين العقلية، التي تعتمد على الأساليب والطرق العلمية في الاستدلال وصحة القضايا الفكرية، أما الرؤى والأحلام والقصص التي لم ترد عن علماء موثوقين، فإن عرضها على المنبر يؤدي إلى ربط الجماهير بمفاهيم لا وثوق بها، ولا مستند لتصحيحها، وبالتالي قد يؤدي بنا حتى إلى ربط العقائد بمثل هذه الطرق غير العقلانية، لذلك نشأت لدينا بعض الفرق التي تستقي عقائدها من الأحلام والقصص والاستخارة وما أشبه ذلك، وهذا منزلقٌ خطير، قد يسهم به الخطيب من حيث لا يشعر" (شبكة المنبر حاوره: حسين العابد - مجلة صوت الحسين - العدد السابع محرم ١٤٣٦هـ. ٢٠١٥ / ٢ / ١٤م).

١٠- أحد المهام الرئيسة للخطاب الديني في إطار مدرسة أهل البيت (ع) هي عرض سيرتهم (ع) نموذجاً للاقتداء بقيمها، وأخلاقها، عبر إسقاط الوقائع التاريخية على واقع الحياة المعاصرة، نعم ذكر فضائلهم ومصائبهم ضروري وهو من الأسس الهامة التي قام عليها المنبر، ولكن لا ينبغي الوقوف عند ذلك واعتماده غاية للخطيب يستغرق فيها بل لابد من تسليط الضوء أكثر على مشروعهم الإصلاحية الذي تفانوا، وبذلوا الكثير من أجله، وقدموا التضحيات الجسام في سبيله. التغافل عن مهمة الإصلاح في المجتمع يعني تعطيل الخطاب الديني عن دوره وغاياته.

التجديد في الخطاب الديني

استطاع التدفق المدهش لإنجازات الانسان المعاصر في مجال التكنولوجيا فضلا عن التطور الهائل في العلوم الإنسانية أن يغير الكثير من قناعات الانسان المعاصر، ويحرره من النظرة النمطية لذاته، وللآخر، وللكون عامة كما جعله يتجاوز المنظومة التقليدية للمعرفة الدينية، ويجتاز الأسيجة الدوغمائية المغلقة إلى فضاء رحب لا تحده حدود التكفير والتضليل، أضف إلى انبثاق اسألة جديدة أكثر جرأة لم تكن معهودة في السابق، وراح يخلق له منظومة منهجيات ومفاهيم وأدوات ومعطيات حديثة تتماشى ومتطلبات العصر ورهاناته، بل لا نبالغ بالقول أن التكنولوجيا تمكنت أن ترسم للانسان مسار حياته فصارت هي التي تتحكم به وتقوده وليس العكس، وتمكنت أن تصنع جمهورا ذكيا يقظا مشاكسا بعد أن كان كسولا خاملا مستسلما. كما أنها وسعت رقعة المتلقين، وزادت من تلوناتهم. فبعد أن كان الخطيب سابقا يتحدث إلى المتحلقين حول منبره تحديدا، منسجما في خطابه مع سقفهم الثقافي الواطيء. أصبح الان يُنقل خطابه على الفضاء مباشرة إلى شرق الارض وغربها، إلى شرائح مختلفة في وعيها ومستواها الثقافي، إلى المؤلف لهذا اللون من الخطاب، والمخالف له فلربما كان خطابه يتصف بالبساطة بما يتناسب والحالة العامة لمستمعيه ولكن حين ينقل خطابه عبر الفضاء أو وسائل التواصل فيستمتع إليه المثقف والمتعلم فلا يغريه بقبول الفكرة إن لم ينفره منها. نسبة غير قليلة من المتصدين للخطاب الديني لم تدرك هذا الكم الهائل من المتغيرات المتسارعة في عالمنا المعاصر ولم تزل رهاناتهم على حالها قديمة لم يتغير منها شيء.

فما برحوا يعملون وفق آليات الماضي حين كان الخطيب يشكل مصدر المعلومة الوحيد لدى الشريحة الأوسع من أبناء المجتمع مع تفشي الامية وندرة الكتاب، وصعوبة اقتنائه. فليس منطوقيا والحال هذه أن يحظى هذا الخطاب بذات القدر من الفاعلية والتاثير في زمن توفر المعلومة حد الابتذال، وسهولة تداولها بأساليب محببة للنفس كما هو حاصل الان. فما عاد للخطيب دور الريادة وتلك الاهمية التي كانت له سابقا مما يحتم عليه تغيير آلياته وتطوير امكانياته، وتجديد قراءاته، والخروج من حالة التكرار الممل إن أراد أن يبقى على ذات الدرجة من

الفاعلية والحضور، ولا يتحقق ذلك ما لم يجد الخطيب في المطالعة، ومتابعة كل ماهو جديد في عالم الكتب والافكار، والا سيخسر تأثيره وهو ما يحصل الان في كثير من المواقع حيث العزوف عن تقبل هذا النوع من الخطاب وعدم الانسجام والتجاوب معه بعد أن أضحى خطابا منفرا لا جاذبا. إذ أصبح المستمع لا يحتاج الى عناء كي يكتشف أن الكثير من المعلومات العلمية أو التاريخية التي تلقى كحقائق ثابتة من على بعض المنابر لا تعدو كونها غير صحيحة، لا قيمة لها، ولا علاقة لها بالواقع ناهيك عن الأساطير والخرافات التي تأبى قبولها عقول الأطفال فضلا عن الكبار.

أدركت المرجعية الدينية الكريمة في النجف الأشرف حاجة المنبر الحسيني المعاصر إلى عملية إصلاح، وتجديد، ما دعاها أن يعلو صوتها وتتدخل مباشرة للنهوض بهذه المهمة عبر إطلاق حزمة من الوصايا فائقة الاهمية تشكل أساسا لإصلاح المنبر الحسيني وما ينبغي أن يكون عليه واستشعارا منها لخطورة الأمر ومآلاته على المجتمعات والأوطان. لم تكتف المرجعية الدينية بهذه الخطوة بل دعت إلى عقد مؤتمر تبنته مؤسستان تنتسبان إليها بصورة أو أخرى هما العتبة العباسية في كربلاء، ومعهد العلمين في النجف الأشرف تحت عنوان (المؤتمر الدولي حول التجديد في المنبر الحسيني) بتاريخ (١٦. ١٧. ٢٠١٧ م المصادف ١٧. ١٨ جمادى الآخرة ١٤٣٨ هـ)، وقد ذكرت أثناء تقديم ورقتي البحثية فيه: "أن المؤتمر لو لم يحقق سوى إعلان المرجعية، وارتفاع صوتها: إن المنبر الحسيني وصل إلى حالة من الضعف، والفوضى لا يمكن السكوت عليها بحيث أضحى عاجزا عن التأثير الإيجابي في الاجتماع الشيعي، وهو بحاجة ماسة إلى نفخ الروح فيه من جديد ليعود الى حيويته فيكون مؤهلا لمسايرة التحولات الاجتماعية المتسارعة، ومواكبا لما تؤول اليه حركة الواقع ورهاناته وتطوراته التي لا تتوقف أو تتعطل. معبرة عن كل ذلك بالدعوة الى تجديد الخطاب المنبري، لكفى بها نتيجة.

البحث الرابع عشر



في محور المنبر الوعظي وأثره في تشكيل الوعي الجمعي



فضيلة الشيخ الدكتور عفيف الكيلاني المتولي الشرعي للحضرة القادرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمّد رسول الله وعلى آله
ومن اهتدى بهداه، رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني
يفقهوا قولي.

في البدء جزاكم الله خيراً، أشكر جدّاً مؤسّسة دار العلم للإمام الخوئي، ومركز
البلاغي على إتاحة هذه الفرصة لأكون بين ظهرانيكم في هذا المؤتمر اللطيف
والصريح، والصراحة جميلة جدّاً، فيني كتبت عدّة نقاط، لكن السيّد جزاه الله خيراً
أثار هذه المسائل التي أشاطره بها الرأي، ربما بعض المعاني مثل الذي تفضّل به
السيّد في مسألة الأصول، لكنها أيضاً جرى تحديث عليها، لا بدّ أن يكون في
التدريس حتى بالنسبة للأصول والفقهيات وغير ذلك، لأنه الأساس هو أن نحبّب
المادّة للطالب، طالب العلم لا يطلب منه فقط إسقاط فرض، ويخرج من درسه
وهو لم يفهم شيئاً؛ لذلك عندنا نوع من الجمود بين المجتمع وبين الواعظ أدي
إلى نفور، هذه نقطة واحدة بسبب الواعظ نفسه.

الأمر الثاني: التطوّر الذي يحصل متسارع جدّاً، والذي لا نستطيع مواكبته
سيستبّب لنا أزمت كثيرة، لذلك أودّ أن أقول: إذا كان عندنا في البيت أولاد أو بنات
على مستوى جيّد من العلم والخلق والطاعة فلا بدّ من أن الوالدين يكونان من
الأولياء حتى أوصلوا أولادهم وبناتهم إلى هذه المرحلة؛ لأن هذا الشيء صعب
جدّاً، لكنه ليس مستحيلاً، فالهدف صعب جدّاً، وأعتقد أن جميع من في هذه

القاعة يعاني من هذا الأمر، فالخطاب المزدوج الموجود بعيد عن الواقع، ونحن الآن فقط نلك الجروح ونتكلم على المرض، أما مسألة الدواء فهذه مسألة أخرى، كانت عندي تجربة في الخارج، أي في بلدان أوربا وجنوب شرق آسيا، حيث عشت هناك وعشت أيضًا مع أناس دخلوا الإسلام، وعادة ما يُثار عندي تساؤل، وهو ما الدافع الذي يأتي بمن يعيش في دول الغرب أو أمريكا أو كندا للإسلام؟ مع العلم أنه كان ينظر إلى الإسلام قبلاً بأنه دين غير صحيح.

وقد نتساءل نحن عن هؤلاء الذين يدخلون إلى الإسلام، وفي الوقت نفسه نلاحظ حالات هروب على الأقل من الفهم الإسلامي المعاصر، فكيف يمكن فهم ذلك؟

حيث أتذكر في سنة ٢٠١٥ وتحديدًا في شهر رمضان، وفي مؤسسة اسمها زيتونة، كان هنالك داعية إسلامي اسمه حمزة يوسف، وهذا الداعية كان قد دخل الإسلام قبل ثلاثين سنة، حيث كان يلقي محاضرة عن دور الإمام الغزالي التربوي والأخلاقي، وكان الجمهور معظمه من المؤلفة قلوبهم، وبعد المحاضرة جاء رجل أمريكي الأصل، وكانت زوجته من أصول باكستانية، وكان قد سأل سؤالاً عن المحاضرة، بعد ذلك بادرته بالسؤال قلت له لو سمحت لي دكتور أو بروفييسور فقلت له ممكن أعرف سبب دخولك الإسلام، وكنا في ٢٠٠٥، وكان قد دخل الإسلام سنة ٢٠٠٣، بحسب ما قال أي بعد أحداث أيلول ٢٠٠١، فقلت له ما هو السبب الذي جعلك تدخل الإسلام، فقال ببساطة بكلمة واحدة: وجدت نفسي، فقلت له كيف وجدت نفسك؟ فقال: بعد أحداث أيلول سبتمبر انقسم العالم إلى ثلاثة أقسام، قسم ضد الإسلام نهائياً، وقسم يدافع عن الإسلام، وقسم مضطرب، وصار عنده حالة من الذهول، هل فعلا هناك دين يدعو أتباعه للذهاب إلى التفجير أو القتل أو عمل أي شيء حتى تدخل الجنة، ثم يقول هذا الرجل: انقسم العالم، فأنا طلبت من تلاميذي طلبة الدراسات العليا أن يأتوني بكتب عن الإسلام لكن بشرط تكون مكتوبة قبل ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ سنة أي ليست حديثة، فأتوا له بكتب للإمام الغزالي والشيخ عبد القادر الكيلاني التي فيها الروحانيات والأخلاقيات ويقول: قرأتها، وبعد شهر دخلت للإسلام، يقول هذا الكلام الموجود في هذه الكتب كان يتكلم فيها مع الإنسان ولم يتكلم فيها فقط مع المؤمن، ويبيّن له ماهية

بشريته، ودخلت للإسلام، لكن هو لو كان قد قرأ كتبنا الفقهية، لكان قد سأل عما ورد فيها من أمثال ما تفضّل به سماحة السيّد من تعدّد في الخطابات التي سبّبت أزمة.

يقال إن العقول العظيمة والمتوسّطة تناقش الأفكار والأحداث، والعقول الصغيرة تناقش الأشخاص، فنحن لا بدّ أن يكون عندنا وعي وإدراك أكثر في الخطاب الذي ذكره الله سبحانه وتعالى جعله في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ - النحل: ١٢٥﴾، الموعظة الحسنة ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - النحل: ١٢٥﴾، فهل يا ترى هذه موجودة عندنا؟ والمسألة الأخرى وهي العمل الصالح كما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا - فصلت: ٣٣﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

البحث الخامس عشر



التعايش وإدارة الاختلاف بين الضرورة الانسانية
والصيرورة المجتمعية



الدكتور حيدر حسن ديوان الاسدي
كلية الفقه / جامعة الكوفة

يحتاج التعايش إلى إدارة تراعي الاختلاف والتنوع الإثني والعِرقي والديني في أيّ مجتمع من المجتمعات، وحينئذٍ يتحوّل إلى قوّة فاعلة لتعزيز التماسك المجتمعي، وبالتالي يتحقّق السلام بين هذه العِرقيات، وكذلك المجتمع ومن ثمّ الدولة أو العالم، فالتعايش إذاً ضرورة مطلقة، ولا بدّ أن تتحقّق في المجتمع من دون قيد أو شرط؛ لأنّ كلّ السنن الكونية أثبتت أن لا خيار يداي خيار التعايش، بل إن بديل التعايش هو التناحر والعنف، لذلك نعتقد أن التعايش يتجاوز الخيار - في الغالب - إلى ضرورة اجتماعية ووطنية ودينية، وإلغاء هذه الضرورة حتمًا سيؤدّي إلى:

١. الإلغاء: إلغاء الآخر.
٢. الإقصاء: إقصاء الآخر.
٣. الأمران المتقدمان يؤدّيان بشكل حتمي إلى عنف وعنّف مضادّ وإلى فوضى. ولذلك انطلق البحث من فرضية مُفادها (أنّ التعايش بين أتباع الأديان والمجتمعات ذات القوميات والهويات المتعدّدة ضرورة قصوى ولا مجال إلاّ للأخذ بها) أيّ إنّ التعايش في هذا العالم، خصوصًا بعد التطوّر الحاصل على مستوى الاتصالات أصبح بمثابة الأمر الحتمي لكي تستمرّ الحياة وتتطوّر، ومن دون هذا الأمر سنصل إلى الخراب والإرهاب.

ومصطلح التعايش يعني البديل عن العلاقات العدائية بين الأفراد والمجتمعات المتنوّعة والدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة، على أنّ تُدار هذه المسألة بشكل مننّظ لا يُفضي لخلق أزمات جديدة، إنه يمثل إبراز القيمة العليا للإنسان، ويبدو أنّ ذلك منوط في تحقّق أمرين:

١. إدراك غاية وجود الإنسان في هذا العالم، والسبيل لتحقيق هذه الغاية، ومن ثمّ الالتزام بالأسباب الكونية التي تنسجم مع حقيقة هذا الوجود دون التصادم.

٢. الوعي بالوجود الإنساني والأخذ بنظر الاعتبار مبدأ الجزاء الدنيوي والأخروي؛ لأنّ الشعور بانتفاء الجزاء يخلق نوعاً من الفوضى، الجزاء نوع من العقاب، سواء أكان آنياً أو بعد حين، الوعي بوجود الجزاء يجنّبنا الفوضى.

فحين يكون المجتمع مختلفاً من الناحية الفكرية ومنتوّعاً على المستوى الإثني والعرقي والمذهبي فإنّ أمامه أحد خيارات ثلاثة، كلّ خيار يؤدّي لنتيجة معيّنة، وهذه الخيارات هي:

الخيار الأول: محاولة الفرض والإلزام والإجبار بالقوّة على اعتناق عقيدة أو مذهب أو فكر معيّن.

الخيار الثاني: حالة العداة والترهيب والقتل وخلق الفوضى.

الخيار الثالث: أن يُقرّ كلّ طرف للآخر بحقّه في التمسك بفكره وقناعاته ومعتقداته تحت مظلة العدل والقانون والمساواة في الحقوق والواجبات وتحقيق التعايش.

ومن الواضح أنّ العقل والمنطق لا يحددان، ويتّضح أنّ التعايش هو الخيار الأنسب لأيّ مجتمع ينشد الأمن والرفق الإنساني، ومن هنا نعتقد نحن في هذه الورقة البحثية المعنونة بـ (التعايش وإدارة التنوع: بين الضرورة الإنسانية والصيرورة المجتمعية) أنّ لا خيار يمكن أن يكون بديلاً ولو بشكل وقي عن خيار التعايش، بل حتى في ظلّ الصيرورة المجتمعية المُفضّية إلى تعاقب الأحداث يبقى خيار ضرورة التعايش متعالياً على الزمن، خصوصاً في عصر المعلوماتية والتطوّر التكنولوجي والعسكري، ونسعى لبيان ذلك وفق ثلاثة محاور بحثية محدّدة وضابطة لمسار البحث:

أولاً- إطار مفاهيمي يتضمّن: ضبط وتحديد مفهوم التعايش وفق انتقالاته في أكثر من نسق معرفي، ومن ثمّ تحديد ماهيّة الضرورة والصيرورة الاجتماعية.

ثانياً- الجدال الفكري حول التعايش والهويّة الحضارية.

ثالثاً- إدارة التنوع وصناعة التعايش والصيرورة المجتمعية السائدة.

البحث السادس عشر



سبل التعايش السلمي بين أفراد المجتمع العراقي



الدكتور حسن راشد

جامعة الموصل

المقدمة:

إن إنزال ممارسة السياسة من مستواها العلوي (كطبقة سياسية) إلى مستواها السفلي (كمجتمع اجتماعي) في الممارسة يُحدث خللاً كبيراً، لكون المجتمعات لا تجيد اللعبة السياسية، كما هم السياسيون.

إن واجب ووظيفة المجتمعات مثل مجتمعنا العراقي هو بناء ركائزه على قيمه عقائدياً / دينياً، وتقاليدته عرفياً / أصيلاً، إلا أن واقعنا اليوم غير ذلك في معادلة الحكم بين السلطة والمجتمع سواء أكان قبل أم بعد ٢٠٠٣ م، فإن خللاً كبيراً قد حدث في بنيته الاجتماعية كنتاج لأحداث تاريخ لا تستطيع الشخصية العراقية الهروب منه إلى المستقبل، كون المستقبل يمثل البعد الذي يتحرك نحوه الماضي كي يتم تحرير زمن جديد وهو الحاضر. (متعب مناف: السيسولوجيا العابرة: ص٢٥٧).

إن أقرب مشكلة ومثال واقعي عاشه المجتمع العراقي في إحدى مناطقه المهمة والحساسة مجتمع قضاء سنجار ذي الطابع الاجتماعي غير المتجانس اجتماعياً وثقافياً، والكارثة التي مرّ بها هذا المجتمع من قتل ونهب وسبي وتجاوز على أطره ومعتقدته القيمي والثقافي مما شكّل مشكلة وصدمة كبيرة وإشكالية بالغة الخطورة على نسيجه الاجتماعي بشكل خاصّ وعلى نسيج المجتمع العراقي بشكل عامّ وهو حائر ما بين ماضيه المُتخّم بجراحات أخطاء ساسته ومستقبله المجهول في ظلّ الجهل السياسي، وبينهما حاضره المؤلم؟ بالتالي كيف يمكن تجاوز أحداثه

المؤلمة لنوصله إلى مساحته الاجتماعية والطبيعية التي من خلالها يمكن تحقيق العيش بأمان وسلم دائمين بين أفرادها؟

وفي طبيعة مجتمعنا العراقي وشخصيته فإن لماضيه الأثر الأكبر في تكوينه البنيوي والثقافي وبشكل يحتلّ المساحة الأوسع في ذاكرته الاجتماعية الحضارية ونفسيته الفردية والشخصية، التي لا يمكن تجاوزها الآن، بأقلّ تقدير، مقابل مجرياته اليوم وحاضره التي هي سائبة الأطراف في تنظيمه الاجتماعي من دون أيّ تحديد وضبط وبشكل لا يمكن استحضار ما تؤول إليه الأمور في غده ومستقبله، إن هذا التأطر بالماضي من غير نسيانه كمجتمع وفرد إلى درجة أسره وتطويقه بأحداث حاضره أدّى إلى تخفيف انعكاسات حاضره هذا على واقع نسيجه الاجتماعي في ترابطه وتماسكه ونسق علاقاته، وعليه: بات من المهمّ دراسة الأحداث التي مرّت بها محافظة نينوى مذ ٢٠٠٣ م مروراً بفترة الطائفية التي ولّدتها الظروف السياسية وسياسيو عصره، من ثم لتكمل الحلقة بسيطرة داعش عليها، لترك آثارها السلبية في التماسك وتفكك بنيتها الاجتماعية، وعليه بات من المهمّ دراسة هذه الآثار وتحليلها غاية إلى إيجاد الحلول الناجعة مجتمعياً، لمنطقة دمّرت اجتماعياً بين مكّوناته، وما نتج من هذا التدمير من صراع اجتماعي وتفكك اجتماعي ما زال بين مكّوناته. (مجتمع قضاء سنجار أنموذجاً)

إلى جانب ذلك فإن دراسة هذه المشكلة والآليات التي من شأنها أن تكون وسيلة لدرء هذه الهوة المصطنعة في الكراهية بين مكّوناته الاجتماعية وتقريب أفرادها على أساس تماسك اجتماعي والعيش معاً من غير نزاع وصراع خاصّة في المناطق التي تعرّضت إلى الكوارث الاجتماعية مثل مجتمع سنجار؟

إن دراسات العلوم الاجتماعية بشكل عامّ ودراسات علم الاجتماع بشكل خاصّ والميدانية منها بالتحديد تتطلّب منا كأهداف النزول على أرض المجتمع المأزوم وتحدياته ومشكلاته وتحليله بواقعية وعن قرب بالقدر الممكن والمستطاع بغية وضع الحلول المناسبة لها، وفي بحثنا هذا فإن ميدانه الدراسي وإن كانت حدودها الجغرافية والديموغرافية والثقافية هو مجتمع قضاء سنجار ألا أن حدود مشكلتها تتجاوز حدودها إلى مناطق ومجتمعات أخرى خارج إطارها الجغرافي لتصل إلى خارج حدود مجتمعه العامّ، المجتمع العراقي، إلا أننا في ورقتنا

البحثية سوف نحدّد إشكاليّته مع من هم في تماسّ مباشر معهم ضمن إطار القضاء نفسه وتشخيص لأهمّ المشكلات التي عانى منها مجتمع سنجار في مرحلة ما بعد سيطرة داعش عليه والنزاعات التي طفت على السطح بعد تحرّيه مع آخرين من المجتمع المحلي المختلف معهم ثقافيًا.

المنهج المعتمد:

المنهج التحليلي من خلال أداة المقابلات الجماعية ومن خلال جماعات التراكيز الفوكس كروب

عيّنة الدراسة:

إن مشكلة الدراسة ومشكلة المجتمع المحلي تطلب من البحث أن تكون عيّنته جماعية تركز في مكّونين من النخب الاجتماعية المؤثرة في المجتمع المحلي ولديهم الاعتبار الاجتماعي والسطوة الاجتماعية حيث هم كلّ من:

١. رجال الدين
٢. شيوخ عشائر
٣. مديري شعب وموظّفي الدوائر في قضاء سنجار ونواحيه.
٤. ناشطين مدنيين
٥. طرفي معادلة الصراع في مجتمع سنجار، ومن الذين تضرّروا من أحداث داعش.
٦. شملت عيّنة الدراسة على كلّ من الرجال والنساء.
٧. المجال البشري: مجتمع قضاء سنجار بنواحيه وقراه من كلّ المكوّنات الاجتماعية والثقافية.
٨. المجال المكاني: حدود قضاء سنجار

حكومة الاحتلال والسلم المجتمعي: (مدخل تحليلي _ سسيولوجي عام)

إن أحداث المجتمع العراقي بعد الاحتلال الامريكي وما تلاه من أحداثٍ طائفية مُصطنعة من ثم سيطرة داعش (كأقرب حدثٍ تغييرٍ وفي ماضيه القريب) يؤسّر أن: من أهمّ الركائز الرئيسة التي يمكن الانطلاق منها غاية للوصول إلى التعايش السلمي في المجتمع العراقي تكمن في التحدّيات التي يمرّ بها هذا المجتمع وهي التحدّي الاجتماعي والتحدّي الاقتصادي، والتحدّي السياسي، والأول يمكن تقسيمه إلى مستويين في التحليل:

المستوى الأول (مستوى تحليلي عام): مستوى كتلي اجتماعي:

ويقصد به ما آلت إليه حال المجتمع العراقي ككتلة اجتماعية واحدة بسبب التقلّبات السياسية وتحوّلها من الأداء المركزي القابض للمجتمع من الداخل قبل ٢٠٠٣ م في ماضيه، ومن ثمّ تحوّلها وبشكل مفاجئ وتغييرها من الخارج مشكلة سلطة هشّة سائبة الأطراف في أغلب نواحيه التنظيمية بعد ٢٠٠٣ م في حاضره القريب بالتالي:

١. تراصف هذه السلطة (في ممارسته للسياسة) خلف البناءات الأولية مثل العشيرة والمذهب والطائفة.
٢. اعتمادها على صناعة الإكراه كتغذية سياسية بين مجتمع الشمال ومجتمع الجنوب من الناحية العقائدية الطائفية كوسيلة الحكم.
٣. إشكالية صناعة الإكراه بين المتنوّع الاجتماعي الثقافي القومي.
٤. تقسيم المجتمع العراقي إلى مناطق ثقافية وصناعة هويّة لها وعلى حساب المواطنة العراقية الواحدة.
٥. إلى جانب كلّ ما ذكرناه في أعلاه فإن لقضاء سنجار تحديّاته الخاصّة به من حيث:

- الصراعات الإقليمية على قضاء سنجار كونه واقعا في ملتقى ثلاث

دول

- تنوّع القوّات الأمنية المسيطرة على إدارتها أمنياً.

- الصراع الداخلي على القضاء من قبل الحكومة المركزية وحكومة الإقليم.

- التنوع الاجتماعي والثقافي لمجتمع هذا القضاء والذي تأثر كثيراً بفعل السياسات الخاطئة التي عاشها هذا المجتمع طوال فترة ما بعد ٢٠٠٣ وليومنا هذا.

إن تأثير هذه الممارسة وفي ظلّ عوامل ذات تأثير سلبي مثل: البطالة، تديّ مستوى الوعي السياسي، وتراجع واضح في دور المؤسسات الاجتماعية منها الأسرية والتربوية والإعلامية،... إلخ، أثر ذلك في فكر وثقافة الفرد العراقي وتماسكه مع محيطه الاجتماعي وهذا ما شكّل مستوى ثانيًا من التحديّ ألا وهو:

المستوى الثاني (مستوى تحليلي جزئي دقيق):

مستوى فردي هويّاتي وما يدور حوله من صناعة لأفعال تفكيكية اجتماعية إلى ما تقدّم فإن ممارسة السياسة للسلطات المعاقبة العراقية كانت تفكيكية من أعلى إلى أسفل، بالمقابل: أن البناء السليم للتعايش بين أفراد المجتمعات المتأزّمة تكون من أسفل إلى أعلى، من الجزء إلى الكلّ، من الفرد إلى الأسرة، وإلى المجتمع المحلي، وصولاً إلى مؤسسات المجتمع الكليّ. وهذا الذي حاولت الدراسة تحقيقه من خلال بناء السلم من أسفل إلى أعلى وعلى النحو التالي:

ركائز التعايش السلمي بين أفراد المجتمع العراقي:

١- التنشئة السليمة:

المؤسسة الأسرية

المؤسسة التربوية

المؤسسة الدينية

المؤسسة الإعلامية

٢- القضاء على النزاعات التي سببها الاحتلال.

٣- الحكم العادل: إن بنية المؤسسة السياسية العراقية لما بعد ٢٠٠٣ م قامت على أسس وركائز المحاصصة الطائفية، وإن الانتماء إلى الأحزاب والتجمّعات الدينية والقومية والإثنية والطائفية كلّ ذلك كانت على حساب المواطنة العراقية وما زالت تعمل بعقلية المعارضة وتفتقر إلى عقلية إدارة مؤسسات دولة.

٤- القضاء على الآثار السلبية التي تركتها أحداث داعش:

٥- معالجة المشكلات الاجتماعية:

٦- القضاء على البطالة:

٧- القضاء على الفساد الإداري والمالي:

التعايش بين الملة الواحدة

التعايش بين الملل المختلفة

التعايش بين الملل الاجتماعية المختلفة

ثقافة التسامح: وأنواعه:

أولاً: تسامح ذات طابع شخصي: فحواه في عدم التعصّب في الأفكار وبأنواعه؛ إذ لزام على الفرد أن يكون ذا طابع محاور ومبدع في تفاعله مع الآخر المختلف معه في الفكر وتقبّله لهذا الاختلاف.

ثانياً: تسامح ديني: وتتمثّل في احترام فكر وعقيدة الآخر الديني فرداً أو جماعة ونبذ التطرّف وتكفير الآخر المختلف.

ثالثاً: تسامح أخلاقي: وهو التعامل الحسن مع الآخر الذي نختلف معه في أمور الحياة الاجتماعية المؤثّرة في سير مجراه، والمركّز في القيم الاجتماعية الأصيلة وسبيله التنشئة السليمة.

رابعاً: تسامح اجتماعي: وهو العيش مع الآخر بسلام واحترام الخصوصيات والممارسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي لا تأتي بضرر.

الجانب الميداني للدراسة:

المستوى الأول: تحليلي عام (ميكروي) كتلي اجتماعي:

ويقصد به ما آلت إليه حال المجتمع العراقي ككتلة اجتماعية واحدة بسبب التقلبات السياسية وتحولها من الأداء المركزي القابض للمجتمع من الداخل قبل ٢٠٠٣ م في ماضيه، ومن ثم تحولها وبشكل مفاجئ وتغييرها من الخارج كسلطة هشة سائبة الأطراف في أغلب نواحيه التنظيمية بعد ٢٠٠٣ م ومن سماته:

- تراصف هذه السلطة (في ممارستها للسياسة) خلف البناءات الاولى مثل العشيرة والمذهب والطائفة (المحاصصة الطائفية).

- اعتمادها على صناعة الإكراه كتغذية سياسية بين مجتمع الشمال ومجتمع الجنوب من الناحية العقائدية الطائفية والقومية كوسيلة حكم.

صناعة الإكراه بين المتنوع الاجتماعي الثقافي القومي والديني إلى درجة تقسيم المجتمع العراقي مناطقياً وثقافياً وصناعة هوية لها وعلى حساب المواطنة العراقية الواحدة.

المستوى الثاني: تحليلي جزئي دقيق (ميكروي): فردي هوياتي تتأثر بما

يدور حوله من صناعة لأفعال تفكيكية اجتماعية.

نموذج النزاعات في مجتمع نينوى* وسبل تعايش أفراداه نتيجة لسيطرة عصابات داعش الإرهابية أصبحت نينوى من أكثر المناطق العراقية تأثراً بالنزعات.

إن قوة ومستويات النزاع في هذه المحافظة تختلف من مكان إلى آخر، ولكل من هذه المناطق خصوصيتها الاجتماعية والثقافية التي حدت هذا المستوى والنوع من المشكلة.

ولمتطّبات عنوان هذا النشاط ومحوره العلمي اختار الباحث نموذج النزاع في قضاء سنجار وأطرافها من النواحي والقرى كأنموذج ميداني.

نموذج قضاء سنجار العراقية وسبل تحقيق التعايش السلمي بين أفرادها:

إن من أهمّ الخطوات التي تحقّقت في هذا النشاط هي:

أولاً: إقامة لقاءات خارج منطقة النزاع:

- تحديد واختيار النخب الاجتماعية الفاعلة في هذا المجتمع المتنوع ثقافياً ودينياً.

- تحديد المشكلات التي حالت دون التعايش السلمي.

- إقامة (٤) لقاءات ميدانية وعملية في أماكن محايدة مقسّمة بين طرفي النزاع وبشكل منفصل.

- خلال هذه اللقاءات الميدانية تمّ نقل آراء المشاركين لكلا الطرفين.

ثانياً: اللقاءات الميدانية داخل منطقة النزاع:

- إقامة (٤) لقاءات ميدانية داخل كلّ منطقة من مناطق النزاع.

- المناطق المشمولة باللقاءات كانت (مركز قضاء سنجار، ناحية تل عبطة، بجاج) وقرائها.

- خلال هذه اللقاءات كان يتمّ نقل الآراء بين الجهات ذات العلاقة بالنزاعات.

النخب الاجتماعية ذات العلاقة والمؤثّرة في المجتمع السنجري (عيّنة الورش المحقّقة).

أولاً: النخب الاجتماعية: - رجال الدين + شيوخ العشائر + وجهاء المناطق المؤثّرون + ناشطون مدنيون.

ثانياً: ممثّلون عن الحكومة: ممثّلون عن الحكومة المركزية/بغداد، ممثّلون عن حكومة الإقليم كردستان + ممثّلون عن القوّات الأمنية، ممثّلون عن قوّات حماية الإقليم + مديرو الدوائر الخدمية في القضاء.

- بعد اللقاءات تمخّض ادّعاءات تجاه العرب من قبل الإيزيديين، ومنها:
- الجرائم التي ارتكبتها عناصر داعش الإرهابية وانضمام أبناء العشائر وعدم مساعدتهم في حماية الأيزيديين.
 - أسباب سياسية إذ تتدخّل الأحزاب الكردية من أجل إبقاء النزاع العربي الإيزيدي وتدخل الجهات السياسية الأخرى (لم تحدّد) من أجل بقاء النزاع وتعمل على بثّ الخلافات بين المجتمع الإيزيدي نفسه.
 - غياب الحوار وعدم وجود قنوات تواصل تسهّل الوصول إلى معلومات بشأن المتهمين والمختطفين والمختطفات.
 - عدم العمل الجادّ على إعادة النازحين الإيزيديين من المخيمات في حين تمّت إعادة بعض الأسر التي كانت مؤيّدة للدواعش.
 - عدم عودة الدوائر الحكومية ومدير الناحية إلى القحطانية.
 - عندما تُرتكب جريمة من قبل إيزيدي فإن العرب يعمّمونها على كافة الإيزيديين وتكفير الإيزيدية من قبل العرب.

النتائج النهائية ميدانياً:

- وبعد اللقاءات مع جميع أطراف النزاع على طاولة واحدة اتّفق الطرفان على وثيقة سمّوها:
- الاتفاقية المحلية في البعاج مبادئ لتعزيز السلام والتعايش على الصعيد المحلي.

ومن أهم مبادئها:

- الدعم والاستجابة والتعاون مع مؤسسات الدولة في الوقت المناسب، لأن الدولة هي أهم أداة لحماية السكّان.

- التمسك بسيادة القانون وتجنب الانتقام الشخصي في جميع الحالات.
- التمسك بافتراض أن كل شخص بريء حتى تثبت إدانته، والتركيز فقط في المطالبة بالعدالة ضدّ الجناة الأفراد.
- العمل على تأهيل جميع الأشخاص الذين تأثروا بالأفكار المتطرّفة والعنيفة، دون المشاركة في أيّ نوع من الجرائم، وخاصّة الأطفال والنساء.

الإطار العامّ للوثيقة:

الإطار العامّ الأول: السعي لفرض سيادة القانون دون تمييز وحصص السلاح بيد الدولة داخل سنجار، وبذل الجهود لتعويض الضحايا ومحاسبة مرتكبي الجرائم والانتهاكات، فضلا عن تشكيل مجلس مشترك من الأعيان العرب والإيزيديين، وتفعيل الإجراءات لملاحقة الجناة، وتفعيل دور المؤسسات العامّة للدولة في أعمال التماسك الاجتماعي لمنع الثأر الشخصي.

الإطار العامّ الثاني: إيجاد آليات للتعاون مع مؤسسات الدولة لدعم جهود منع الفساد والتمييز في سنجار، وضمان المساواة في تقديم الخدمات العامّة للمواطنين.

الإطار العامّ الثالث: مراعاة الضحايا والأشخاص ذوي العوق والاحتياجات الخاصة وتعزيز أدوارهم وتمكينهم في المنطقة.

الإطار العامّ الرابع: التركيز في الجناة ووضع سقف زمني لإعداد كافة الوثائق والملفات اللازمة للمحاكم، من خلال تفعيل دور (المختار) في توفير كافة المعلومات عن الهاربين والجناة واعتبار الأعضاء السابقين في الجماعات المسلّحة أو المتطرّفة من مختلف القبائل والمجتمعات المحليّة الذين لم يشاركوا في أعمال عنف ضدّ الناس، أبرياء من جرائم العنف وضمان محاكمات عادلة، وتجنب استخدام العنف ضدّ الأشخاص الذين أعلنوا براءتهم، وكذلك ضدّ أسرهم وأطفالهم.

الإطار العامّ الخامس: العمل على تأهيل الأطفال من خلال إلحاقهم بالمدارس وبرامج التعلّم المكثّف لتقديم تربية سلمية ومهنة بديلة لضمان بقائهم بعيدًا عن الأفكار المتطرّفة.

الإطار العامّ السادس: من خلال افتتاح مراكز لتأهيل الأشخاص الذين تعرّضوا لآثار النزاع، والإسهام في بناء قدراتهم، والقيام بالحملات الإعلامية والمبادرات التوعوية، فضلًا عن التركيز على تطبيق قانون الناجيات الإيزيديات.

الموقّعون والشهود

الموقّعون: يصرّح جميع الموقّعين على البيان التالي:

"بعد مناقشات ومراجعة دقيقة للمبادئ والأحكام، نحن كممثّلين للحكومة، وكذلك قادة القبائل والمجتمع من الشيوخ ورجال الدين والشباب والنساء والنشطاء المدنيين والمشاهير في قضاء سنجار، اتّفقنا على أن نكون جزءًا من الموقّعين مع قبول شروط هذه الاتّفاقية".

الموافقون: نخب اجتماعية من طرفي الصراع.

الشهود: نخب اجتماعية محايدة ومسؤولون حكوميون.

التنفيذ: يتم الترويج لهذه الاتّفاقية ودعمها من قبل المجموعات التالية:

لجنة التعزيز في سنجار:

سيتم إنشاء لجنة التعزيز في سنجار لدعم مبادئ وأحكام هذه الاتّفاقية، وأيضًا عن تعزيز الوعي بالاتّفاق الاجتماعي على مستوى النواحي، وستتألّف اللجنة من خمسة أعضاء على الأقلّ، عضو من السلطات المحلية مثل رئيس المنطقة أو قوّات الأمن، وعضوين من المجتمعات المحليّة، مثل الوجهاء والشيوخ ورجال الدين والشيوخ والشباب والناشطين المدنيين.

الجهات الداعمة:

إلى جانب لجنة الترويج، يتم اختيار العديد من الجهات الداعمة من المجتمع المدني لدعم ومراقبة هذا الاتفاق في سنجار، مع الأخذ بعين الاعتبار مبادئ وأحكام هذه الاتفاقية.

النتائج المستخلصة:

١. اجتماعيًا إنسانيًا لا اهتمام بشكل حقيقي لمأساة المجتمع الإيزيدي من قبل جميع الأطراف الحكومية وغير الحكومية القائمة على إدارة القضاء أمنياً والمسؤولة في القضاء إداريًا خدميًا، وفي مقدمتهم ضعف الجهود والاهتمام الحكومي.

٢. إن جميع المشكلات والكوارث التي أصابت مجتمع الدراسة سببها إنزال ممارسة السياسة من مستواه العلوي السياسي إلى مستواه الاجتماعي القائم على أساس المحاصصة بكل أنواعها فأدت هذه الممارسة إلى تحمّل مجتمع هذا القضاء نتائج كارثية وفي مقدمتها سيطرة عصابات داعش عليها وإحراق الكوارث بهذا المجتمع.

٣. من خلال المقابلات الميدانية أعلاه تبين أنه لم تكن هناك جهود حقيقية بتطويق المشكلات الاجتماعية التي يعاني منها هذا المجتمع، وذلك من قبل القائمين على إدارة هذا المجتمع سياسيًا وحكومياً.

٤. إن مجتمع القضاء يعاني من التشرذم السياسي والتفكيك بسبب تشظّي الفاعل السياسي بين أطراف معادلة سياسية مختلفة تمامًا بين ما هو داخلي من جهة وما هو خارجي من جهة، ولا توحيد للقرار السياسي في القضاء.

٥. إن أي فعل اجتماعي أو حكومي قريب غاية في المصالحة له نتائجه الإيجابية كون الشخصية العراقية بشكل عام ومجتمع سنجار بشكل خاص ميّالة إلى السلم الاجتماعي.

البحث السابع عشر



التعددية في المنظور الإسلامي



سماحة الشيخ عارف غانم الاسدي

الحوزة العلمية في النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلقه أجمعين سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه المنتجبين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عند الكلام عن الأديان نواجه ثلاثة آراء وهي: التفردية والشمولية والتعددية، والتعددية فيها ثلاثة آراء أيضًا، وهي: التعددية في السلوك، والتعددية في سبل النجاة، والتعددية في الحق.

ونحن سنتكلم على التعددية فقط، وسنبحثها من وجهة نظر إسلامية بعيدًا عما طرحه الآخرون مثل الفيلسوف الإنكليزي جون هيك^(١).

والتعددية في المنظور الإسلامي مرةً ننظر إليها من زاوية غير المسلمين (ما رأي الإسلام بالتعددية الدينية مع غير المسلمين)، وأخرى من زاوية المسلمين أنفسهم (كيف ينظر الإسلام للتعددية الفكرية بين المسلمين أنفسهم)، وهذا هو محلُّ بحثنا.

(١) جون هرود هيك (بالإنجليزية: John Harwood Hick)، (٢٠ يناير ١٩٢٢ - ٩ فبراير ٢٠١٢)، أستاذ وثنولوجي وفيلسوف في الدين، قدّم إسهامات في الثيولوجيا الدينية عن الكريستولوجيا والإسكاتولوجيا والثيوديسيا، وفي فلسفة الدين قدّم إسهامات في إبستمولوجيا الدين والتعددية الدينية.

بشكل عام التعددية في الأساس وُجِدَتْ وُحِلِقَتْ مع الإنسان، فلم يُخَلَقِ الإنسان بلونٍ واحدٍ، وليست له لغة واحدة، ولم يُوضَع في مكانٍ واحدٍ ولا زمانٍ واحدٍ، فهو بألوانٍ مختلفةٍ وبأماكن متعدّدة، وبأزمنة متعدّدة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ / وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ - فاطر: ٢٧، ٢٨﴾، ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ - القيامة: ٤﴾، وكذلك هي آراؤه وأفكاره ومتبنياته تختلف وتتغير وتتعدّد، وهذا ما يفرضه الواقع كما ترى، ولا يحتاجُ إلى مزيدٍ من إمعان النظر والفكر، وهذا ما نُدرِكُه بالحسِّ جميعًا، وإدراكه دراية لا رواية.

فالتعددية الفكرية تفرضها طبيعة الإنسان، حيثُ فُرِضَ عليه التفكير والتدبّر ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ - الأنعام: ٥٠﴾، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ - المؤمنون: ٦٨﴾، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - آل عمران: ١٩١﴾.

قد نتفق في الكليات والعموميات، ولكننا قطعًا سنختلف في كثيرٍ من التفاصيل والجزئيات، فهكذا خُلِقنا وهكذا سنبقى، وهذا ما اقتضته حكمة الخالق سبحانه.

فالتعددية مسألة طبيعية فطرية، ولم يمنعها الإسلام ما دامت في إطاره وعلى شروطه، فالمنطق القائل: تكلم السيف فاسكت أيها القلم، لا مكان له في المنظومة الفكرية الإسلامية، وفي محله قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - النحل: ١٢٥﴾، فاذا كان ما تدعو إليه هو الطريق إلى الله - كما ترى - فادع إليه كما أمرك الله سبحانه.

نعم إذا غلقت الأبواب وانقطعت الأسباب فآخر الدواء الكي، ولا يكون ذلك إلا بشروطٍ ليس هذا محلًا لبيانها، وبمجرد الوقوف على تاريخ المسلمين الفكري وتراثهم العلمي، بمجرد الوقوف على ذلك يعطيك صورة واضحة عن التعددية الفكرية التي كان يعيشها العالم الإسلامي على كامل بقعته الجغرافية الواسعة.

فتنوع المذاهب الإسلامية الكبير حيث وصلنا ما يعمل به إلى الآن ما يربو على العشرة مذاهب وهي عشرة مذاهب ظلَّ يُعمل بالكثير منها حتى اليوم، ومنها:

١. المذهب الجعفري (الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)
٢. مذهب أبي حنيفة النعمان (٨٠هـ- ت ١٥٠هـ).
٣. مذهب مالك بن أنس (٩٣هـ- ت ١٧٩هـ).
٤. مذهب الإمام الشافعي (١٥٠هـ- ت ٢٠٤هـ).
٥. مذهب أحمد بن حنبل (١٦٤هـ- ت ٢٤١هـ).
٦. المذهب الزيدي (زيد بن علي) (٨٠هـ- ت ١٢٢هـ).
٧. مذهب الأوزاعي (٨٨هـ- ت ١٥٧هـ).
٨. مذهب سفيان الثوري (٩٧هـ- ت ١٦١هـ).
٩. مذهب الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ).
١٠. مذهب داود الظاهري (٢٠٠هـ- ت ٢٧٠هـ).
١١. مذهب ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ).

فالتعددية الفكرية لا شك في وجودها في المنظومة الفكرية الإسلامية، وقد عاشها المسلمون على مدى قرون.

وبعد المراجعة والمتابعة وجد الباحث أنّ التعددية الفكرية لها شروط، إذا تحققت فالإسلام لا يمنعها، بل يحترم أصحابها وهم المجتهدون أصحاب العلم الوفير والتخصّص الدقيق، والشروط هي:

أولاً: ألا تتجاوزَ الفكرة والرؤية ما يلي:

- ١- مَنْ شهدَ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمّداً عبدهُ ورسولُهُ فهو محقون الدم والعرض والمال، فدمُ المسلم وعرضه وماله مما لا نقاشَ في حرمةِهِ وضرورةِ حفظه، فلا يجوز سفكُ دماء المسلمين بحجة الرأي المُخالف.
- ٢- لا تجوزُ الأفكارُ والتشريعاتُ التي تُعارضُ المسلّماتِ الإسلامية والضرورات الشرعية التي أجمع عليها المسلمون بلا مخالف، كالتشريع باتجاه حرّية الإلحاد وحرية الفواحش كالزنا والشذوذ وشرب الخمر... فهذه الأفكارُ

والرؤى مرفوضة من الأساس وغير قابلة للنقاش البتة فلا مجال للنقاش في جواز الفاحشة مثلاً.

فكلُّ فكرةٍ وتشريعٍ يكون في مقابلِ المسلّماتِ الإسلامية لا يدخلُ حتماً في حرّية الفكر، وهو مرفوضٌ حتماً، فكلُّ فكرةٍ وكلُّ رؤيةٍ لا تتجاوزُ ما تقدّمَ لا دليلَ على عدمِ شرعيّتها، ولم يُفِتْ أحدٌ من العلماء بحرمتها

ثانياً: صدور الفكرة والرؤية من أهلها، وأهلها هم من يحملون المواصفات التالية:

١- التخصص: فقد يخوض غير المتخصّص فيما لا يعنيه، فلا يُعدّ ذلك تعدّداً، وإلا فقد العلمُ قيمته، فلا يأتي من هبّ ودبّ ليتكلم فيما لا حظّ له فيه من العلم.

٢- التجرد والموضوعية: فلا يفرض الباحث ثقافته، ومرتكزاته على النصّ، فقد تكون عند الباحث ثقافة خاصّة ومرتكزات وثوابت معيّنة يدرس النصوص من البناء المُسبق عليها، وهذا ما لا يُقبل علمياً مع اعتقادنا بأنّ التجرد والموضوعية في البحث من الأمور الصعبة، وتحتاج إلى إعمال نظرٍ وتركيزٍ ونيةٍ صادقة في البحث عن الحقيقة، فلا يُوهمُ الباحث نفسه حيث يريدُ إقناعها بشئى الطرق بما درجت عليه وتربّت في أكنافه، فيخدعها بكونه قد بحث بحثاً خاضعاً لشروط البحث العلمي الرصين، وها هي النتائج التي وصل إليها كما كان يراه سلفاً ولم تتغيّر.

وقد بحث العلماء القطع بحثاً مستفيضاً، واختلفوا في بعض تفاصيله ولكنهم أجمعوا على حجّيته (منجزيته ومعذريته) إذا كان قطعاً موضوعياً، فالقطع الموضوعي لا يُؤاخذُ صاحبه، إذا كان موضوعياً حقاً وصدقاً لا وهماً وميلاً إلى ما تهواه النفس وتفرضه المصالح، وهذه هي التعددية بعينها.

فالتعددية الفكرية يُشترطُ فيها نضوجُ الفكرة بحسب الشرائط العلمية الدقيقة، فليس من هبّ ودبّ يدّعي الفكر فهو كذلك، بل التخصص هو الحاكم، والقطع الحجّة (المنجز المعذر) هو ما يعتمدُ على مقدمات علمية صحيحة توصلُ إلى نتيجة معيّنة، أو لا أقلّ من الاطمئنان المعتمد على أصولِ البحث العلمي لِمَنْ يملكُ القدرة على ذلك.

ولكننا - وللأسف - نجد مَنْ يدّعي الفكرَ ويناقدُ ويعترضُ ويُحدِثُ جلبَةً وضجيجًا، وهو أبعدُ ما يكونُ عن ساحةِ العلمِ والعلماءِ والتحقيقِ والتخصّصِ.

إنَّ ادّعاءَ حصرِ الحقِّ في جهةٍ أو شخصٍ أمرٌ طبيعيٌّ ولكن ما ليسَ كذلكَ هو الادّعاءُ بأنَّه الحقُّ كلُّ الحقِّ وأنَّ غيره ممتحَضٌ بالخطأ والاشتباه - والكلامُ على غيرِ المسلّماتِ الإسلاميّةِ التي أجمعَ عليها المسلمون - والحالُ أنني صوابٌ يحتملُ الخطأ، وأنتَ خطأ - كما أرى - يحتملُ الصواب، فقد يغفلُ العالمُ النحريرُ والمتبحرُ البصير، وقد يسهو المحقِّقُ القديرُ، وربّما التوتُّ بعضُ المقدماتِ فتتبعُها النتائجُ من غيرِ قصد، فهذه طبيعَةُ الإنسانِ مهما علا شأنه وارتفع كعبه والعصمة لأهلها.

وقد يؤدّي الاختلاف حيثُ الآراء لا تتطابق والحججُ والبراهينُ تختلف، قد يؤدّي الاختلافُ إلى الخلافِ والتصادمِ والتجمهرِ المسلحِ مما سيؤدّي - عادةً - لسفكِ الدّمِ الحرامِ وهتكِ العرضِ الحرامِ وضياعِ المالِ المحترم، وكلُّ ذلكَ مما حرّمته الشريعةُ السمحة.

وعندها فلا مجالَ لاستمرارِ مثلِ هكذا احتكاكٍ خشنٍ مُضِرٍّ بالعبادِ والبلاد، ويجبُ على الأمةِ خصوصًا عليّةِ القوم، علماءها، سياسيّتها، الوجوه الاجتماعيةِ فيها، نخبها عمومًا يجبُ عليهم أن لا يسمحوا بذلك أبدًا، حيث قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا - الحجرات: ٩﴾، إنَّ الاختلافَ على إثرِ الخلاف لا يمكنُ قبولُهُ وقد رفضته الشريعةُ السمحة رفضًا قاطعًا، ودعت إلى حلِّ النزاعِ بالصلح، وبرغمِ النزاعِ بينهما لم تسلبهما صفةَ الإيمانِ ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - الحجرات: ٩﴾.

إنَّ التعدّدية الفكرية لا يجوزُ أن تكون سببًا من أسبابِ اضطرابِ العبادِ وخرابِ البلاد، كما أنها لا يمكنُ أن تطالَ ما أجمعَ عليه المسلمون بلا مخالف كما تقدّم، في التاريخ الإسلامي حصلت صراعات مسلّحة ودامية بين المسلمين بسببِ تبني رؤية عقديّة أو حتى فقهية كما هي فتنة خلق القرآن...

وختامًا نقول إنَّ هذه القضية من القضايا التي دار الحديث فيها - بشكل صريح - من مطلع القرن الماضي، حيث سادَ الفكرُ الغربي الداعي إلى التعدّدية الفكرية، فطرحها رشيد رضا، وحرّم البتّة الأحزاب، وواقع الحال أن التعدّدية

الفكرية كانت تُمارَسُ بشكلٍ عمليٍّ في العالم الإسلامي، وقد مارسها الصحابةُ والتابعون والعلماءُ من بعدهم بشكلٍ واضحٍ، حيث اختلفت آراؤهم الفقهية والعقائدية تبعًا لفهمهم للنصوص وقبولها أو ردّها، فقد يكونُ الحديثُ ضعيفًا عند بعضهم صحيحًا عند آخرين.

وتعدّد المذاهبُ الإسلاميّة خيرُ شاهدٍ على ذلك، بل الاختلاف في نفس المذهب الواحد، ومعاصرةً بعضهم لبعض وجلوسهم مع بعض والنقاش في المسائل الفقهية والعقائدية كما نجده في سيرة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) والنعمان أبي حنيفة إمام الحنفيّة، وكذلك ما جرى بينه وبين إمام المالكية. نسأله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين على الهدى والصلاح ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا - آل عمران: ١٠٣﴾، إنه وليُّ كلِّ نعمةٍ. والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته.

البحث الثامن عشر



التعددية من المنظور الإسلامي



الدكتور إدريس قادر

عميد كلية العلوم الإسلامية في جامعة صلاح الدين

تمهيد

جاء الإسلام؛ ليرسي دعائم السلام في الأرض من خلال دعوة أتباعه إلى تثبيت الاتصال وتقويته بينهم وبين أهل الكتاب على قاعدة دينية راسخة. والتسامح والإخاء الإنساني في الإسلام أمر واضح في تعاملات المسلمين مع غيرهم على مرّ العصور؛ فقد جاء الإسلام بشريعةٍ عادلة، ونظم إنسانية رفيعة تحترم الإنسان، وتكرمه بصرف النظر عن دينه وعقيدته.

من أجل ذلك جاءت هذه الورقة العلمية لتوضح قيمة (التسامح الإسلامي ودوره في التعايش بين أبناء الوطن).

التعايش والتسامح ضرورة حياتية تبقى الحاجة قائمة لها ما دام هناك إنسان يمارس العنف والإقصاء والتكفير، ويرفض التعايش السلمي مع الآخر المختلف (أيًا كان الاختلاف: ثقافيًا أو دينيًا أو سياسيًا)، بل الحاجة إلى التسامح تشتدّ مع اتّساع رقعة التنوع الإثني والديني، لامتنعاص تداعيات الاحتكاك بين القوميات والثقافات والأديان، والخروج بها من دائرة المواجهة إلى مستوى التعايش والانسجام.

ويمكن تقسيم التعدّدية إلى أقسام كثيرة، ولكن نركّز في أهمّها:

١. التعدّدية الدينية: وتختصّ بالتعدّد في الدين والعقائد والشرائع والمناهج المتّصلة به، ومفهومها يعني أولاً: الاعتراف بوجود تنوّع في الانتماء الديني في مجتمع واحد أو دولة تضمّ مجتمعًا أو أكثر واحترام هذا التنوع، ومفهوم التعدّدية الدينية هذا يتضمّن الإقرار بمبدأ أن أحدًا لا يستطيع نفي أحد، كما يقرّ مبدأ

المساواة في ظلّ سيادة القانون، كما يلتزم بمبدأ حرّية التفكير والتنظيم واعتماد الحوار واجتناب الإكراه.

يقول السيد الشيرازي: وهذا هو الذي عمله الرسول (صلى الله عليه)، فإنه لمّا ظفر بأصحاب بدر، وكانوا مشركين لم يقتلهم بل أخذ منهم الفداء وتركهم على شركهم، فلم يجبرهم على الإسلام، وكذلك فعل بأهل مكة، فإنه (صلى الله عليه) قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فلم يقتلهم ولم يجبرهم على الإسلام، وكذلك صنع بأهل حنين.. إلى غير ذلك مما لا يخفى على من له أقلّ إلمام بتاريخ الرسول (صلى الله عليه)، وهذا هو المقطوع به من سيرة رسول الله (صلى الله عليه) بل سيرة المسلمين طوال التاريخ الإسلامي، فإنه لم يُعهد من أيّ مقاتل من المسلمين أن يقتل جميع الكفار الذين لم يكونوا أهل كتاب ولم يُسلموا، بل مختلف أنواع الكفار كانوا يعيشون في كنف الحكومات الإسلامية السنيّة والشيعة بسلام، كما لا يخفى ذلك على من راجع التاريخ.

٢- التعددية المذهبية: هي التعدد المذهبي في إطار الدين الواحد، ومفهومها يعني أولاً: الاعتراف بوجود تنوع في الانتماء المذهبي في مجتمع واحد أو دولة تضمّ مجتمعاً أو أكثر.

ومفهوم التعددية المذهبية يتضمّن الإقرار بأن (لا أحد يحقّ له نفي أحد) و(ضمان حرّية التفكير والتعبير المذهبي للجميع) و(المساواة في ظلّ سيادة القانون).

ويجب هنا تأكيد أن تعدد الفرق والمذاهب داخل الدين الإسلامي يشكّل ظاهرة طبيعية بل هو سمة ثابتة في جميع الأديان السماوية والوضعية.

ومن الطبيعي جداً أن يكون هناك تعدد في المذاهب، ومن ثمّ في الآراء والأفكار والتصوّرات، ولكن الشيء غير المنطقي هو أن يدعي أحد أن له وحده حقّ فهم الإسلام، ومصادرة هذا الحقّ من الآخرين، وأن له حقّ تفسير النصوص بحسب فهمه، وليس للآخرين إلا أن يكونوا نسخاً مكرّرة منه، واتّهام مخالفه بمخالفة السنّة، والخروج من دائرة الدين، والوقوع في حبائل الشرك والكفر والضلال.

٣. التعددية السياسية: وتعني مشروعية تعدد القوى والآراء السياسية وحقها في التعايش وفي التعبير عن نفسها، وفي المشاركة في التأثير في القرار سياسياً في مجتمعها.

وقد كان في دولة المدينة وفي عهد رسول الله (صلى الله عليه) مجموعة من القوى السياسية، وقد تعامل النبي مع كل تلك القوى والجماعات السياسية ولم يعمل على إلغائها أو إضعافها، وذلك من أجل الحفاظ على التوازن الاجتماعي والسياسي المطلوب، فضلاً عن أن تكوين القوى والتجمعات السياسية، هو حق من حقوق الحرية السياسية.

ومفهوم التعددية السياسية يشير إلى حق (المعارضة) في ممارسة أنشطتها، وقد كفل الإسلام للمعارضة السياسية السلمية كافة الحقوق المشروعة، كما أن في التجربة الإسلامية الأولى دلائل وشواهد تؤكد شرعية المعارضة والتعددية في الإسلام.

وقد أرسى الإمام علي (عليه السلام) حق (الرأي الآخر) والتعبير عن ذلك الرأي بأي وسيلة مشروعة، فلم يسجن أحداً لمخالفته له في الرأي، ولم يمنع أحداً من العطاء لأنه لا يتفق معه في موقف أو في رؤية، ولم يبطش بأحد خالفه في الفكر أو المعتقد، بل سمح لكل الآراء أن تعبر عن ذاتها، ولو كان ذلك التعبير على شكل مظاهرة سلمية، أو اضراب مدني.

ويحدثنا التاريخ: أن الإمام (عليه السلام) لم يكن يمنع المظاهرات والإضرابات، حيث (إنه أتفق في زمانه أن أغلق أهل الكوفة الدكاكين، حيث حكم بحكم لم يرضوا به، وفي مرة أخرى حيث عزل قاضياً لم يرض بعض أهل الكوفة بعزله، خرجوا في تظاهرة، والإمام لم يتعرض لهم بسوء، وإنما تركهم وشأنهم بعد أن نصحهم.

المبحث الثاني: الاعتراف بالآخر

ونقصد بمصطلح (الاعتراف بالآخر)، أي: اعتراف الإسلام لغير المسلمين سواء أكانوا في داخل المجتمع الإسلامي أم خارجه، لأن هذا المبدأ هو من إحدى

سمات الشريعة الإسلامية التي أسست المجتمع على التعددية التي هي سنة من سنن الله في الكون، كما أكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ - هود: ١١٨، ١١٩﴾، فجاءت الإشارة بذلك إلى الأمرين: الاختلاف والرحمة، وقد قاله ابن عباس واختاره الطبري^(١)، فلم يؤسس الإسلام المجتمع على أساس عرقي وإنما على دعائم إيجابية إنسانية، يؤمن بحق الناس في الاختلاف، وفي حرية اختيار العقيدة والعبادة وأساليب الحياة، وقد تجلّى هذا الأمر في أول وهلة عند قدوم الرسول (صلى الله عليه) إلى المدينة، وحين وضع ميثاق المدينة، حيث أسسها على التعددية من (مسلمين ويهود وآخرين) المنضبطة بوثيقة دستورية، هي أول دستور في التاريخ الإنساني، وهي تُقسّم على ثلاث وثائق: أولاً: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثانياً: ميثاق التحالف الإسلامي بين المهاجرين والأنصار، ثالثاً: اتفاقية الرسول (صلى الله عليه) مع اليهود^(٢).

فالشريعة الإسلامية تعادي كلّ أشكال العصبية والعنصرية والفئوية والطبقية، والمجتمع المسلم يتسع ويرحب بكلّ الناس والجماعات على اختلاف ألوانهم وأطيافهم، بشرط الالتزام بالأسس التعاقدية والدستورية للمجتمع المسلم، والمبدأ الأساس في حقوق غير المسلمين وحرّياتهم (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)^(٣).

وثمة أمر آخر وهو هذا الدين الحنيف الذي حمل اسم السلام، حيث أهدى الإسلام للناس السلام والأمن والأمان، فصناعة السلام والأمن صناعة إسلامية، والمسلم كما عرّفه رسولنا (صلى الله عليه) هو: "من سلّم المسلمون من لسانه ويده"^(٤)، والمؤمن هو من آمنه الناس على أعراضهم ودمائهم وأموالهم، والله هو السلام، وهو يدعو إلى دار السلام (الجنة)، ودعاء ختم الصلاة خمس مرّات في

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ٥٣٣/١٥-٥٣٤، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٢١٥/٣.

(٢) ينظر: الرحيق المختوم، صفّي الدين المباركفوري، دار التدمرية، السعودية، ٢٠٠٠م: ٨٤-٩٣.

(٣) العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية، د، نبيل السمالوطي، ضمن سلسلة الدراسات الحضارية تصدرها رابطة الجامعات الإسلامية، العدد الثالث، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م: ٣٦.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو، كتاب الإيمان، باب (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، رقم الحديث (١٠): ١١/١.

اليوم، كما يعلمنا رسولنا (صلى الله عليه) هو: "اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" (١).

وديننا: الإسلام يحثنا على السلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ - البقرة: ٢٠٨﴾.

وحتى في حالة الحرب فإن الله يدعونا إلى قبول السلم إذا جنح إليها الطرف الآخر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ - الأنفال: ٦١﴾.

وقد نهى الله عن العدوان داخل المجتمع الواحد أو بين المجتمعات، إن الله لا يحب المعتدين، وقد حرصت الشريعة على حماية الدين والعرض والكرامة الإنسانية، وحماية المال والعقل، وحماية النفس، وهذه ما تسمى بالكليات الخمس، أو المصالح الخمس التي تحرص الشريعة على حمايتها لكل من يعيش داخل أمة الإسلام سواء من المسلمين أم غير المسلمين، فالسلام حق لكل من يعيش داخل أمة الإسلام، طالما أنه التزم بمنهج الأمة ودستورها، وطالما أنه مُسالم غير معتدٍ على أحد (٢).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو وسطية الشريعة الإسلامية واعتدالها في كل شيء، في العبادات والمعاملات والسلوكيات، والتفاعلات والعلاقات اليومية، فالإسلام يرفض كل أشكال التطرف، والمغالاة حتى في العبادة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ - البقرة: ١٤٣﴾، وقال تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) رواه مسلم في صحيحه عن ثوبان، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب (استحباب الذكر بعد الصلاة)، رقم الحديث (٥٩١): ٤١٤/١.

(٢) ينظر: العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية: ٢٩.

وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا - النساء: ١٧١ ﴿١﴾.

و"الوسطية تنطبق في الإسلام في العبادات- الصلاة والصيام والزكاة والحجّ، وتنطبق في مجال الاستمتاع بالطيبات، وفي مجال الأكل والشرب، وفي مجال العلاقات مع الناس، وفي مجال أداء المهامّ والواجبات والأعمال...، فالإسلام يؤمن بالوسط العادل" (١) في كلّ شيء.

وفي مقدّمة الحرّيات حرّية العقيدة والتدين، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ - البقرة: ٢٥٦﴾، وحرّية القول وحرّية التنقّل، وحرّية الرأي والعمل، وحرّية الاختلاف مع الالتزام بأدابه.

وفي إطار الاعتراف بالآخر علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى، والاعتراف بحق الاختلاف الحضاري، و"اعتبار الاختلاف الحضاري مبرّرًا للالتقاء الحضاري، والتعارف وتبادل المنافع الحضارية، والاختلاف الحضاري تملّيه-أولاً- ظروف الاختلاف البيئي، والتي تؤدّي إلى تنوّع في طبيعة العمل، وفي الموارد، وفي شكل البيئات الصحراوية والجبلية والبحرية والساحلية على كلّ المستويات المذكورة، ويأتي الفكر الديني والأخلاقي ليضيف مستوى آخر من التنوّع المؤكّد على الاختلاف الحضاري، ويعتقد أن التعدّدية الدينية في الإسلام جعل الاختلاف الحضاري أمرًا منطقيًا، وأصبح مبدأ التعدّدية الحضارية والثقافية مقبولًا في الفكر الإسلامي، فهو تعبير منطقي معقول عن اختلاف البيئات واختلاف البشر، وقد بلغت الشريعة الإسلامية حدًّا من المرونة والتسامح الحضاري الذي يسمح بوجود التعدّدية الثقافية داخل الحضارة الإسلامية، والاعتراف بهذه التعدّدية خارج حدود الحضارة الإسلامية" (٢).

إن المبادئ التي أقرّها القرآن الكريم في حقّ الاختلاف الديني، وفي التعدّدية الدينية تنطبق على حالة تعدّد الحضارات.

(١) وسطية الإسلام، عبدالله طاهر علوي، الناشر، الهيئة العامة للكتاب، اليمن، طبعة ٢٠٠٨: ٨٨.

(٢) الإسلام والحوار مع الحضارات المعاصرة: ٢٧٠ - ٢٨٠.

ومبدأ الاختلاف الحضاري تؤكد الآيات القرآنية المعروفة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ - الحجرات: ١٣﴾.

وتعدّ هذه الآية القرآنية ركيزة أساسية في تقرير وحدة الإنسانية وتنوعها في الوقت نفسه، فهي تعترف بالأصل الواحد للبشرية بردها إلى ذكر وأنثى، هما (آدم وحواء)، وتعترف في الوقت نفسه بالاختلاف والتنوع: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ - الحجرات: ١٣﴾، وقد علّلت الاختلاف والتنوع بالتعارف، أي تبادل المنافع المعرفية والمادية^(١).

فيما سبق رأينا اعتراف الإسلام بالتعددية الدينية، وهذا يعني الاعتراف بالتعددية الثقافية والحضارية، فلو أمعنا النظر في تاريخ الحضارات لوجدنا التبادل الثقافي والعلمي والاقتصادي.. إلخ، بين تلك الحضارات التي تداخلت بين الناس، فكلّ حضارة قامت على عوامل داخلية وخارجية، أما الخارجية فتكمن في استفادتها أو تأثرها كلياً أو جزئياً بالحضارات الأخرى، تلك التبادلات والعلاقات كانت طبيعية بين الحضارات، هذا وقد استفادت الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات في جانبها المادي والمعنوي.

"فمن أجل بناء الجانب المادي في الحضارة الإسلامية اتّجه المسلمون إلى الشعوب صاحبة الحضارات القديمة، واستعانوا بمنجزاتها الحضارية المادية في بناء الحضارة الإسلامية، فاستعان المسلمون بالتراث الحضاري اليوناني على المستوى العلمي، وترجموا علوم اليونان التجريبية إلى اللغة العربية، واستوعبوا المعرفة اليونانية، وشرحوها وطوّروها"^(٢).

وهذا التبادل يدلّ على قراءة الإسلام للحضارات قراءة واقعية بعيدة عن التعصّب والكراهة، فالإسلام لا يريد محو آثار السابقين ولا اللاحقين، إنما يريد ترسيخ السلام بين بني البشر، لكونه رسالة عالمية تهدف إلى توطيد العلاقات بين

(١) ينظر: المرجع السابق: ٢٨٠.

(٢) المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، د، سعيد عاشور: ٦٣. نقلاً عن الإسلام والحوار مع الحضارات المعاصرة.

العبد وربّه، وبين بني الإنسان، من أجل تحقيق العدالة الإلهية على وجه الأرض، ودفع شرّ الظالمين وفتنتهم.

المبحث الثاني: الالتقاء الحضاري

من الأسس الإسلامية المهمّة في بناء علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى، الإيمان بالالتقاء الحضارات، ورفض أيّ صراع بينها يؤدّي إلى قطيعة بشرية، ويعرّض العلاقات الإنسانية بين الشعوب للخطر، ويستند الالتقاء الحضاري إلى مفهوم الأخوة الإنسانية من ناحية، وغياب مفهوم الاستعلاء الحضاري من ناحية أخرى، وسيادة الرؤية الحضارية المتسامحة، وعدم التعصّب الحضاري من ناحية ثالثة.

والالتقاء الحضاري يستند أيضًا إلى مفاهيم التعدّدية الثقافية والحضارية، وبالتالي الإيمان بتفاعل الحضارات من خلال تواصلها وتعاونها، وهذا الالتقاء الحضاري يتمّ من خلال عمليات الأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر، وينتهي إلى تحقيق سعادة الإنسان ومنفعته العامّة، بلا حدود مكانية أو زمانية^(١).

الحضارة الإسلامية عبر تاريخها المديد لم تُلغ جهود الآخرين في بناء الحضارة الإنسانية، لأنها انطلقت من أن الإنسان - وليس المسلم فحسب - هو خليفة الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ - البقرة: ٣٠﴾، بمعنى أن الإنسان شاء أم أبي يحمل في فطرته نصيبه البشري من كلّ اسم من أسماء الله الحسنى، فهو من تلك الأرضية يتعامل مع قوانين الحياة، فينشئ الحضارة بمعناها الواسع، من الحضارات البدائية إلى الحضارات المعقّدة.

إن الاختلاف سنّة من سنن هذا الكون الذي خلق الله فيه الأشياء، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَابِيٌّ سُودٌ - فاطر: ٢٧﴾، ولو شاء ربك لخلق

(١) ينظر: الإسلام والحوار مع الحضارات المعاصرة، د، محمّد خليفة حسن: ٢٨٢-٢٨٣.

الناس كلهم طرأاً واحداً، ولكن الله منح الإنسان العقل والإرادة، فكان من لوازمهما أن يختلف الناس في معتقداتهم وأفكارهم وميولهم، وإذا كان الاختلاف بين الناس ضرورة، فإن من حق كلّ منهم على صاحبه أن يحاوره، ويستمع إليه، على أن يكون الحوار بالحسنى، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم، بقوله: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - النحل: ١٢٥﴾، ومن اللافت للنظر هنا أن الآية رسمت أصول مناهج الدعوة والحوار، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ - النحل: ١٢٥﴾.

فاكتفت بأن تكون الموعدة حسنة فقط، وقيّدت الجدل بأن يكون (بالي هي أحسن)، لأن الموعدة تكون مع الموافق، والجدال يكون مع المخالف، ومع الموافق يكفي أن يكون الأسلوب حسناً، أما مع المخالف فينبغي المبالغة في الترفق به، وسلوك أفضل السبل للوصول إلى عقله وقلبه، ولهذا لو كانت هناك طريقتان في الحوار: إحداها حسنة جيّدة، والأخرى أحسن منها وأجود، فالمأمور بها هنا: اتباع الطريقة الأحسن والأجود" (١).

إنّ العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى ترتبط بالإيمان بمبدأ الدفع أو التدافع غير المؤدّي للتحدّي الحضاري المثير للصدام الحضاري، ويستمدّ هذا المبدأ من الآية القرآنية: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَتَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ - الحج: ٤٠﴾.

ويأتي مصطلح الدفع ليكون بديلاً إسلامياً جيّداً، فالدفع أو التدافع يشير إلى جهاد الإنسان المؤدّي إلى إعمار الأرض، وهو التدافع الذي يؤدّي إلى قيام الحضارات، وفي هذا المعنى نقراً: "إن دفع الله الناس بعضهم ببعض متوجه قرآنياً إلى حقيقة يتكئ عليها الاجتماع الإنساني- الذي به عمارة الأرض، وباختلاله يختل العمران وتفسد الأرض، وهي غريزة الاستخدام الذي جعل عليه الإنسان،

(١) السنّة مصدرًا للمعرفة والحضارة، د. يوسف القرضاوي: ٢١٥-٢١٦، الطبعة الخامسة، دار الشروق، مصر- القاهرة ٢٠٠٨.

والاستجابة لهذه الغريزة تعني التصالح في المنافع، والتمدّن، والتعاون الاجتماعي، مع إظهار حقيقة التمايز والاختلاف والتعددية^(١).

هذا التدافع لا يؤدي إلى حتمية الصدام التي أقرها صمويل، بل يفتح الباب واسعاً للتعارف، والتفاعل والتواصل، والالتقاء حول القضايا الإنسانية المشتركة، والابتعاد عن الاختلاف، والتنازع الدموي على المصالح والمنافع استناداً إلى قاعدة القانون الطبيعي، وتنازع البقاء، وقصر حقّ الحياة على الأقوى، وهي القاعدة التي تشكّلت منها فلسفة المشروع الحضاري المادي للحضارات التي بنت حضارتها على المصالح، أي على حساب الآخرين، دون مراعاتهم^(٢).

بناء على ما مضى من بيان وجهات النظر حول مبدأ الحوار والالتقاء الحضاري، تبين أن الإنسان مشترك فيما بينهم في صنع الحضارات، وذلك من خلال المنافسة الشريفة، دون هضم حقوق الضعفاء، فالحضارات القائمة اليوم، إنما قامت على بذل الجهود، وتحريك الطاقات العقلية والجسدية، فكلّ مجتمع أعطى نصيبه في بنائها، وأسهمت في قيامها، لأنه ما من حضارة سادت وقامت إلاّ وقد أسهمت في بنائها أجناس مختلفة، وبيئات متنوعة، فعلى سبيل المثال: الحضارة الأوروبية القائمة اليوم، لم تنشأ ولم تلد في القرن العشرين، بل هي وليدة الإسهامات التي سبقت هذا القرن، بحيث استفادت الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية عبر قرونها المنصرمة، بل هي لا تزال تديم حضارتها مستفيدة من خبرات غيرهم من الحضارات، وجهود اللاجئين الذين يعيشون في كنف الحضارة الغربية، فكلّ منهم يُدلي بدلوه الفكري والعملية، لإدامة الحضارة.

(١) الحضارات والثقافات بين واقع الصراع وطموح الحوار، نبيل علي صالح: ٢٩٢، نقلاً عن الإسلام والحوار مع الحضارات المعاصرة.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ٢٩٣.

البحث التاسع عشر



لغة الخطاب الديني والثقافات المعاصرة



سماحة الشيخ سمير الخفاجي

قسم الشؤون الفكرية في العتبة العلوية المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد أدرك الإنسان منذ أن منحه الخالق سبحانه نعمة العقل أنّ عليه أن يفهم الحياة فهمًا صحيحًا؛ ليحصل على السعادة الدائمة، والكمال اللائق به، فأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين، وبعث إليه الأنبياء مبينين ومفسرين؛ ليثيروا فيه دفائن الفطرة النقيّة الخالصة، وليصحّحوا له مسيره في الحياة ويأخذوه إلى شاطئ النجاة من المهالك والموبقات التي تحطّ من شأنه وتزحزحه عمّا أراده له خالقه من مقام سامٍ يليق به؛ ليكون خليفة الله في الأرض حقًا، واقتضت المشيئة الإلهية أن تكون لهذا الإنسان مشيئة واختيار يسلك بهما مسالك الخير تارةً، وأخرى يجانبها؛ اغترارًا بعقله القاصر ليرى نفسه أنّه قادرٌ على سبر أغوار الحياة من غير معونةٍ تمدّه بما يحتاج، ومن غير سلطانٍ يحكمه ويساعده في حلّ مشاكله التي تواجهه فيها.

لقد أصبحت مسألة اللجوء إلى الله في كلّ شيء هي الضرورة الملحة التي ركّز فيها الأنبياء عليهم السلام، وحاولوا بشقّي وسائل المعرفة المتاحة لديهم وما تقوى على حمله عقول أممهم أن يؤكّدوا حقيقتها وأنّ الإنسان ما هو إلاّ كائنٌ فقيرٌ ومحتاجٌ، لا حول له ولا قوّة ولا يمكنه أن يخوض غمار الحياة من دون عون الخلاق العليم.

لقد أصّر الإنسان على الاستبداد بعقله والاعتداد بنفسه، فأخذ يخطُّ لنفسه مسارًا في الحياة مخالفًا لكلِّ ما جاءت به السنن الإلهية وما جاء به الأنبياء من نصائح وإرشادات، واضعًا نفسه موضع الخبير بهذا العالم وبأسراره العميقة، فسعى بجهله إلى ابتداع كلِّ ما هو رخيص في منطق العقل والدين؛ ليثني الأنبياء والصالحين عن أهدافهم، ويحبط مشاريعهم السامية، وليجعل من الإنسان بما فيه من غرائز وشهوات هدفه الأكبر، وتحقيق رغباته هدفه الأسمى، ضاربًا عرض الجدار كلِّ القيم والمبادئ الراقية التي من شأنها أن تكشف عن هويته في هذا العالم الكبير.

إنَّ خلاصة مسار الفكر البشري تتمثّل في خطّين لا ثالث لهما خطّ لاهوتي تتمثله كلُّ الديانات السماوية وغير السماوية، وخطّ ماديّ تتمثله الحركات المادية كالعلمانية وغيرها في عصرنا الحاضر ومدارسها وتياراتها المتعدّدة، وهذا الخطّان وإن كانا يؤمنان معًا بالواقعية إلا أنّهما اختلفا في تفسيرها وفهمها.

لقد استمرّ الصراع بين هذين الخطّين أو قلّ بين هذين الاتجاهين إلى يومنا هذا، ولا يخفى أنّ لهما في عمق التأريخ جذرًا عميقًا لا يمكن التغافل عنه أو تجاهله؛ لأنّه في واقعه المدد الساند لكلّ اتجاه منهما بما يحتاجه من الموادّ الخام القابلة للتحليل والانقسام، وهي كفيلة بديمومة كلِّ واحدٍ منهما واستمرار وجوده في ساحة الفكر البشري.

إنّ الصراع الذي احتدم وتأجّجت ناره بين الاتجاهين ما هو إلاّ نمطٌ من التفكير سار بالنصّ إلى فضاءات خرجت به عن حدوده المضروبة، فأضحت تلك القراءات تفرض نفسها على أنّها واقع للنصّ وليست مجرد احتمال فيه، تخلو في كثير من حالاتها من حجّية الارتكاز القارّ والمثّزن؛ فنشأت (الهيرمونطيقا) ونشأت منها التيارات الفكرية التي تؤمن بأن النصّ يؤمّن لها الحماية في سيرها ويربطها بالتأريخ بحسب ظنّهم، وأنّ الفهم المتعدّد للنصّ يمتلك مشروعيتّه من ذاته وأنّه صورة من صور المعنى، وأنّ النصّ كائن حيّ يعبر عن ذاته بذاته وله شؤونه وخصوصيّاته، وما عليك إلاّ إيجاد الطريق إلى فهمه والتعامل معه واستنباط كنوزه المكنونة في باطنه، وهناك اتجاه آخر تطرّف في فهم التجديد وسلك الطريق المجانب للنصّ وابتعد عنه كلّ البعد مدّعيًا انتهاء صلاحية ذلك النصّ للملاءمة مع الحياة والثقافة

المعاصرة، بل هو نصٌّ وُجد لزمانه ولأهل زمانه لا يمكنه أن يواكب الحياة ومعطياتها الراهنة، وهو في نظرهم لا يعدو أن يكون صفحةً من صفحات التأريخ والحضارة آن الأوان أن نقلبها لنقرأ ما بعدها أو نستبدل بها غيرها.

إنّ هذه النظرة السوداوية للتراث لا تكاد تنفك عن أهداف هذه التيارات الساعية إلى عزل الإنسان عن تراثه وفصله عن حضارته العريقة؛ ليكون أعبوةً بأيدي العابثين وأصحاب الأغراض الدنيئة.

ربّما نكون قد ألمحنا إلى أهمّية وخطورة هذا البحث في حقول المعرفة البشرية، وأن المشكلة الحقيقية تكمن في إيجاد سبل التفاهم الجادّ ووضع النقاط على الحروف، كما يقولون، في مسار هذين الاتجاهين اللذين لا ينفكّان عن بعضهما ولن ينفكّا؛ إذ إنّ يتعرّض إلى كلّ ما له صلة بتراث الإنسان وحضارته وتأكيد دوره في الحياة المعاصرة وثقافتها المتعدّدة، وإن المقابل يسعى إلى تأسيس حضارة لا تحاكي الماضي، بل تنبزه بالضعف والتشظّي والركود، ونحن إن قبلنا أن تكون دعوة التنوير منسجمة مع بعض المجتمعات البشرية؛ لبؤس تراثها وانحطاط حضارتها، فلن نقبل ولا نبیح لتلك التيارات التصرف في كلّ المجتمعات البشرية وتراثها القيم وحضارتها العريقة، وإخضاع كلّ ذلك لنظرتها الضيقة.

إنّ الدراسات والبحوث التي تعرّضت إلى بيان هذه القضية الحسّاسة في الفكر البشري لكثيرة جدًّا وقد أخذت منحى التأصيل بعد التحليل للخروج بنظرية أقرب ما تُنعت به أنّها توافقية، وهذا في أحسن أحوالها إن أحسنّا الظنّ بها وليس هذا كلّ ما في الحقل من أشجار، وإنما هناك دراسات وبحوث تطرّفت ووسّعت الهوة بينها وبين الجانب الأصيل وانتقدته بأشدّ أنواع الانتقاد وأخذت تظهر معايبه وتفخّم من وجودها في أصل التراث ممّا دعاها، بحسب رؤيتها، إلى أن تؤسّس للبديل الفاقد لعنصر الوسطية والإنصاف، وهنا تكمن الخطورة في البحث؛ إذ إنّ التنوير من هذه الجهة يدعو إلى نبذ الأصيل وإقصائه، بل هجره إن دعت الحاجة إلى ذلك.

في الواقع إنّ أوج الصراع بين الخطاب الديني والثقافات المعاصرة له، هو ما يحصل في عصرنا الحاضر بعد أن أحدث الفكر البشري قفزة نوعيّة في مجالات البحث مستعينًا بالتطوّر التكنولوجي؛ إذ لاحظ الباحثون الأثر الكبير الذي أحدثته

الخطاب الديني الإسلامي بالخصوص في الفكر البشري حتى بات يشكل خطرًا يهدد مصالحهم ويحطم مشاريعهم، فقد وجدوه خطابًا لا يسعى إلى بناء الإنسان كفرد فحسب، بل إلى بناء مجتمع وأمة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى وعلى جميع الأصعدة من دون فرق، وهذا ما أثار حفيظتهم أكثر؛ لأنهم إن سكتوا عن مناهضته ألغى وجودهم وصهر فكرهم في بوتقة أفكاره.

وبعد هذا العرض الموجز لفكرة البحث نأتي إلى بيان مساره إلى النتائج التي نتوخاها منه، فنقول على الرغم من سعة العنوان الذي نحن بصدد الخوض فيه إلا أننا سوف نقتصر في حديثنا على الخطاب الديني الإسلامي وأثره في الثقافة المعاصرة وكذلك أثرها هي فيه بعد بيان أهم المفاهيم التي يُعتمد عليها في البحث، وبهذا نكون قد وفينا بالجانب الوصفي قبل الخوض في الجانب التحليلي فيه.

ولذا سوف نتناول في بحثنا المبحثين الأساسيين التي تقوم عليهما الدراسة التالية:

أولاً: التعريف بالمفاهيم الواردة في عنوان البحث فهي تُعدّ مفاتيح صناعية للباحث وبسببها يقع الخلاف بين الاتجاهات والمناهج.

ثانياً: أثر الخطاب الديني في الثقافة المعاصرة وأثرها فيه، وهذا الصراع في واقعه صراع في بيان سبل التوافق في كلا الخطابين لفهم الحياة.

المبحث الأول

التعريف بمفاهيم البحث الأساسية

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ هذا البحث هو من المباحث التمهيدية القابلة للاستغناء عنها ولكنّه في حقيقة الأمر يُعدّ من الأبحاث الأساسية في أيّ بحثٍ علميٍ يقدّمه الباحث؛ إذ يقدّم للقارئ المفاتيح الصناعية للبحث ومن دونها قد يرتبك الفهم أو المقصود من مسائل البحث، ولأجل ذلك تمّ الوقوف على أبرز المفاهيم المتعلقة بالبحث.

١.١: الخطاب الديني

هذا هو التركيب الاصطلاحي الأول الوارد في العنوان، وللوصول إلى المقصود المعرفي منه لا بدّ من تحليله وتفكيكه، وقبل الخوض في تعريفه لا بدّ من الإلماح إلى أمر مهمّ يتعلّق بمفهوم (الخطاب الديني) من حيث هو مركّب، وهو أنّ هذا المفهوم هو مفهوم متغيّر في بعض جوانبه إلاّ أنّه يتّصف بصفات عديدة في بعض منها يتّسم بالاعتدال واللين والمسامحة هذا في جانبه الإيجابي، وفي بعضها الآخر يتّسم بالشدّة والعنف والتطرّف وهذا في جانبه السلبي.

أمّا الثابت منه، فهو ما يؤصّل ويقتنّ الكليات التي يرتكز فيها الخطاب المرهلي، وهذه مسؤوليّة خطيرة تقع على عاتق مصدر الخطاب وناقله؛ لأنّ دوره الأول هو التمييز بين أنواع الخطاب، والثاني منها هو الموازنة والانتقاء، أمّا الثالث فهو تشخيص المرحلة وما يناسبها من خطاب، ثمّ وضعه في ساحة الفكر وأرض الواقع العملي، إذن نوع الخطاب يحدّده نوع القيادة، فإذا كانت تمتلك من السفاهة ما يكفي لخلق الفوضى وإشاعة روح العنف والتشنّج في أفراد المجتمع، فهنا نحكم عليها بأنّها قيادة سفيهة، وأنّ المجتمع ضحيّة تلك القيادة وذلك الخطاب غير المدروس، وأنّ الخطاب وُظف في جهةٍ من جهاته السلبية برغم المرونة والسعة التي يمتلكها في إيجاد الحلول لكلّ معطيات المرحلة، فإذا كان الأمر بهذه الخطورة أصبح من اللازم، إذًا، أن نحدّد المفاهيم التي نتعامل معها في البحث.

١.١.١: الخطاب

ولا نعني به الكلام المباشر الصادر من المتكلم، وإن كان مشمولاً في المراد، لكن في الجملة وبنحو الجزئية لا بالجملة ونحو الكلية، بل المقصود منه المفهوم المعرفي الأعم، وأنه يشمل، زيادة على النصوص الدينية ومضامينها الكلية، كل ما وصل إلينا من أفكار أو تصوّرات أنتجها العقل البشري بكل أشكال المعرفة المتاحة لديه واستطاع أن يعبر عنها التعبير اللغوي، وبأي لغة كانت، وقد حفظها لنا التاريخ وأصبحت إرثاً حضارياً، أو هي نتائج ترشّحت من ذلك الإرث ألفت بظلالها على الساحة الثقافية المعاصرة يُعبر عنها بالقراءة المعاصرة للنص تارةً وبالفهم تارةً أخرى، ترتبت عليها آثار عملية وسلوكية.

والخطاب إذا كان بهذا المعنى فإننا يمكن أن ننعتة بنوع تلاءم ومعناه الاصطلاحي فقولنا خطاب متطرّف أو خطاب معتدل أو غيرها من النعوت المتعاكسة هي نعوت تنسجم مع المعنى الاصطلاحي، أما الكلام أو الأسلوب التركيبي فيه، فهو المبرز للخطاب وليس هو الخطاب فتأمل.

ويمكن أن نقول، أيضاً، إنّ الإرث الاجتماعي الذي يعكس أثره على نفس المتكلم بالخطاب أو الناقل له الدور الأكبر في تعيين نعت الخطاب الموسوم به؛ إذ يعطينا مساحة للبحث نقف عندها في المباحث اللاحقة إن شاء الله تعالى؛ وذلك لأنّ إبراز الخطاب ما هو إلّا قراءة معيّنة للنصّ وفهم خاصّ له، وربما يكون لهذا النصّ أبعاد أخرى، يركّز المتكلم في بعد واحد منهما دون الآخر أو يركّز فيها جميعاً، ليعكس لنا خطاباً متطرّفاً أو خطاباً معتدلاً بحسب ما يمليه عليه إرثه وثقافته وفهمه.

إذن الخطاب هو نمط معرفي مستلّ من نصوص الدين الثابتة ليعكس الرؤية الشاملة للدين ومنظومته المعرفية، وليس فهماً معيّناً تحتكره جهة أو تيار أو جماعة، هذا من وجهة نظر محايدة، طبعاً، قد يندر وجودها على أرض الواقع، وإنّما الموجود هو عين تلك الرؤى المتحيّزة لخطاب وفهم خاصّ وتطبيقاتها وهي ترفض التنازل عنها بأيّ شكل من الأشكال، وهذا بحدّ ذاته نوع من أنواع التطرّف.

٢.١.١. الدين

من المعروف أنّ المقصود بالدين هو مجموعة من المفاهيم والمعايير والاتجاهات التي يعتنقها الفرد أو الجماعة.

وبعبارة أخرى هو مجموعة من القضايا الكلية التي تشكل الرؤية الكونية الشاملة ومجموعة من الأحكام والتعاليم والإرشادات التي تشكل الإيديولوجية.

والدين بهذا المعنى يقترب من المعنى اللغوي المذكور له في المعاجم؛ إذ هو المجازاة، كما في قولهم: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ معناها كَمَا تُجَازِي تُجَازَى، أي تُجَازَى بعملك وَيَحْسَبُ مَا عَمِلْتَ، (ويوم الدين) هو يوم الجزاء، ومنه الدين بمعنى الإسلام (إنّ الدين عند الله الإسلام) ويأتي بمعنى الطاعة والالتقياد، والدُّلُّ، ويأتي بمعنى العادة.

إنّ الحاجة إلى الدين أمر فطريّ في الإنسان، وهذا ما لفت انتباه الفلاسفة وعلماء الاجتماع إلى البحث عن الدوافع التي تبعث بالإنسان إلى أن يحتاج إلى الدين ففسّر نيتشه الدافع بالخوف من المجهول لعجز الإنسان عن كشف العالم وأسراره وفسرها آخر بالجهل وهو قريب من القول الأول وفسرها ماركس بأنّ الدين أطروحة جاء بها الأغنياء؛ ليخدروا بها الفقراء ويبعدوهم عن ثرواتهم ولا يطالبوهم بحقوقهم المفروضة، ومن هنا أطلق كلمته الشهيرة (الدين أفيون الشعوب) وغير هؤلاء من فسّره بتفسير تقترب مما ذكرنا تارة وأخرى تبتعد.

ولكن للإسلام رؤية خاصّة وتفسير منطقي يتلاءم مع حاجة الإنسان للدين؛ إذ يراه أمرًا تطلبه الفطرة؛ لأنّ الإنسان في ذاته وتكوينه كائن فقير ومحتاج إلى الغنيّ المطلق والخالق المبدع في جميع النشآت التي ينتقل إليها لا في هذه النشأة فقط.

فالدين، إذًا، أحد أهمّ مكوّنات بناء الشخصية في الإنسان وتفكيره وسلوكه وتعامله مع نفسه ومع من حوله، وعندما نقول دَانَ الإنسان دينًا أي: اعتنق واعتقد بفكر ما أو مذهب ما وسار في ركابه وعلى هدايه، فهو جملة المبادئ الكلية التي تدين بها أُمَّة من الأمم اعتقادًا لتحقيق الرؤية الكونية أو عملاً لتحقيق الإيديولوجية، وبما أنّ الدين عند الله هو الإسلام، والإسلام يعني التسليم والشريعة المثلى التي تحقق جميع أهداف الدين هي الشريعة الخاتمة التي أنزلها البارئ سبحانه على نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في العقائد والأحكام، والآداب، في كلّ أمور الحياة.

إذًا، الخطاب الديني هو عبارة عن الرؤية الكلية المحققة لأهداف ومقاصد الشريعة والمعبر عنها بأيّ لغةٍ من لغات المجتمع الإنساني.

٣.١.١. الثقافة

الحديث عن الثقافة لا ينفكّ عن الحديث في مسائل التاريخ والحضارة، لأن الارتباط الوثيق بينهما يجعل تلك المسائل جميعها تنصهر في قالب واحد ومن هنا عُرِّفت الثقافة بأنّها سلوك اجتماعي ومعيار موجود في المجتمعات البشرية.

تُعَدّ الثقافة مفهومًا مركزيًا في علم المعرفة والأنثروبولوجيا الاجتماعية؛ إذ تشمل نطاق الظواهر التي تنتقل من خلال التعلّم الاجتماعي في المجتمعات البشرية، فإنّ بعض جوانب السلوك الإنساني، هي بمثابة كليات ثقافية، توجد في جميع المجتمعات البشرية، من الممارسات الاجتماعية مثل الفنّ، والموسيقى، والرقص، والطقوس، والتقنيات الشاملة للأدوات المستعملة في الحِرَف والصناعات، والطبخ، والمأوى، والملابس.

إنّ مفهوم الثقافة الماديّة يغطّي التعبيرات المادية للثقافة، كالتيكنولوجيا، والهندسة المعمارية والفنّ، في حين أنّ الجوانب غير الماديّة للثقافة هي المشكّل الأساسي لها مثل مبادئ التنظيم الاجتماعي (بما في ذلك المنظّمات السياسية والمؤسّسات الاجتماعية)، كالأساطير، الفلسفة، الأدب، العلم، المكتوب منها والشفوي على حدّ سواء.

إنّ الشعور بالثقافة بصفته سمة للفرد، هو الدرجة التي يزرعون بها مستوى معيّنًا من التطوّر في الفنون أو العلوم أو التعليم أو الأخلاق، كما يُنظر أحيانًا إلى مستوى التطوّر الثقافي على أنّه يميّز الحضارات من المجتمعات الأقلّ تعقيدًا.

توجد أيضًا وجهات نظرٍ هرميّة حول الثقافة في التمييز الطبقي بين الثقافة الرفيعة للنخبة الاجتماعية والثقافة المتدنيّة أو الثقافة الشعبية أو الثقافة الفلكورية للطبقات الدنيا في المجتمع، وتتميّز بالوصول إلى طبقة رأس المال الثقافي الأعلى.

ويمكن القول أيضًا إنَّ الثقافة غالبًا ما تستخدم الإشارات والعلامات الرمزية كما تستخدمها المجموعات الإثنية^(١)؛ لتمييز نفسها بشكل واضح من بعضها البعض فتتمثّل تلك العلامات بالملابس أو المجوهرات أو العادات والتقاليد وغيرها.

لقد جادلت بعض المدارس الفلسفية، مثل الماركسية والنظرية النقدية، أن الثقافة غالبًا ما تُستخدم للأغراض السياسية كأداة للنخب بهدف التلاعب في الطبقات الدنيا وخلق الوعي الزائف، وهذه النظريات شائعة في مجال الدراسات الثقافية، وفي العلوم الاجتماعية.

إلى هنا يمكن التعبير عن الثقافة بأنّها مجموعة العادات والتقاليد والقيم المجتمعية؛ إذ تتمثّل الثقافة عند بعض الشعوب، لاسيّما العربية، في أعرفهم القبلية الموروثة عن آباؤهم التي تُعدّ بمثابة القوانين التي تنظّم حياتهم ومعتقداتهم التي هي بمثابة خطّ أحمر إذا ما تمّ تجاوزها.

إدًا، الثقافة هي مجموعة المعارف المكتسبة بمرور الوقت، وبهذا المعنى، أن التعددية الثقافية تقدّر التعايش السلمي والاحترام المتبادل الذي يخلق جوًّا من الصفاء والتقبّل بين الثقافات المختلفة التي تسكن نفس المكان.

لذا كان أنصار الحركة الإنسانية الكلاسيكية في غضون القرن التاسع عشر تقريبًا، يعطون مفهومًا وبعدها آخر لكلمة «الثقافة»، فإنّهم استخدموا هذا المصطلح للإشارة إلى الصورة المثلى في دماثة الخلق، وأنّها تهدف إلى تحقيق غاية الكمال عن طريق التعرّف على أفضل ما توصل إليه الفكر البشري من طرق للتفكير قيلت أو أُعتقد فيها.

(١) الوحدة الإثنية هو مصطلح مُستحدث في علم السياسة، يُستخدم للإشارة لمجموعة من المجموعات العرقية المختلفة معًا على أساس أصولها الثقافية المرتبطة بها، وهذا عادةً ما يكون جغرافيًا أو عرقيًا أو لغويًا أو كلها معًا، وقد صاغ هذا المصطلح الين اسبيريتو في عام ١٩٩٢ في الولايات المتّحدة للإشارة إلى الأمريكيين الآسيويين، وهم مجموعة من المجموعات الإثنية المتباينة التي تعود أصولها إلى آسيا حيث هي الأساس الوحيد للتجميع، بغضّ النظر عن أيّ خصائص أخرى، ومنذ ذلك الحين استخدم ليحلّ محلّ ما كان يسمّى العرق، وهو يميّز من مفهوم «الوحدة القومية». (اقتباس من مقال مترجم).

إلى هنا نكتفي بما مرّ من حديث عن مفهوم الثقافة وما نريد الوقوف عليه منها في البحث.

٤.١.١. المعاصرة

هذه هي المفردة الرابعة التي وردت في عنوان البحث، ولكي نقف على مفهومها لا بدّ من طرح مجموعة من التساؤلات تحدّد الإجابة عنها مفهوم المعاصرة وكيفية التعامل معه في الحقل المعرفي الحاضر، لقد كتب علماء ومفكّرون أبحاثاً ودراسات كثيرة تهتمّ بتوفير الإجابات المناسبة عن تلك التساؤلات، ولعلنا نكتفي في هذه المرحلة من البحث بما نلخصه من أفكارهم ورؤاهم.

١.٤.١.١ في معنى المعاصرة

إن المعاصرة لغةً تعني أن يعيش الإنسان في عصره وزمانه، ومع أهله الأحياء، يفكّر كما يفكّرون، ويعمل كما يعملون، يعايش الأحياء لا الأموات، والحاضر لا الماضي.

لا يُفهم من هذا التعبير أنّها دعوة إلى الانسلاخ الحضاري والتخلّي عن القيم والمبادئ، إنّما هذا في مقام البيان اللغوي للفظ فقط، أمّا على المستوى الاصطلاحي فإنّه في الواقع يدعو إلى ربط الحاضر بالماضي وفهمه من خلال الثقافة الحاضرة لكي يساير الحياة ولا يتخلّف عن الركب البشري في سيره، ولذلك عليه أن يعي أن معرفة العصر من أبرز الضرورات التي يحتاجها؛ لأن فهم العصر ومعرفته معرفة دقيقة وجادّة يساعدان في تلك المواكبة والخروج من بوتقة التخلّف والانحدار؛ فإنّ الجهل بالعصر يؤدّي إلى عواقب وخيمة، وهذا ما دفع أحد المفكّرين إلى القول: إن المشكلة ليست في جهلنا بالإسلام، بل المشكلة في جهلنا بالعصر! وإنّ الجهل بالعصر سمة مشتركة بين الطرفين دعاة الأصالة ودعاة التجديد على حدّ سواء سوى الاختلاف بالنسبة.

لأننا قد نجد من بين دعاة الأصالة من يعيش في الماضي وحده، ويسكن في صومعة التراث، وقد أغلق عليه بابها، فلا يكاد يرى أو يسمع أو يحس شيئاً مما حوله، ويا ليتة يعيش في عصور التآلق والازدهار، بل كثيراً ما يعيش في عصور التخلف والتراجع، فهو يفكر بعقولهم، ويتحدث بلغتهم، ويحيا في مشكلاتهم، ويجيب عن أسئلتهم، فهو حيّ يعايش الأموات، أكثر مما يعايش الأحياء.

وأما الثاني فليس بأحسن حالا منه إذا دعا إلى نبذ الماضي وهجر التراث ومحاولة العيش من دونه.

المطلوب، إذًا، أن يعيش الإنسان القويّ في حاضره، منطلقًا من ماضيه إلى مستقبله، ولكي يُحسن العيشة في حاضره وزمانه (عصره) ينبغي عليه أن يعرفه أولاً حتى يتعامل معه على بصيرة ثانياً، وأقرب وسيلة إلى ذلك هي معرفة الواقع.

٢.٤.١.١ المعرفة بالواقع

إنّ معرفة الواقع من تمام معرفة العصر، وهذه المعرفة لازمة لكلّ من يريد تقويم هذا الواقع، أو إصدار حكم له أو عليه، أو محاولة تغييره.

ولا تتمّ معرفة الواقع على ما هو عليه حقيقة إلا بمعرفة العناصر الفاعلة فيه، والموجّهة له والمؤثّرة في تكوينه وتلوينه، سواء أكانت عناصر مادّية أم معنوية، بشرية أم غير بشرية، ومنها عناصر جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية، وأنّ تفسير أي ظاهرة من هذه الظواهر يتأثر باتجاه المفسّر وانتمائه العقدي والفكري.

لذا علينا أن نحذّر الباحث من الانخراط والانجراف مع الأوساط ذات النظرات الجزئية، والمحليّة، والآنية، والسطحية، والتلفيقية والتسويغية.

وعليه أن يتجنّب الوقوع في شرك الاتّجاهات المتعاكسة كالاتّجاه الإطرائي للواقع، ومعاكسه التشاؤمي، فإنّ الأول يسعى إلى تحسين الواقع وإبراز صورته سالمة من كلّ عيب، منزهة عن كلّ نقص، وغضّ الطرف عن العيوب الكامنة فيه،

وإن كانت تنخر في كيانه، وأتّهام كلّ من ينقد هذه العيوب والآفات بأنه مشوّش، أو مبالغ، أو متطرّف

وأما الثاني فهو الذي ينظر إلى الواقع بمنظار سوداوي، مجرد من كلّ حسنة، ويلحق به كلّ نقيصة، ولا يرى فيه إلا ظلمات متراكمة، موروثّة من عهود التخلّف، أو وافدة مع عهد الاستعمار، ولا يُرتجى فيه تغيير، أو يُؤمّل معه إصلاح، فكلّ حركة نحو الإصلاح هي سراب يحسبه الظمآن ماء، فإنّ أصحاب هذا الاتّجاه يرون أنّ كلّ حدث وراءه، وإن صغر، أيادٍ أجنبية، وقوى خفية، تحركه من وراء ستار، وهذا ما يطلق عليه علماء النفس والاجتماع وعلماء المعرفة بنظرية المؤامرة.

ونحن لا ننكر التآمر والكيد ولكن تضخيم ذلك بحيث يجعلنا العوبة كأننا أحجار على رقعة الشطرنج يلازمنا الشعور بأننا أبداً ضحايا لمن هو أقوى منا، ولا حلّ أمامنا غير الاستسلام للواقع المرّ، وهذا في الواقع ما أردنا أعداؤنا أن نؤمن به ونصدّقه، ولا يخفى ما لهذا الإيمان من أخطار فادحة على المجتمع فإنّه يعوق بل يدمر كلّ حركة أو مشروع يمكن أن تتحرّك به نحو الأحسن، واليأس يمنعنا أن نحاول إصلاح ما فسد، وتدارك ما وقع.

وقريب من هذا الاتّجاه ما يسمّى بالاتّجاه التنصّلي في تفسير الواقع، فهو الآخر لا يقلّ خطورة ممّا سبقه؛ لأنّه يفسّر الواقع على معنى (أنّ لا أحد يريد أن يتحمّل مسؤوليّة ما في هذا الواقع من سوء وانحراف)، فكلّ واحد، وكلّ فريق، يريد أن يحمل وزره على غيره، أمّا هو فلا ذنب له، ولا تبعة عليه، ويمكن أن يكون هذا وليد الرؤى التي خلّفتها الاتّجاهات السابقة، فهو صالح لأن يكون أثراً من آثارها الحتمية.

فهذا البحث لا يريد أن يضيف على الواقع، المسوّغات التي تجعله مقبولاً ومشروعاً، وإن حاد عن الحقّ وسواء السبيل، بل يريد معرفة واقع عصرنا وعالمنا عموماً، وواقع أمّتنا خصوصاً كما هو من دون تحريف ولا تزيف، ومن دون تهويل ولا تهوين، ولا مدح ولا ذمّ، مستخدمين الأساليب العلمية الموضوعية في الكشف والرصد والتحليل، وفي هذا ما يساعدنا على تشخيص الداء ووصف الدواء.

وبعد كلّ ما مرّ نكون قد حدّدنا المفاهيم الواردة في عنوان البحث على نحو من الإيجاز، فهي وإن كانت تستحقّ أن يكون لكلّ مفهوم منها مبحث مستقلّ به، يستوعب أغلب مسائله المهمّة ولكننا ذكرنا ما كانت الحاجة ماسّة إليه في هذا البحث من دون تعرّض إلى المسائل الأخرى.

المبحث الثاني

أثر الخطاب الديني

في الثقافة المعاصرة وأثرها فيه

بعد تحديد المفاهيم الأساسية الواردة في البحث تصل النوبة إلى الكشف عن النماذج المناسبة التي تربط العلاقة بين الماضي والحاضر وكيف أثر أحدهما في الآخر وأن الأثر تارةً يكون إيجابياً وأخرى سلبياً، لذا قد نكون وفّقنا في اختيار المثال، فعند ذلك تكتمل الصورة، بل الموافقة بين التنظير والتطبيق، وإن لم نكن كذلك، فإنّ التفكيك سيكون هو الحاكم على مجالات البحث.

إنّ عصرنا الحاضر هو عصر العلم والتكنولوجيا، عصر الحرّية وحقوق الإنسان واستقلال الشعوب، عصر السرعة والقوّة والتغيّرات السريعة، والتطوّرات الهائلة، عصر الاتّحاد والتكتّلات الكبيرة، عصر التخطيط والتنظيم لا الارتجالية والفوضى، عصر اقتحام المستقبل، وعدم الاكتفاء بالحاضر، فضلاً عن الانكفاء على الماضي، وهو أيضاً عصر السلبيات فإنّه عصر غلبة المادّية والنفعية، عصر توفير كلّ الوسائل للإنسان لإشباع شهواته ورغباته، عصر التلوّث بكلّ مظاهره، عصر الوسائل والآلات، لا المقاصد والغايات، عصر القلق والأمراض النفسية، والتمرّقات الاجتماعية.

والناس قسمان في تعاملها مع العصر ومعطياته، منهم من يهرب منه إلى الماضي خوفاً منه بدل المواجهة، ومنهم من يندمج فيه إلى حدّ الذوبان.

ولكن الخير كلّ الخير في الطريق الوسط، ذلك حينما نستعمل إرادتنا واختيارنا أمام هذه المؤثرات لنأخذ منها ما ينعفنا وندع ما يضرنا.

ولا بدّ من الانتباه إلى أمرٍ مهمّ وخطير في الوقت نفسه، وهو أن العصر ليس الغرب وحده وإن كان هو المهيمن والمسيطر، فهناك العالم الإسلامي، وعالم الشرق الأقصى بدياناته وفلسفاته بثقافته المتعدّدة والمتنوّعة.

كثيراً ما يرّد تجار الثقافة الدعوة المشبوهة، وهي استيراد الثقافة الغربية بكلّ عناصرها؛ لأنها ثقافة عالمية لا تتجزأ.

أما كونها عالمية فهي شبهة خاطئة؛ لأنهم يخلطون بين العلم والثقافة، فالعلم كونيّ عامّ، والثقافة أمر خاصّ يميّز به قوم عن قوم وجماعة وهي متنوّعة متعدّدة، أما العلم فهو واحد ولا يتّصف بصفات الثقافة.

وأما أنها لا تتجزأ فهي دعوة مرفوضة تاريخياً وواقعياً، لقد أخذ العرب عن الأمم كثيراً ممّا عندها من العلوم والمعارف، ولكنهم لم يأخذوا ثقافتها، وبقوا محافظين على لغتهم وعقيدتهم وعاداتهم وأعرافهم، وفي العصر الحديث نجد اليابانيين قد أخذوا عن الغربيين العلم والمناهج، ولم يأخذوا عنهم عقائدهم وشعائرهم وتقاليدهم.

وبعد كلّ هذا الذي مرّ يمكن أن نطرح السؤال المهمّ، وهو هل يتعارض الخطاب الديني مع الثقافة المعاصرة؟

ولكي نجيب عن هذا التساؤل لا بدّ من بيان الأمور التالية:

١.٢. الخطاب الديني والتكنولوجيا

إنّ أصالتنا لا تمنعنا من أخذ هذا العلم والاقتراس منه والانتفاع به، بل هي توجب علينا ذلك إيجاباً، وعلى المجتمع أن يسعى إلى امتلاك وسائل العلم الحديثة حتّى لا يصبح تابعاً ومنقاداً في كثير من مفاصل حياته؛ لأنّ التكنولوجيا التي تُشترى

لأجل استهلاكها تستهلك المجتمع معها أيضًا، فتلك التي تُشترى لا تطوّر المجتمع، بل تساعد على الاستهلاك لا الإنتاج، والتقليد والاتباع، إن التكنولوجيا يجب أن تنبت عندنا، وأن تتفاعل مع واقعنا، وأن نحملها نحن، ولا يظنّ ظانّ أن ما نملكه اليوم من أجهزة ومعدّات يجعلنا عصريّين بل العصريّ هو من يمتلك وسائل الإنتاج ويوظّفها لتحقيق أهدافه.

٢.٢. النظرية المستقبلية:

إن المعاصرة لا تعني أن نستسلم للحاضر، بل نتطّلع دائمًا إلى المستقبل، إن النظرة إلى المستقبل لا بدّ ألا تقوم على جانبها السلبي كالكهانة والتنجيم، وإتّما على الإحصاء والتخطيط، والدراسة والرصد وبناء النتائج على المقدمّات، كما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الخبرات التي سبقتنا ونفيد من دراسات المستقبل التي ازدهرت في الفترة الأخيرة ازدهارًا كبيرًا ونستثمرها استثمارًا صحيحًا.

٣.٢. التعامل مع التراث

تختلف أساليب التعامل مع التراث من قبل أفراد المجتمع، ومن هنا يمكن أن نقسّم المجتمع على ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: أبناء الماضي أو الماضويون: المشدودون دائمًا إلى الوراء لا ينظرون أمامهم أبدًا، ومن سماتهم أنهم يضيفون لونا من القداسة المطلقة على التراث بكلّ ما له من ألوان، فهو برأيهم حقّ كلّ لا يمكن أن نترك شيئًا منه، ويسرفون في ردّ كلّ جديد إلى قديم من التراث، وإن لم يقيم على ذلك برهان، فالطبّ الحديث . عندهم . مأخوذ من الرازي وابن سينا، وعلم الاجتماع المعاصر يوجد عند ابن خلدون، واللسانيات المعاصرة عند سيبويه... وهلمّ جرّاء، وهم يعدّون كلّ زمن شرًّا مما قبله، ومتعلّقون بالصورة والشكل لا بالروح والجوهر.

الطائفة الثانية: المُغرِقون في المستقبلية: ينظرون دائمًا إلى الأمام ولا يلتفتون إلى الوراء بدعواهم أن الإنسان يتطوّر دائمًا إلى ما هو أحسن وأمثل، وعلى حدّ

وصف أحد المفكرين: كأنما يريدون أن يُلغوا الماضي من الزمن، و(أمس) من اللغة، والفعل الماضي من الكلام، ويحذفوا الوراثة من الجهة، والذاكرة من الإنسان.

إنّ هؤلاء التراث عندهم متهمّ، والماضي بغيض، والسلف متخلفون، وتاريخ الأمة ظلمات بعضها فوق بعض، يسكتون عن حسنات التراث، ويضخّمون ما فيه من فتن وانحرافات.

الطائفة الثالثة: دعاة الوسطية: هم الذين سلّموا من إفراط الأوّلين وتفريط الآخرين، يعلمون أن التطوّر والتغيّر ليس دائماً إلى الأحسن والأمثل، يرحّبون بالتطوّر إذا كان ارتقاء إلى ما هو أفضل، وينكرونه إذا اتّجه نحو الهبوط والانحدار، إنه تيار الوسطية الذي لا يغفل المستقبل ولا ينسى الماضي.

٤.٢. العناية بحقوق الإنسان

يصوّر كثير من الباحثين أن حقوق الإنسان نبت غربي لم يكن قبلاً في الأمم السابقة، والحقيقة أن هذه نظرة ضيّقة وقاصرة.

إنّ الأمة الإسلامية قد عرفت حقوق الإنسان عن طريق ما بثّه الإسلام، بمصدره القرآن والسنة، من قيم ومبادئ تعترف للبشر بحقوقهم كاملة غير منقوصة، حتى إنّها اعترفت بحقوق الحيوان، لقد شمل الإسلام حقوق الإنسان الشخصية الذاتية والفكرية والسياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية، وأكّد المساواة والحريّات العامّة المتنوّعة، وقد شمل الإسلام حقوق البشر بأنواعهم: الرجال والنساء والأطفال، وشمل المسلمين وغير المسلمين في داخل الدولة الإسلامية وخارجها.

وضمن الإسلام، إن طُبّق واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعني إحقاق الحقّ ومقاومة البغي، وجعله فرضاً على الفرد والجماعة والدولة، لكان كفيلاً بتحقيق الأمن والسلام في المجتمع.

وقد شرّع الإسلام الجهاد لحماية حقوق الإنسان، ومنع استضعافه، والبني على ذاته وحقوقه ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ - النساء: ٧٥﴾.

كلّ ما ذكرناه من باب المثال وإلا فإنّ القائمة تطول إذا ما أردنا أن نحصي الموارد التي راعى فيها الإسلام حقوق الإنسان إن لم نقل إنّ كلّ ما شرّعه الشارع الأقدس هو من أجل الحفاظ على الإنسان ومكانته.

وقبل ختام البحث لا بدّ من تأكيد بعض النتائج الضرورية في هذه المرحلة الحرجة التي تمرّ بها أمّتنا:

أولاً: ضرورة تواصل الحوار بين المخلصين من الطرفين: الأصالة والمعاصرة، لتصحيح المفاهيم، وإزالة الشبهات، وتقريب الشقّة، ومحاولة توسيع مساحة المتّفق عليه، وتأكيد التعاون فيه، والمناقشة الجادّة في المختلف فيه، والعمل على تضييقه، والاجتهاد في الوصول إلى الصواب أو الصحيح أو الأصحّ، وأن نعمل بالقاعدة الدّهبية القائلة: ((نعمل فيما اتّفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه)) هذا في مجال السلم الاجتماعي.

ثانياً: تأكيد كرامة الإنسان، لقد وجّه كثير من مفكّري الغرب النقد العنيف إلى الحضارة الغربية التي أعلنت من شأن المادّة وهبطت بقيمة الإنسان، فعلينا أن نوّكّد ذلك وننبّأه، وهذا ما يتّفق مع مبادئ الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ - الإسراء: ٧٠﴾، ونجعل من ثقافتنا الإنسانية واقعاً حياً في أرضنا ومجتمعاتنا، ونمكّن لها في حياتنا العقلية والوجدانية، حتّى تؤدّي دورها المطلوب في البناء والإعلاء.

ثالثاً: لا صراع في ثقافتنا بين العلم والدين، أو بين العلم والإيمان أو بين العقل والنقل، العقل أساس النقل، والنقل يُشيد بالعقل ويحتكم إليه، ولا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، لذا يجب أن نُعلي من شأن العلم والإيمان حتى تدخل الأُمَّة العصر بجناحين راسخين.

رابعاً: لا تعارض بين الأصالة الحقّة والمعاصرة الحقّة، إذا فُهمت كلّ واحدة منهما على حقيقتها؛ إذ نستطيع أن نكون معاصرين إلى أعلى مستويات المعاصرة، وأن نبقي كذلك أصلاء حتّى النخاع، إنّما تتعارض الأصالة والمعاصرة، إذا فُهمت الأصالة على أنها الاحتباس الاختياري في سجن الماضي، والمعاصرة على أنها الدوران في رحي الغرب.

لذا يجب أن نرفض الاتجاهين المتطرفين:

الاتجاه الأول: الذي ينتهي بالأصالة إلى الجمود والتجبر.

والاتجاه الثاني: الذي ينحو بالمعاصرة نحو الفناء في الغرب، وأتباع سننه شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلوه، ولا يكتفي بأخذ العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم فيه، واقتباس كل ما تنهض به الحياة، بل هو يصرّ على نقل الأنموذج الغربي إلينا بكلّ عناصره ومقوماته، ولاسيما جذوره الفلسفية، ومفاهيمه الفكرية والأخلاقية، ومجالاته الأدبية، وتقاليدته الاجتماعية، وقوانينه التشريعية، ومؤثراته الثقافية.

هذا خلاصة ما أردنا سرده في هذه العجالة، وهو عبارة عن عصارة استخلصتها من مجموعة من المصادر أسردها في قائمة لاحقة، والذي أرجوه من إخواني أن ينصفوني بالنقد بتقويم خطئي والعفو عن زللي، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

وقبل الختام أتقدم بالشكر الجزيل إلى الجهة الداعمة والداعية إلى إثراء الساحة الفكرية بمثل هذه الدراسات والبحوث، وأخصّ بالذكر (مؤسسة الإمام الخوئي «قده») ورئاسة قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العلوية المقدسة المتمثلة بسماحة العلامة الجليل الشيخ شهيد البغدادي (دام عزّه) وإلى كلّ الإخوة في شعبة التراث وبالخصوص سماحة العلامة المحقق الشيخ قاسم الخاقاني (دام عزّه) بما أمّديني به من مصادر وملاحظات أثرت الجانب العلمي في البحث، ولا أنسى سماحة العلامة المحقق الشيخ مهّد العقابي (دام عزّه) بملاحظاته القيّمة، والفاضل الجليل السيد عليّ الشرع (دامت توفيقاته).

وفي الختام أحمد الله سبحانه أولاً وآخرًا على ما وقّنا إليه لأن نكون في خدمة مولانا وملاذنا صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وأسأله أن يهَيئ لي من الإخوة من يعينني على تدارك تقصيري وما فاتني ذكره ويغفر زلّاتي وهفواتي ويساعدني في تلافيتها، إنّه حميد مجيد، والصلاة والسلام على خير خلقه محمّد المصطفى وأخيه المرتضى وآلهما الطيّبين الطاهرين.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أصول المعرفة والمنهج العقلي للدكتور أيمن المصري
- الثابت والمتغير في الأدلة النصية للشيخ حسن علي أكبريان
- السيرة النبوية للشيخ علي الكوراني
- شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة
- الصحاح للجوهري
- الصحيفة السجّادية
- فلسفة التاريخ عبد المجيد الصائغ
- الكافي للشيخ الكليني
- لسان العرب لابن منظور
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس
- مقالات منشورة على الشبكة الألكترونية
- نهج البلاغة

البحث العشرون



الخطاب الديني بين الأدلجة والتكفير العراق انموذجاً



الدكتور جاسم محمد
كلية الإمام الأعظم - نينوى

مدخل

قبل البدء بطرح المحاور التي اعتمدها في ورقتنا هذه التي اهتمت بالخطاب الديني (العراق أنموذجاً) لا بدّ لنا من قراءة المشهد المجتمعي للعراق، فهو مجتمع متكوّن من إثنيات - عرب - أكرد - شبك، وانقسامات دينية سماوية وغير سماوية - مسلمين - مسيحيين - يزيديين - صابئة، وتنوّعات مذهبية - سنّية - شيعية - فضلاً عن الانقسامات المجتمعية - عشائر - مدن، والانقسام الفكري - حدائين - محافظين، وهذا التنوع والتعدّد له مردودات سلبية وإيجابية في آن واحد، فهو سلبيّ في الفضاءات الضيقة والمتوقعة على نفسها، والتي لا تتمكّن من مغادرة ما وراثياتها، ومرجعياتها، وتشكّلاتها العقلية، وترفض الحداثة، وتنوّعاتها، على المستوى الديني والمجتمعي والسياسي والثقافي، ولهذا ينتقد بعض المفكرين مفهوم التعايش انطلاقاً من اعتبار أن الدول والجماعات البشرية (العرقية والإثنية والدينية) إنما هي في طبيعتها صراعية؛ وعليه لا بدّ من الإقرار بحتمية التصادم، ولا يُطلق مصطلح التعايش إلا من قبل الأغلبية لكي يفرضوا سيطرتهم على الأقلية، وذلك للحفاظ على هيمنتها بطرح أشكال التعايش السلمي وأنماطه.

بينما يرى آخرون هذا التنوع إيجابياً بوصفه مجتمعاً مفتوحاً، يمكنه أن يتجاوز أزماته الطائفية، وتشكّلاته الدينية والمذهبية، بقدراته العقلية والنقدية ولا سيما لدى المثقّفين من أبنائه، على اختلاف توجّهاتهم ومرجعياتهم العلمية والثقافية، فتنجلي لهم أسس التعايش المشترك، وقبول الآخر المختلف، إثنيًا ودينيًا وعرقيًا؛ لتصبح بعد ذلك الهوية هي القوة الدافعة الأساسية في التنمية

البشرية التي تتطور من حالة الحد الأدنى من الاعتراف بالاختلاف وقبول التنوع والاعتراف المتبادل، ومن جهة أخرى، إلى وجود علاقة تحويلية في المجتمعات، ربما على مرور الزمن قد تجد الآليات والمؤسسات المناسبة لتلتحم ومستوى أعلى للتعایش والتنوع.

المحور الأول: مرجعيّات الخطاب الديني.

تتعدّد الفضاءات في بلدنا الحبيب (العراق) بمذاهبها الدينية وتياراتها الفكرية ومرجعياتها الفقهية، لتتمحور بعد ذلك في مذهبين إسلاميين أساسيين، لهما الصفة الغالبة على مستوى الفضاء المجتمعي (المذهب السنّي والمذهب الشيعي) ليتفرّع بعد ذلك من كلّ منهما تملذهبات فقهية متعدّدة وتيارات فكرية متنوّعة، تتكئ في خطاباتها السائدة، على مرجعيّات مختلفة، تتفاوت في فهمها للنصوص الدينية، بين التأويل والتفسير والأحكام الفقهية، التي تشكّلت حولها، وفق تاريخية معيّنة، ومشروطية محدّدة، وتوجّهات مختلفة، ومنهجيات متعدّدة، وعلى كافّة المستويات والأصعدة، الذاتية والموضوعية للمفسّر أو الفقيه، وحتى على مستوى الفضاء العامّ الذي كان يعيش فيه ذلك الفقيه أو المفسّر، فضلاً عن التكوين العلمي والمعرفي والضغوطات السياسية التي كان لها الأثر الأكبر في توجّهات العديد من النخب العلمية والفكرية في عصور بكوريّة تكوين الخطاب الديني.

ويمكننا القول بأننا لسنا معنيين بإبراز إشكالية الفصل بين مفاهيم ثلاثة يمكن أن تكون معقّدة وصعبة التفريق بين أجزائها _ الدين - والفكر الديني - والخطاب الديني _ في عالم العلوم الاجتماعية والشرعية، ولاسيما عند بعض الكتاب، والسياسيين، وعوامّ المجتمع^(١). بل ما يعنينا من ذلك هو الخطاب الديني الذي تشكّل في مراحل متأخّرة للبعثة النبوية، وفق تلك المرجعيّات الفقهية والتفسيرية والتأويلية للنصّ الديني (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة) والولوج في منطلقاته، وحيثياته، ومستوياته، وأبعاده، وانشغالاته الإنسانية، والمجتمعية على

(١) الإبراهيم، نضال، تجديد الخطاب الديني وما بعد تجديد الخطاب الديني، مقال منشور على صفحة الحوار المتمدّن، الجزء الأول.

كافة الأصعدة، فالخطاب الديني مرّ بمراحل متعدّدة وألوان مختلفة، فمن خطاب النهضة مع الأفغاني ١٨٩٧ ومحمّد عبده ١٩٠٥، إلى الخطاب السلفي الاجتهادي مع رشيد رضا ١٩٣٥، إلى السلفية الجهادية القطبية ثمّ الخطاب الثوري الإيراني، إلى الخطاب النقدي المعرفي الجديد... أشكالاً من التجارب والإرهاصات والمخاضات التي تحكي عن ولادة كبرى تحضّرها قوانين التاريخ والاجتماع لعالمنا المسلم.

ومن بين ألوان الخطاب، خطاب التجديد الذي ظهر في بدايات القرن الماضي على ما يبدو، وقد تنازع فيه فريقان: رافض له ولمعطياته، وتمثّل ذلك في سيّد قطب بتأطيره بجاهلية القرن العشرين (معالم في الطريق) رافضاً فيه تطوّر الدراسات الإسلامية، واجترح الفقه الإسلامي لقوانين تواكب العصر، والفريق الآخر يوافق ذلك التجديد ويواكبه بصور وأشكال مختلفة، وفق منهجيات متنوّعة وآليات متعدّدة ترجع في غالبها إلى الماورائيات المكوّنة للعقلانيّات، على مستوى الفرد والجماعة، كأحزاب أو تجمّعات.

وهنا يمكننا الذهاب إلى أن العقل الديني، داخل المجال العربي الإسلامي، بما فيه العراق، وفي مراحل مبكّرة تفكّكت لديه الروح الأخلاقية، فضلاً عن قبول الآخر، ويرجع السبب في ذلك إلى مأسسته، وارتهانه للمرجعيّات الفقهية الأحادية، مما سهّل انقياده للمؤسّسة السياسية، التي تماهت مع المؤسّسة الدينية، لدرجة اندماجهما في الرؤى والأحكام، ولم يتمكّن العقل الديني من الدخول في مسار الحدائث الدينية^(١). في حين لو عدنا إلى الوراثة وبالذات عصر النبيّ عليه الصلاة والسلام لوجدنا ميثاق المدينة ينصّ على منح أبناء المجتمع المدني كلّ الحقوق والحريّات، ولاسيما الدينية منها، يشير إلفير دورانوفيتش إلى الوثائق الأساسية الخاصّة بحماية حقوق الإنسان ((الإسلام يحمي الوثائق الأساسية الخاصّة بحماية حقوق الإنسان، فميثاق المدينة كان أول ما كُتب من وثائق على أساس الحقوق المتساوية للجميع، وحماية القيم الديمقراطية، يكمن ذلك في الأهميّة التي يوليها للتفرّد الديني والقانوني والثقافي، فإن رسالة الميثاق الأساسية هي قبول مصادر

(١) السعدي، رشيد، محنة الإيمان وانغلاق الفقه وتهافت القانون، ١٣.

الحقوق التي لا تتناقض مع الشريعة، وهي رسالة واضحة لمنقفي العصر ليعترفوا بجميع مساعي الإنسانية النبيل))^(١).

ولا تزال حرّية التفكير والتعبير، بصفتها ممارسة إيمانية، تخضع لمقولات النظام العامّ، أو مقابله الفقهي (المعلوم من الدين بالضرورة) حيث ذهب بعض المذاهب الفكرية، السنّة (يعدّون أنفسهم مالكين لمنهج السلف والجماعة) والشيعية (يعدّون أنفسهم تحقيقاً لأصول التجربة الدينية) على حدّ سواء بصياغة تصوّر معياري للإيمان، ونظرية حول الاعتقاد، أو الإيمان الصحيح، على شكل نظام مغلق، وهو تصوّر مرتبط بمفاهيم ومرجعيات تاريخية معيّنة، تولدت في فضاء فقهي محدّد، وظروف تاريخية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمساقات سياسية، كان لها الدور الفاعل في تحديد مسار المؤسسة الدينية، لذا شهد تاريخنا الإسلامي القريب محنة العشرات من المفكرين الأحرار الذين تعرّضوا للتكفير وللاضطهاد والقتل، وما زالوا إلى يومنا هذا، وذلك لكونهم اختاروا لأنفسهم طريقاً خاصاً للإيمان، أو فهم العلاقة بالله، اتّهموا بالزندقة، وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، وزعزعة الثوابت والنظام العامّ، كأمثال نصر حامد أبو زيد، وعلي عبد الرازق، ومحمود محمّد طه وفؤاد زكريّا وغيرهم.

ولا يعني هذا أننا ندعو إلى القطيعة مع التراث، بل إلى قراءته قراءة علمية، نقدية وفق المنهجيات الصالحة لزماننا، وكما أشار إلى ذلك الدكتور الرفاعي إلا في حدود ما هو مميّز ومميّت فيه التجديد البناء يتأسّس على فهمٍ علمي للتراث، واستيعاب نقدي للمعارف اليوم. وذهب إلى إخفاق كلّ المشاريع والدعوات التي دعت إلى القطع الجذري مع التراث، ولم توصلنا إلى أيّة محطة لبناء الفرد والمجتمع والدولة، والطريق الصحيح هو دراسة التراث دراسةً علمية معمّقة، والتوغّل في اكتشاف بنيته التحتية ورؤيته للعالم، في ضوء منطلق العلوم والمعارف الحديثة، ومغادرة ما استنفد غرضه فيه، ولم يعد صالحاً لغير زمانه^(٢).

(١) ميميسيفتش، إيماننا، الخطاب الديني والديمقراطية والحزّيات المدنية في المطبوعات الإسلامية، كتاب الإسلاميون وقضايا الدولة والمواطنة، مجموعة مؤلّفين، ج٢ - ٢٩٢.

(٢) الرفاعي، د عبد الجبار، الدين والكرامة الإنسانية، ١٦ - ١٨.

المحور الثاني: أدلجة الخطاب الديني.

لا يزال سؤال الحرّية الدينية سؤالاً مركزياً وراهنياً داخل المجتمعات المعاصرة، بفعل تنامي الوعي بحقوق الإنسان، ولعلّ هذه الراهنية تُطرح بشكل أكثر عمقاً في المجتمعات العربية الإسلامية التي دخلت ومنذ الربيع العربي، بجهة الخصوص، مرحلة تساؤلات كبرى، وبداية تفكيك لبناتها الشمولية^(١).

ولو عدنا إلى المجتمعات الغربية، التي طُرحت فيها تساؤلات كثيرة، وبأوقات مبكرة حول الدين ومساراته، وفضاءاته التي يمكن أن تنحسر فيه، فتشكّلت الرؤية العلمانية في بداياتها، لتعلن فصل الفضاء الديني عن الفضاء المجتمعي بما فيها السياسي، بعد مخاضاتٍ عسيرةٍ كانت السلطة المطلقة فيها للكنيسة، التي سيطرت بإحكام على جميع مرافق الحياة، فانبثقت تلك الثورة الخلاصية لحكم الكنيسة ومرجعياتها التسلطية، لتعلن عدم القبول بالنظام الكنسيّ الارثوذكسيّ، ولقد مرّت العلمنة بمراحل متعدّدة يمكن أن تكون صلبة في بداياتها، كردّة فعل لتلك المرحلة على الواقع الكنسيّ، ورُبط مسارها بانحسار قيم الإيمان الديني، وتبيّن ذلك من خلال عدّة كتابات غربية (غروب المقدّس) سابينو أكوايفا و(زوال الاختلاب أو الوهم عن العالم) مارسيل غوشيه، إلا أنه ومنذ مدّة ليست بالقليلة، بدأ يتّضح قصور تلك الأطروحات، أمام العودة القويّة للإيمان الديني، بمظاهر عدّة كالانتشار المتنامي للطوائف الدينية، والجماعات شبه الدينية ذات النزعة التصوّفية، وتنامي دور نموذج لاهوت التحرير، وازدياد عدد الغربيين الذين اختاروا التصوّف الإسلامي ملجأً روحياً.

وأوضحت دراسات قام بها الاتحاد الأوربيّ، حول وضع القيم عند الشباب، أن أغلبيّتهم يرفضون الانتماء إلى ديانة معيّنة، إلا أنهم يظهرون ارتباطاً مطّرداً بالقيم الإيمانية المؤسّسة للديانات الكبرى، مثل الإيمان بالله، والحياة بعد الموت^(٢)، ولهذا نجد الدكتور الرفاعي يعقد مساجلة بين إيمان المتكلمين وإيمان المتصوّفة، فيقول: جلال الدين الرومي وزملاؤه كأبي يزيد البسطامي والحلاج والنفري ومحي الدين بن عربي حرّروا الدين من مضايقي أفق دين المتكلمين، الذي

(١) السعدي،، رشيد، محنة الإيمان، ١٢.

(٢) المستقبل، الأربعاء ٩ كانون الثاني / يناير ٢٠١٣ - العدد ٥٦٩.

وضع عقل المسلم داخل أسوارٍ مقفلةٍ، ودين الفقهاء الذي وضع كلاً قولٍ وفعلٍ في حياة المسلم تحت وصايتهم داخل دائرة مغلقة، وجعل الروحَ تختنقُ وتستغيث من أعباءِ تحريماتٍ لا تُعبّر عن روح الشريعة، مثل تحريم أكثر أشكال الفنون الجميلة، وعلى الرغم من أنّ تلك التحريمات لم ترد في آيات القرآن الكريم أو في أدلة أخرى معتبرة، لكنها تصدر على الإنسان الاستمتاع بكلّ ألوان التعبيرات الجمالية في العالم، التي هي من الحاجات الأساسية لكل كائن بشري^(١).

وعند العودة إلى انشغالات المثقف الديني، بكلّ المصطلحات التي تنطبق عليه (كخطيب وموجه ومرّب وفاعل ومهتمّ ومشتغل) في هذا الفضاء، تتمحور جهوده حول تفسير ونقد ما يتفتّى في مجتمعاتنا، من قراءة خرافية للنصوص الدينية، كما يعمل على تقويض القراءة الفاشية المتوحّشة، والأيديولوجية لهذه النصوص، في حين نجد الواقع الديني في خطابه اليوم وعلى مستوى المذهبين السنيّ والشييعي، حوّل إلى خطابات وعظية تخاطب في أغلب محتواها ومعالجاتها العواطف، بمسائل جزئية، أو أنها عبارة عن استجرار للماضي الذي يفتخر به، لتاريخيات معينة وظروف محدّدة، ليس لها اهتمامات بمشاكل عصرنا الحاضر، وكأن مجتمعاتنا اليوم قد بلغت الذروة في تمامها وحلّ أزمتها الإيمانية والأخلاقية والسلوكية دون التعرّض للأولويات التي ينبغي طرحها على المتلقّي، ومحاولة توجيهه نحو قضايا كبرى شغلت العالم اليوم ولاسيما المجتمع العراقي.

فالمثقف الديني وفق تعبير الرفاعي غيورٌ على الحياة العقلية للناس، لا يملّ من إيقاظ القيم الروحية والأخلاقية والجمالية في الدين، تنشُد رسالته: إيقاظ العقل، وإحياء الروح، وإثراء الأخلاق، وتربية الذوق الفني، ويعمل على حماية العقل من أن تستهلكه الخرافات، وما تفضي إليه تلك الخرافات من أوهام وتشوّهات في رؤية العالم؛ ليتوصل بعد ذلك إلى بناء تديّن عقلائي، من خلال اكتشاف ما هو دنيوي وما هو ديني، ورسم الحدود الخاصة بكلّ منهما، ثمّ بناء الروح الإيمانية وتمتينها، ومحاولة حماية الأجيال الجديدة من التمرّق، والعبثية، والضياغ في دروب التيه^(٢).

(١) الرفاعي، د عبدالجبار، الدين والنزعة الإنسانية، ٤٦.

(٢) الرفاعي، د عبدالجبار، الدين والنزعة الإنسانية، ٨٤.

المحور الثالث: توخّش الخطاب الديني.

يتحتّم على العالم العربي على وجه العموم، والمجتمع العراقي بالذات، لخصوصياته الإثنية والدينية التي تكوّن منها، أن يعيش مشروعه الإصلاحية للدين، من خلال إعادة بناء العلاقة الأخلاقية بين الدين – الأديان والدولة – وفك الارتباط بين البعد الفردي للإيمان، والبعد المدني للقوانين^(١).

والذي يبدو حاضراً في السياق العربي الإسلامي، امتداد لمحنة الإيمان في التاريخ الديني الإسلامي، وفشل التجربة التاريخية للمسلمين في تدبير العلاقة بين حرّية الإيمان، ومفهوم الثوابت العقدية للأمة ولهذا نجد المجتمعات العربية الإسلامية في غالبيتها، ما زالت تعيش تحت سلطة قوانين تشرّع انتهاك حرّية الإيمان بالإكراه المباشر أو غير المباشر، أو حتّى رفض الاعتراف بالطابع الديني للتجربة الإيمانية، لبعض الجماعات الإسلامية، تحت ذريعة حماية الوحدة الدينية^(٢).

ويمكننا الذهاب إلى أن الغزو الأمريكي للعراق، أسهم في تعميق جوانب التشرطيّ وتوسيع معاناة المجتمع العراقي على كلّ الأصعدة وفي كلّ الفضاءات بما فيها الفضاء الديني، ومنذ الأسابيع الأولى التي أعقبت الغزو في سلسلة الإجراءات التي اتخذتها سلطة الاحتلال، وإلى ذلك يشير مايكل أوترمان في كتابه (محو العراق) إلى أن الحاكم الأمريكي بول بريمر شرع في بداية تعيينه بتفكيك الدولة العراقية، في انتهاك لقوانين الاحتلال الواردة في اتفاقيات جنيف، تسلّح بريمر بسلطات تنفيذية كاسحة، فحلّ الجيش العراقي وأنتج فيضاً من الرجال الغاضبين الذين تلقوا تدريباً عسكرياً، وانضمّوا سريعاً إلى التمرد^(٣).

فأصاب المجتمع بما يسمّى الوهن الاجتماعي، تجلّت معطياته في ضعف أداء نظمه ومؤسّساته الاجتماعية والدينية، ولم تتمكّن المؤسسة الدينية من مواجهة هذا الوهن، بوصفها فاعلة وحيوية في المجتمع العراقي، ويرجع السبب في ذلك إلى

(١) السعدي، رشيد، محنة الإيمان وانغلاق الفقه وتهافت القانون، ١٢.

(٢) السعدي، رشيد، محنة الإيمان وانغلاق الفقه وتهافت القانون، ١٤ - ١٥.

(٣) أوترمان مايكل، وآخرون، محو العراق، خطة متكاملة لاحتلال العراق وزرع آخر، نقلًا عن كتاب عشر سنوات هزّت العالم ١٧٠.

ضعف خطابها الفكري المنفتح وانحساره بالخطاب الوعظي والأيدولوجي الذي لا يكاد يغادر محيطه الذي وُلد فيه (دور العبادة)، ولم يتمكّن من الولوج إلى المشكلات الحقيقية التي يعاني منها أبناء المجتمع، ومحاولة معالجتها وفق عقلانيات منفتحة ورؤى إيمانية علمية، فضلاً عن عدم القبول بالحدائث الدينية لدى المؤسسة الدينية التي تُنتج وتتولّى الفاعلين والمشتغلين بالخطاب الديني، والذين يتصدّرون المشهد في الفروع المنبثقة من تلك المؤسسة، زيادة على عدم القدرة على معالجة تلك الأزمات بما يتلاءم والمعطيات الإنسانية، والمحافظة على السلم المجتمعي، فتفككت المنظومة القيمية والأخلاقية والسلوكية، وبدأ المجتمع يعاني من مظاهر التلوّث والعنف والتعصّب والتزييف في القيم، والمعايير والمبادئ الأخلاقية والإنسانية.

فتولدت الصراعات المذهبية، وتنامت العصبية الطائفية بين الفرق الإسلامية، ولعبت السياسة الدور الفاعل في مثل تلك الأزمات، ولاسيما بين الشيعة والسنة، ويمكن أن يكون مرجع الطائفتين في ذلك هو البعد الفقهي الضيق والمُشكّل لعقل أبناء تلك الطائفتين، من خلال الخطاب الديني المعبّأ بعدم قبول الآخر ورفضه وتكفيره، وإخراجه من الفضاء الإيماني متكئين في ذلك على ما ورد من حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، فيه إشكاليات سنديّة ومتنّية، بروايات متعدّدة وألفاظ متقاربة مؤدّاهما واحد (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصراني على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي) وقد ورد هذا الحديث في المراجع الشيعية والسنيّة على حدّ سواء^(١)، فشكّل الحديث مجالاً تمجيدياً للذات، وكرّس فكرة حتمية الاختلاف والروح الإقصائية، ما كان له التأثير البالغ في تفكيك وحدة المسلمين، حيث أصبح يشكّل الأساس العقائدي للطائفية، وصناعة التكفير، كما أصبح مركز الانغلاق اللاهوتي داخل المنظومات الأرثوذكسية السنيّة (عقيدة أهل السنة والجماعة)، والشيعية (عقيدة أهل البيت) التي تتنازع حقّ احتكار الإسلام الصحيح، وتمثّل

(١) ورد هذا الحديث في مراجع أهل السنة عند الترمذي برقم (٢٦٤٠)، أحمد بن حنبل (٢/ ٣٣٢)، ابن ماجه (٣٩٩٣). وفي مراجع الشيعة عند الشيخ الصدوق (الخصال ٥٨٤-٥٨٥) بحار الأنوار - ٢٨، أمالي المفيد ١٣٢ وغيرها من المصادر.

المشروعية العقائدية للإسلام، من خلال تفسير النصوص التأسيسية، وقراءة التاريخ التراثي، يقول هنري لاوست في كتابه (الانقسامات في الإسلام): إن التكفير لم يقتصر على أصحاب الأديان الأخرى، إنما تعدّاه إلى المسلمين أنفسهم، فقد أصبحت كلّ طائفة تكفّر الطوائف الأخرى، وتبيح دمها طوال عصر الانحطاط حتى اليوم... كما لو أنها لا تنتمي إلى دين واحد وكتاب واحد، ولذا فإن الهوية النفسية السحيقة بين السنّة والشيعّة أكبر أحياناً من تلك الهوية التي تفصل المسلمين عن اليهود والمسيحيين^(١).

في حين أن التجربة الإيمانية الغربية بفعل مجمل التحوّلات اللاهوتية والسياسية التي عاشها السياق التاريخي الغربي، استطاعت أن تدمج الفعل النقدي في مجالها التداولي، من خلال تفعيل قيمة التسامح، كما أن القوانين تمّت صياغتها كي لا تحول دون ضمان حرّية التفكير، بصفتها أساس كلّ القناعات الإيمانية، في حين أن السياق العربي الإسلامي الديني لم يستطع بعد أن يلج مفهوم أخلاق الاختلاف التي هي نتاج هشاشة التصوّرات الإيمانية، حيث لا يزال حبيس وهم الحقيقة الدينية المطلقة والواحدة، لذا فإن طريقة فهمه للمقدّس تجعله عاجزاً عن التواصل مع الفعل النقدي، والوعي بأنه يشكّل تجربة إيمانية، ما دام البحث عن الحقيقة جوهر كلّ التجارب الإيمانية.

وعلى الرغم من كون الإسلام، هو آخر الرسالات السماوية يفترض، في العقل الإسلامي، أن يكون محرّكاً وفاعلاً وطليعاً في عملية التحرير الديني، وممارسة الحدائث الدينية، إلا أنه انبثقت الحركات الأصولية والسلفية الإقصائية من رحمته، فسيطرت العقلية النصوصية والمعارف النقلية، على المشهد الديني، والتي أدّت إلى إلغاء الإنسان المستخلف، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ - البقرة: ٣٠﴾، حيث أصبح التراث هو من يصنع الإسلام، وعمّلت السلفية الجهادية على توسيع دائرة المقدّس للحفاظ على سلطة النصوص والناطقين باسم الحقيقة الإلهية؛ الفقهاء، مما أدّى إلى انحسار دائرة المُفكّر فيه، واتّسع دائرة المحظور، من خلال مقولة المعلوم بالدين بالضرورة،

(١) صالح، هاشم، الإسلام والانغلاق اللاهوتي، دار الطليعة، بيروت، ٢٢٥.

بالإضافة إلى نشأة منظومة من الأساطير، التي تدلّ على عدم دخول الفكر الديني مجال الفاعلية البشرية، وبقائه رهيناً أوهام الاصطفائية والانتظارية.

وهذا ما حدّرنا عليه الصلاة والسلام منه بقوله: (إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَ بِهَجْتِهِ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْنًا لِلْإِسْلَامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَنْسَلَخَ مِنْهُ وَتَبَدَّه وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالسُّرْكِ»، قال: قلتُ: يا نبيَّ الله، أيُّهما أُولَى بالسُّرْكِ، المَرْمِيّ أم الرَّمِيّ؟ قال: بل الرَّمِيّ^(١).

ويُعَدُّ التكفير معضلة الأديان كلّها، ظهر التكفير في الإسلام في وقتٍ مبكّر، ليس هناك استثناء في التكفير لدى الفرق في الإسلام، في كلّ الفرق نجد من يكفر المختلف في المعتقد، وإن كانوا يختلفون في عدد من يقول بالتكفير ودرجة تشدده وحدوده، ويرتّب الفقهاء على ذلك أحكاماً وفتاوى تُقيّد التعامل مع المحكومين بالتكفير^(٢).

يشير د. عبد المجيد الشرفي في شرحه لطلابه نصّاً من نصوص كتاب المنتظم لابن الجوزي يتعلّق بما كان يُثار من فتن بين الشيعة والسنة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حول مسجد براهنا ببغداد، فكان الطلبة يستغربون أن يبلغ التعصّب المذهبي بمتساكني العاصمة العباسية إلى التقاتل والحرق والنهب، ولا يزون فائدة في الاهتمام بأحداث تنمّ عن تخلف، تجاوزناه في عصر حقوق الإنسان، لكن الماضي والموروث لا يموت فينا، بل قد يخمد ويتوارى إلى حين، ولكنه قد يبرز من جديد، وإن بشكل آخر، لذلك من الضروري تشييد حياة عصرية، معرفة هذا التراث وتصفية الحساب معه، بالقراءة والتحليل وبكلّ الأدوات التي تتيحها لنا علوم الإنسان والمجتمع من لسانيات وإناسة وفلسفة وعلوم نفس واجتماع وتاريخ وما إليها^(٣).

وختاماً أدعو المؤسسات المعنية المتمثلة بالوقفين السنّي والشيوعي، والحوارات الدينية، والمراكز البحثية، ودور العلم المهتمّة بالشأن الديني،

(١) رواه ابن حبان وأبو يعلى الموصلي.

(٢) الرفاعي، د عبدالجبار، مقدّمة في علم الكلام الجديد، ٢١٦.

(٣) الشرفي، د. عبدالمجيد، عبثية الصراع المذهبي، بحث مقدّم في كتاب: الصراع المذهبي فصول في المفهوم والتاريخ، ٥٧ - ٥٨.

والمشتغلة بالإعدادات البشرية الفاعلة في مجتمعنا العراقي، أو ما يُسمّى باللغة الدينية (بإعداد الدعاة) إلى إعادة النظر بالمنهج الدراسية التي يتناولها الطلبة في كلّ المراحل التي يدرسونها، ولا سيما في المدارس الدينية، ومحاولة دمج مفاهيم لطالما غابت عن العقل الديني في تلك المؤسسات، كالتسامح وقبول الآخر، وإشاعة المحبّة، ونبذ العنف والتطرّف، وإلغاء الحقّانية الدينية، والاعتدال في الخطاب والتوجيه، وإعادة النظر في العلاقة الجدلية بين الخالق والمخلوق التي بُنيت على أساس الخوف والرعب والإحراق بالنار، إلى نوازع المحبّة، والرحمة، والرأفة، والمسامحة، وبتّ معاني الإيمان، وإحياء الضمير الديني، لتنشأ بعد ذلك علاقات حميمية رابطة بين العبد وربّه، وبين أبناء المجتمع من جهة أخرى على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.

المصادر

١. إبراهيم، نضال، تجديد الخطاب الديني مقال منشور على صفحة الحوار المتمدّن، الجزء الأول.
٢. السعدي، رشيد، محنة الإيمان وانغلاق الفقه وتهافت القانون، مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٦.
٣. الرفاعي، د عبد الجبار، الدين والنزعة الإنسانية، دار الرافدين، ٢٠٢٢.
مقدّمة في علم الكلام الجديد، دار الرافدين، ٢٠٢٢.
الدين والكرامة اللإنسانية، دار الرافدين، ٢٠٢٢.
٤. أوترمان مايكل، محو العراق، خطة متكاملة لإقلاع العراق وزرع آخر، نقلًا عن كتاب عشر سنوات هزّت العالم.
٥. المستقبل، الأربعاء ٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٣ - العدد ٤٥٦٩.
٦. ابن حنبل، المسند.
٧. ابن ماجة، السنن.
٨. الترمذي، السنن.
٩. الشيخ المفيد، الأمالي، دار التيّار الجديد.
المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، وزارة الإرشاد الإسلامي.
١٠. حسن ناظم، إياد عنبر، الصراع المذهبي، فصول في المفهوم والتاريخ، دراسات جامعة الكوفة.
١١. صالح، هاشم، الإسلام والانغلاق اللاهوتي، دار الطليعة.

البحث الواحد والعشرون



الخطابة الحسينية وأثرها في الواقع الجديد



سماحة السيد الدكتور فارس السلطاني

كلية الفقه / جامعة الكوفة

الخطابة:

يعرّفها (أرسطو) بأنها: "قوّة تتكلّف الإقناع الممكن في كلّ واحد من الأمور المفردة"^(١)، ويرى آخرون أن الخطابة فنّ، والفنّ في اللغة: الأنواع، وثوب فيه تفنين أي: إذا كان فيه طرائق ليس من جنسه، والفنّ الغناء، وهو الأمر العجب^(٢).

وأما الفنّ في الاصطلاح فقد اختلفت عبارات الأدباء والفلاسفة في تحديده؛ إذ هو مختلف باختلاف الأجيال والنظريات: عبارة عن مجموعة متنوّعة من الأنشطة البشرية في إنشاء أعمال بصرية أو سمعية أو أداء (حركية)، للتعبير عن أفكار المؤلّف الإبداعية أو المفاهيمية أو المهارة الفنية، والمقصود أن يكون موضع تقدير لجمالها أو قوتها العاطفية^(٣) و^(٤)، فالفنّ هو محاولة لخلق أشكال ممتعة، ومثل هذه الأشكال تشبع إحساسًا بالجمال وإحساسنا بالفنّ والجمال إنما يشبع حينما نكون قادرين على أن نتذوّق الوحدة أو التناغم بين مجموعة من العلاقات الشكلية من بين الأشياء التي تدرسها حواسنا^(٥).

(١) ظ: الخطابة. أرسطو طاليس، الترجمة العربية القديمة، تحقيق وتعليق د/ عبد الرحمن بدوي، ص٩، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩م.

(٢) ظ: اللسان: (فنن)

(٣) "Art: definition". Oxford Dictionaries مؤرشف من الأصل في ٢٠١٦-٠٩-١٠.

(٤) "art". Merriam-Websters Dictionary مؤرشف من الأصل في ٢٠١٩-٠٨-٣٠.

(٥) معنى الفنّ (هيرت ريد) تر (سامي خشبة) / الهيئة المصرية للكتاب ط ١٩٩٨: ١٢

الخطابة فنّ:

وبذا تندرج الخطابة في مفاهيم الجمال فهي حركة قولية إبداعية تعني في اللغة الكلام المنثور المسجّع^(١)، وتعني أيضا مراجعة الكلام^(٢).

وتعريفها في الاصطلاح:

مرّ علينا تعريف (أرسطو) لها بأنها قوّة ويعني بها القابلية التي يتمتّع بها الخطيب من فنون القول التي يسيطر بها على الأسماع والعقول والقلوب من أجل الإقناع والتأثير والاستمالة، فهي فنّ نثري قولي شفاهي يتألّف من ثلاثة عناصر قائل وهو الخطيب والموضوع وهو الخطبة والمستمع وهو المتلقّي.

الخطابة والنثر:

النُّثْرُ نَثْرَكَ الشَّيْءُ بِيَدِكَ تَرْبِي بِهِ مَتَفَرِّقًا مِثْلَ نَثْرِ الْجَوْزِ وَاللَّوْزِ وَالسُّكَّرِ... وقيل: نُثَارَةُ الحِنْطَةِ والشَّعِيرِ ونحوهما ما انْتَثَرَ مِنْهُ^(٣)، وهو عند الفيروز آبادي: "نثر الشيء ينثره رماه متفرّقاً"^(٤)، وبذا يكون معنى النثر يدور حول محور التفرّق، فهو الكلام الكثير المتفرّق وينقسم على قسمين: الكلام العادي وهو لغة الخطاب اليومي للتواصل بين الناس، وهذا ليس له علاقة بالأدب، والآخر هو ما يعرف بالنثر الفني وهو لغة الأدب التي هي جزء من الكلام الذي تتوافر فيه جماليات التأثير والاستجابة في المتلقّي، وبذا يكون شقيق الفرع الثاني من الأدب وهو الكلام المنظوم وهو الشعر الذي يفترق عنه بخاصيّتي الوزن والقافية.

ولما كانت الخطابة فنّاً نثريّاً اشتركت مع الفنون النثرية الأخرى من المقالة والرواية والمسرحية بتلك الخصائص، فالخطابة كما يراها (أبو زهرة) صفة راسخة في نفس المتكلّم يقتدر بها على التصرف في فنون القول لمحاولة التأثير في نفوس

(١) ظ: اللسان: دار صادر بيروت ١٩٩٨: (خطب)

(٢) نفسه: (خطب)

(٣) نفسه: (نثر)

(٤) القاموس المحيط: دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩١: (نثر).

السامعين أنفسهم وحملهم على ما يُراد منهم^(١)، فهو يعطيه المصباح ولا يضمن له أن يرى به إذا كان في عينيه رمد، كحال بقيّة العلوم، فالنحو لا يصلح اللسان ما لم يُتمرّن على ذلك، ومثله العروض لا يعلم الشعر ومثله المنطق وغيره من العلوم النظرية التي تظهر ثمرتها في العمل.

فالخطابة مرامها التأثير في السامع، وإثارة إحساسه للأمر الذي يراد منه ليذعن للأمر إذعائاً ويسلّم تسليمًا^(٢)

تأريخ الخطابة:

اختلفت عبارات الباحثين حول أيّ الخطابين أسبق في الظهور النثري أو الشعري، فقد صرّح به (بروكلمان): "ينبغي أن يكون أقدم القوالب الفنية العربية هو السجع أي النثر المقفّى المجرّد من الوزن^(٣)، ويؤيّده من الباحثين العرب أحمد حسن الزيات في تأريخ الأدب العربي: ١/ ٥١ ومحمّد هاشم عطية في الأدب العربي وتاريخه: ٥٨-٦٢.

وهذا رأي واجه مجموعة من أصوات الرفض من المستشرقين أنفسهم، كما ذهب إلى ذلك طه حسين الذي رأى أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة بدائية أولية، والحياة الأولية لا تتطلّب النثر الفني؛ لأنه لغة العقل بقدر ما يتطلّب الشعر؛ لأنه لغة العاطفة والخيال^(٤).

وهو ما ذهب إليه ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) في كتابه (العمدة): "كان الكلام كلّه منثورًا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها... فتوهّموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تمّ لهم سمّوه شعراً؛ لأنهم قد شعروا به، أي فطنوا له^(٥)"

والخطابة بوصفها من الفنون النثرية فلا بدّ لها من تاريخ يسجّل بداياتها ويقيد أولى صورها إذ لا بدّ لكلّ أمة من وسائل تأثيرية تربّي أبنائها بما تحتاجه من

(١) ظ: الخطابة أصولها وتأريخها (محمّد أبو زهرة) مط العلوم / مصر ط ١٩٣٤: ١٣

(٢) الخطابة أصولها وتأريخها: ١٢

(٣) تاريخ الأدب العربي: بروكلمان

(٤) ظ: حديث الشعر والنثر: طه حسين: ٢٢

(٥) العمدة في صناعة الشعر ونقده (ابن رشيق القيرواني)

ذلك، وكعادة كلِّ علم وفنٍّ في صيرورته وتطوّره عبر الزمن، فقد اعتقد القدماء أن للخطابة علمًا ذا أصول وقوانين تعرّف الدارس طرق التأثير بالكلام وحسن الإقناع بالخطاب، فتربّي بذلك ملكة الخطيب وتقوى عارضته في ذلك وهو كغيره من العلوم.

لقد ثبت عند الباحثين أن اليونان هم أقدم الأمم التي كتبت في هذا العلم وممارسته واستنباط قواعده، وكانوا مأخوذين بحسن الكلمة وبلاغة القول فكانت (أثينا) بلد الأدب والخطابة، وقد كان السفسطائيون هم من يعلمون مُريديهم تلك القواعد للتغلّب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي وكيفية مغالطتهم ومحاولة لبس الحقائق عليهم.

لقد أجزوا هذه الخطب على السنة الآلهة كما يزعمون كما جاء في (الإلياذة) ل(هوميروس)، ويعد (برودي كوس وبرتاغوراس وغروجياس) هم أول من حرّر قواعد الخطابة عندهم سنة ٣٨٠ ق.م، ثم ظهر أرسطوزعيم فلاسفة اليونان الذي دوّن كلّ ما يخصّ موضوع الخطابة فأصبحت بذلك فنًّا وقلّ علمًا له أصوله وقواعده.

الخطابة عند العرب:

مرحلة ما قبل الإسلام:

شهدت الساحة العربية قبل نزول القرآن صنوفًا أدبية تمثّلت في كلامهم المنظوم والمنثور، والخطابة من تلك الفنون التي كان لها حضور كبير في ميادينهم، يقول الجاحظ ناقلًا رأي أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ): "كان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد مآثرهم ويفخّم شأنهم... فلما كثر الشعر والشعراء واتّخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقه وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"^(١).

(١) البيان والتبيين (الجاحظ) تح عبد السلام هارون مط الحلبي ١٩٥٤: ٢٤١/١

وقد عُرف بين العرب مجموعة لا بأس بها من الخطباء ومنهم (قسّ بن ساعدة، ولبيد بن ربيعة، وأكثم بن صيفي وهم بن قرو الفزاري)، وقد اختلفت أغراضهم التي يرمون إليها في خطبهم، فقد ارتبط فنّ الخطابة بحياة العرب الاجتماعية من منافرات ومفاخرات في إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب وحمالة الدماء^(١).

مرحلة صدر الإسلام:

لقد عمل نزول القرآن في النفوس المحبّة لفنون القول عند العرب الفصحاء حبّاً جديداً للخطابة لابتعاد القرآن عن الشعر وما كان عليه من قوّة البيان التي دُهل عندها مستمعوه من المحبّين والمنكرين؛ إذ فتح القرآن على المتكلمين فنوناً جديدة وبنى لهم آفاقاً واسعة من المعاني بأساليب راقية وفنون من القول مائعة، وطار بهم في أرجاء اللغة حتى غدت العربية لغة عالمية، وقد تعدّدت فنونها القولية والكتابية بما أولاه القرآن من عناية بالغة في إعجازه البياني، فكان لهذا العصر خطباؤه الذين سجّل التاريخ لهم خطبهم العظيمة، وأولهم رسول الله -صلى الله عليه وآله- وتلميذه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب -عليه السلام-.

وقد توالى الخطباء، فكان لشعائر الإسلام كخطب الجمعة والأعياد مثلاً الأثر الكبير في إعداد الخطباء وتخيّرهم بما يتناسب مع تلك المهمة ومن ثمّ ما كان للخطيب من أثر حماسي في نفوس المتلقّين حين الجهاد والدعوة إلى الخير وسواها من الأغراض الدينية التي دعت إلى تبني الخطابة وإعداد الخطيب.

مميزات الخطابة في العصر الإسلامي:

قال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) لأحدهم يصف مميزات الخطابة والخطيب: "رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدرية، وجناحها رواية الكلام، وحليّها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ، والمحبّة مقرونة بقلّة الاستكراه^(٢)"، من هذا يمكن الولوج

(١) ظ: النثر الفني القديم (عمر عروة) دار القصة للنشر / الجزائر د.ت ط ٢٠٠٠: ٢٧

(٢) البيان والتبيين: (الجاحظ) تح عبد السلام هارون دار الجيل بيروت د.ت: ٤٩/١

إلى عالم المواصفات إن صحَّ التعبير التي تنماز بها الخطابة من غيرها من فنون القول، وهي كما يأتي:

١- الطابع الديني، فالخطيب يسعى إلى الدعوة للإسلام والدفاع عنه والترغيب فيه والترهيب من الإعراض عنه.

٢- الدعوة إلى القيم والمثل الإنسانية العليا.

٣- الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين.

٤- الاعتماد على النصّ القرآني والأثر النبوي في تقرير الحقائق والالتزام بها.

٥- تعدّد أنواعها بين الدينية والجهادية والسياسية وخطب المحافل والوفود.

وقد عرف المسلمون عددًا كبيرًا من الخطباء، وأشهرهم وأعرفهم بالخطابة وفنونها الإمام عليّ بن أبي طالب الذي كان يقول: "وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ وَفِينَا تَنْشَبَتْ عُرُوقُهُ وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ"^(١).

مميزات الخطيب:

يلزم من الخطيب أن يكون متّسمًا بالخصائص المناسبة لهذا الفنّ الذي يحتاج إلى آلة مناسبة ودرية تحمله على إلقاء الخطب الموافقة للغرض والتي تؤتي ثمارها بوصفها قوّة إقناعية تحمل المستمعين على تمثّلها والقيام بما انطوت عليه، ومن أهمّها:

١. الثقافة الواسعة في المجالات المختلفة من القرآن والحديث والسيرة والأدب بمختلف فنونه.

٢. الموهبة الفطرية كما ذكرها الجاحظ من قبل.

٣. جهازة الصوت كما قال أحد الشعراء يصف خطيباً:

إن صاح يوماً حسبت الصخرَ منحدرًا والريح عاصفة والموج يلتطم

٤. الاستعداد النفسي، وهو ما يُعرف برباطة الجأش فهو بغيره لا يحسن أن يقف أمام الجمهور المترقب لقوله، قال الجاحظ: "وأعيب عندهم من دقة الصوت وضيق مخرجه وضعف قوته، أن يعترى الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق^(١)".

٥. الابتعاد عن التكلّف والتصنّع والتعقيد، بل يجب أن ينتقي ألفاظه بما يتناسب وجمهوره حتى يكون ذا أثر بين فيهم، وأن يراعي إقبال السامع عليه، قال الجاحظ: "للکلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستقبال والملا ل فذلك الفاضل هو الهذر والخلط^(٢)"، ومن قبله قال إمام البيان عليّ (ع): "نشاط المتكلم من إقبال السامع عليه".

مميزات الخطبة:

وقد عرض الباحثون لأركان الخطبة وهي المقدّمة والعرض والخاتمة، وهي عناصر مهمّة يجب أن يرسمها الخطيب في ذهنه حين يرتقي منبر الخطابة لأيّ ظرف كان، جاعلاً لكلّ ركن من الخطبة مشهداً معيّنًا وأسلوبًا خاصًا به يجمع فيها ما يريد أن يفصح به ويعرض له.

كما يجب على الخطيب أن يكون مراعيًا لجمهوره وأن يبتعد عن تكلّف العلوم العقلية والأقيسة المنطقية فهذه محلّها الدرس وقاعات التعلّم، والجمهور يغلب عليه البساطة وبها يتوصّلون إلى مراد الخطيب^(٣).

(١) البيان والتبيين: ١٣٣/١

(٢) البيان والتبيين: ٩٩/١

(٣) ظ: الخطابة في صدر الإسلام (محمّد طاهر درويش): ٣٣

موضوع الخطبة:

تنوّعت موضوعات الخطبة على وجوه متعدّدة متسلسلة من عصر الجاهلية إلى عصر صدر الإسلام فكانت تُعنى في الجاهلية بموضوع إصلاح ذات البين، وإطفاء نار الحرب، وحمالة الدماء والتشديد للملك، والتأكيد للعهد في عقد الأملاك وفي الإشادة بالمناقب، وكلّ ما أُريد ذكره ونشره وشهرته في الناس^(١).

ثم جاء عصر الإسلام، فكان للخطبة تشريع ديني كما في خطب الجمعة والأعياد وسواها من المناسبات التي تواتت فيها الخطب كالخطب السياسية والجهادية وخطب الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى مكارم الأخلاق والخطب التي تُعنى بالجانب العقديّ من خطب التوحيد والدعوة إلى التفكّر والنظر في آيات الله.

الخطابة الحسينية:

تركت واقعة الطفّ في نفوس المسلمين أثرًا بليغًا تمثّل في التفاعل مع هذه الواقعة بشكل لا مثيل له من قبل، فقد عقد التأريخ فصلًا مهمًّا لتدوين واقعة الطفّ بما عُرف من بعد بأدب المقاتل، وكان مقتل الحسين عليه السلام هو الوحيد الذي انصبّت هموم كثير من الباحثين على تدوينه والتعريف به ونشره بين الناس.

وكان لهذه الواقعة أثرها الكبير في نفوس الأئمّة عليه السلام بما استشرفه رسول الله صلى الله عليه وآله من خطر كبير سوف يلحق أهل بيته ولاسيما الحسين وما سيجري عليه وقد حفظها الصحابة عنه.

فكان أول مجلس عزاء عقده الإمام زين العابدين (ع) في مجلس يزيد لعنه الله في تلك الخطبة التي قال فيها الإمام: ائذن لي أن أرتقي هذه الأعواد فأتكلم بكلماتٍ لله فيهنّ رضئ، ولهؤلاء الجلساء فيهنّ أجرٌ وثواب^(٢)، فكان هذا أول

(١) مفهوم النثر الفتيّ وأجناسه في النقد العربي القديم (مصطفى البشير): ٩٧.

(٢) مقتل الخوارزمي: ٧٦/١.

المجالس الحسينية وبعدها توالى المجالس التي كان أول أمرها ندبة الحسين ورثاؤه والحديث عما جرى له.

ثم توالى الحقب الزمنية على المنبر الذي كان الواجهة الإعلامية للشعائر الحسينية، فقد اجتهد أئمة الجور عبر الزمن أن يمحوا كل أثر لواقعة الطف، وكان نصيب بني العباس في ذلك كبيراً، فهم الذين هدموا قبر الحسين مرّات متعدّدة طمعاً منهم في طمس معالم كربلاء وإشغال الناس عن الحسين بوسائل ترغيب وترهيب عظيم.

ومن ثمّ مصادرة كلّ الشعائر ومن يدعو إليها ويحثّ على متابعتها والعمل ليل نهار على رصد كلّ الحركات الخاصّة بشيعة ومحبّي أهل البيت (ع)، والوقوف بوجه الزائر والراثي والنادب والباكي على الحسين (ع)، وهكذا كان لكلّ عصر طريقه الخاصّة في منع الناس من الشعائر وعلى رأسها زيارة الحسين (ع).

لقد كان للأئمة عليهم السلام الأثر الكبير في إقامة الشعائر والتحريض على إقامتها بمجموعة من الأحاديث التي ترغّب في البكاء على الحسين وزيارته وإنشاد الشعر فيه، رواه ابن قولويه، عن الإمام الصادق (عليه السلام)، أنّه قال لأبي هارون المكفوف: (يا أبا هارون، أنشدني في الحسين (عليه السلام). قال: فأنشدته، فبكي، فقال: أنشدني كما تنشدون. يعني بالرقّة. قال: فأنشدته:

أمرز على جدّ الحسيّ ن فقل لأعظّمه الزكيّة

قال: فبكي، ثمّ قال: زدني، قال: فأنشدته القصيدة الأخرى، قال: فبكي، وسمعت البكاء من خلف الستر، قال: فلمّا فرغت قال لي: يا أبا هارون، من أنشد في الحسين (عليه السلام) شعراً، فبكي وأبكي عشرًا كتبت له الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً، فبكي وأبكي خمسة كتبت له الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً، فبكي وأبكي واحداً كتبت لهما الجنة، ومن ذكر الحسين (عليه السلام) عنده، فخرج من عينه من الدموع مقدار جناح ذباب، كان ثوابه على الله، ولم يرض له بدون الجنة^(١).

(١) كامل الزيارات (ابن قولويه): ٢٠٨ وظ: ثواب الأعمال (الصدوق): ٨٣

وحين نستعرض أول تلك المجالس فإننا نرى رسول الله -صلى الله عليه وآله- أول من بكى على الحسين (ع)، "ذكر الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي في كتابه (أعلام النبوة) صفحة ٨٣ طبع مصر فقال:

ومن إنذاره صلى الله عليه وآله وسلم ما رواه عروة عن عائشة قالت: «دخل الحسين بن علي عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوحى إليه، فبرك على ظهره وهو منكب، ولعب على ظهره، فقال جبرئيل: يا محمد، إن أمتك ستقتل بعدك وتقتل ابنك هذا من بعدك، ومدّ يده فأثابه بترية بيضاء، وقال: في هذه الأرض يُقتل ابنك. اسمها الطفّ.. فلما ذهب جبرئيل خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أصحابه والترية في يده، وفيهم أبو بكر وعمر وعلي وحذيفة وعمّار وأبو ذر وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: أخبرني جبرئيل أن ابني الحسين يُقتل بعدي بأرض الطفّ، وجاءني بهذه التربة فأخبرني أن فيها مضجعه^(١)».

ومثل ذلك يُنقل عن مولاتنا فاطمة الزهراء وعليّ -عليهما السلام- ومثله بكاء أهل الحجاز على الحسين (ع) وأهل المدينة، «وسمع عبد الله بن عمر بخروج الإمام من مكة فقدم راحلته وخرج خلفه مسرعاً فأدركه في بعض المنازل، فقال له: أين تريد يا ابن رسول الله؟ قال: العراق، قال: مهلاً، ارجع إلى حرم جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأبى الحسين عليه السلام، فلما رأى ابن عمر إباءه فقال: يا أبا عبد الله اكشف لي عن الموضوع الذي كان رسول الله يقبله منك، فكشف الحسين عليه السلام عن سرّته، فقبلها ابن عمر ثلاثاً وبكى، وقال: استودعك الله يا أبا عبد الله فإنك مقتول في وجهتك هذه^(٢)، ثم توالى مجالس الندب في الكوفة والبصرة حتى كانت أولى تلك المجالس المتخصصة -إن صحّ القول- في مصر التي تقول بعض الروايات إن زينب بنت أمير المؤمنين (ع) قد أخرجت إليها بوصيّة من والي المدينة إلى يزيد لأنها كانت عاقلة فصيحة تؤلّب

(١) ذكر الخبر أيضاً بألفاظ مختلفة وبطرق متعدّدة في المصادر التالية: مستدرک الصحيحين ٣: ١٧٦، ٤: ٣٩٨، مسند أحمد بن حنبل ٣: ٢٤٢، ٢٦٥، والمحجّ الطبري في ذخائر العقبي ١٤٧، ١٤٨، والتمتقي الهندي في كنز العمال ٦: ٢٢٢، ٢٢٣، ٧: ١٠٦، والصواعق المحرقة: ١١٥، والهيثمي في معجمه ٩: ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١ (٢) المجالس السنّية (محسن الأمين): ٤٥

الناس على الخروج ضدّ يزيد، فعمد إلى إخراجها إلى مصر^(١)، وقد ورد أن جيش التوّابين حين ثاروا سنة ٦٥ هـ هو أول من أقام تلك المجالس؛ إذ إنهم أقاموا مجلسًا لمدة ثلاثة أيام عند قبر الحسين (ع)^(٢).

ويحدّثنا التاريخ بأن المختار الثقفي قد استأجر نساء تنوح على الحسين، وكنّ يذهبنَ يُنحَنَ على الحسين على باب عمر بن سعد، فكان عمر يقول لابنه حفص: يا بني أنتِ الأمير وقل له: ما شأن النوائح يبكينَ الحسينَ على بابي؟^(٣).

وهكذا توالى النياحة، وهي وإن كانت على خوف شديد من السلطات الظالمة يومذاك إلا أنها لم تدرس ولم يستطع حاكم إلغائها وتحجيمها بل على العكس من كلّ ذلك كانت تزداد رقعة وتتوّع بأساليبها وطاقتها، ولعلّها انتشرت أكثر من غيرها في دول الشيعة كالدولة البويهية، فـ "هم" أي آل بويه أول من بادروا بتخليد ذكر الحسين عليه السلام يوم عاشوراء؛ إذ في محرّم سنة ٣٥٢ هـ أمر السلطان معزّ الدولة الذي استولى على بغداد سنة ٣٣٤ هـ، على عهد الخليفة المستكفي، بتعطيل الأسواق، وشلّ حركة البيع والشراء وأن يسقوا الماء بنصبهم القباب في الأسواق، وخرجت النساء يلطمنَ وجوههنَّ وينحَنَ على الحسين عليه السلام، وبقيت هذه العادة مستمرة في كلّ عام من يوم عاشوراء حتى أواسط القرن السادس، على عهد السلاجقة^(٤).

المنبر الحسيني: (المجلس الحسيني):

أول من استعمل المنبر هو رسول الله (ص)، فقد ورد "كان صلّى الله عليه وآله" يوم الجمعة يخطب إلى جذع في المسجد قائمًا، فقال: إن القيام قد شقّ عليّ، فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبرًا كما رأيت يصنع في الشام؟ فشاور الرسول (ص) المسلمين، فقال عبّاس بن عبد المطلب: إن لي غلامًا يقال له كلاب

(١) ظ: أخبار الزينبات: (العبيدي): ١٢١-١٢٢

(٢) ظ: تاريخ الطبري: ٤ / ٤٢٧ وتاريخ ابن الأثير: ٣ / ٣٣٢ وما بعدها

(٣) ظ: الإمامة والسياسة: (ابن قتيبة): ٤٧ / ٢

(٤) مدينة الحسين: ٣٧٢

أعمل الناس، فقال (ص): مره أن يعمله مره، فأرسله إلى أثلة بالغابة فقطعها ثم عمل منها درجتين ومقعدا ثم، جاء به فوضعه في موضعه^(١).

ولعلّ وصف الخطابة الحسينية بالمجلس الحسيني أو المنبر الحسيني أقرب إلى الدلالة منها إلى الخطابة الحسينية، فقد ورد عن أئمة أهل البيت (ع) أنهم يشيرون إليها بالمجلس والمجالس، يقول الإمام الصادق عليه السلام لفضيل حول هذه المجالس: "إنّ تلك المجالس أحبُّها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيأ أمرنا"^(٢).

ومثله قد ورد عن إمامنا الرضا (ع) "من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتكب منّا، كان معنا في درجاتنا يوم القيامة، ومن ذكّر بمصابنا، فبكى وأبكى، لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يُحيى فيه أمرنا، لم يمت قلبه يوم تموت فيه القلوب"^(٣).

ولا نكاد نجد إماماً من أئمتنا إلا وله في دعوة الشيعة إلى المجلس الحسيني إقامة المآتم، مما قد بلغ ذلك حدّ التواتر، ورواها عنهم ثقاة شيعتهم ومحبيهم^(٤).

إذاً يمكننا القول إن الخطابة الحسينية هي قسم من أقسام الخطابة الإسلامية التي تكون لها طريقة خاصّة بالثناء الحسيني بوصفها اللبنة الأولى في شيوع الخطابة الحسينية والغرض الأول لانتشارها وتكرارها عبر الزمن.

ثمّ كان للخطابة بعدها صورة ساعد الوعي العقائدي على تطويرها والتكثيف من جهودها لتكون وسيلة مهمّة من وسائل الدعوة الإسلامية عن طريق القضية الحسينية بوصفها محوراً للدعوة إلى الإسلام المحمّدي من جهة وذكر مصيبة الحسين من جهة أخرى.

(١) ظ: طبقات ابن سعد: ١/ ٥٢٥

(٢) قرب الإسناد (الحميري): ٣٦

(٣) الأمالي (الصدوق): ١٣١

(٤) إقناع اللائم: (محسن الأمين): ١٧٤

وقد تبنت المدرسة الشيعية عبر ما لها من إرث عقائدي وتراث حديثي مصدره النبيّ وأهل بيته (ع) أن تعطي الخطابة الحسينية أبعادها التي تليق بها، كما كان للخطيب نفسه أثر واضح في تطوّر المنبر الحسيني عبر الزمن.

المنبر الحسيني والواقع:

لم تقتصر الخطابة الحسينية على ندبة الحسين واستعراض سيرته ومصيبته مع أهل بيته فحسب، وإنما كان له أبعاد مختلفة، فالمنبر قبل كلّ شيء قناة ثقافية انتظمت في سلكها لآلئ كثيرة، منها ما يكون لتفسير القرآن وللحديث الشريف ولفنون الثقافة من شعر ونثر وقصة، ومنها ما يركّز في الأخلاق بوصفها أخلاق النبيّ وأهل البيت (ع)، وربما كان منها ما هو مشكلات العصر وما يدور في الواقع وما له من اهتمام شعبي واسع.

ولعلّ الطريقة التي بها يصبح المنتج الخطابي حسيّياً هو ما يصحب الخطبة مبتدأً ومنتهاً، إذ لا بدّ من مقدّمة حسيّية، وهي أبيات الرثاء لاسيما في مناسبات الحزن من ذكرى وفيات المعصومين أو بعض أبنائهم ومن هم من أهل البيت (ع)، وخاتمة الخطبة التي لا بدّ أن تنتهي بالرثاء العربي والشعبي وهي محاولة الخطيب لذكر فاجعة كربلاء أو شهادات المعصومين (ع) وهي ساعة ينصرف فيها الجمهور للتوقّف مع المصيبة واستحضارها والعيش فيها بما يمكن معها البكاء أو التباكي.

التعويل على المنبر الحسيني:

يبالغ كثير من المهتمّين بالشأن الحسيني في موضوع أهمّية المنبر الحسيني في تغيير الواقع بشكل كبير، وهذا برأيي تحميل المنبر والخطيب ما لا يحتمل، فنحن في الوقت الذي نعيش فيه عالم الإعلام المضادّ بوسائله المختلفة التي يروّج لها ليل نهار، ونحن في قبال ذلك نهتف وا منبراه، فهل يمكن للمنبر وحده الوقوف بوجه التردّيات الكبيرة والتحدّيات الخطيرة في مجتمعاتنا التي تعاني من ذلك كثيرًا.

إن المنجز الإعلامي الذي يوظفه الخطيب الحسيني لا يعدو كونه وسيلة يمكن وصفها بأنها كباقي الوسائل الإعلامية، سوى أن لها قدسية في النفوس لارتباطها بالمقدّسين (ع)، أما سوى ذلك فلا يمكن القول إن المنبر يمكنه التغيير وإدارة دفة الرزايا والانحرافات بشكل كامل.

إننا في نظرنا للمنبر الحسيني بهذا الشكل نكون قد سلبناه كثيرًا من طاقته، لأن تحميل الشيء أكثر مما يتحمّل كسر له وإنقاص له من قدره.

ولذا نحن أمام أزمة منبرية حالية وهي مرحلة تختلف كثيرًا عما سبق، إذ نعيش في عصر خلا من الاضطهاد والتعسف والتهميش، فلا يمكن قياس المرحلة الآتية بما سبق، وتتمثّل هذه الأزمة بما يأتي:

١- يجب أن تكون للمنبر الحسيني مرجعية يرجع إليها، فمحاولات الخطباء الفردية قد تؤدي إلى أمور لا يُحمد عقباها كما رأينا وسمعنا.

٢- إلزام الخطيب الذي يرتقي المنبر بمعايير يمنح من خلالها شهادة صلاحية لذلك.

٣- أن يكون للخطباء رابطة أو نقابة يتولّوها مجموعة من الفضلاء بأوامر من المرجع الأعلى من أجل التنسيق بين الخطباء على طرح الموضوعات المهمّة التي تغلي بين الناس، وعرض رأي المرجعية من خلال أسلوب خطابي يميّز به كلّ خطيب من سواه.

٤- أن يعي الخطيب المسؤولية الكاملة الملقاة على عاتقه، وهي إخلاصه مع الله من جهة ومع المجتمع من جهة أخرى.

٥- أن يكون وافيًا للأمور لا حاكمًا عليها حتى لا يتعرّض لانتقادات واسعة قد تشغل وسائل التواصل الاجتماعي بنقده والحط من شأنه.

٦- ألا يكون الخطيب -كما نرى اليوم- شبه مدّع عامّ أو يتداول كلام المقاهي وخطاب العامة ويردّده دون تحرّز وثبّت.

ما يجب علينا تجاه الخطابة الحسينية:

كما يجب أن يكون هناك دعم رسمي للخطيب ودعم جماهيري حتى يمكن خلق حالة من التفاعل الإيجابي يحسب لها من خلال ذلك ألف حساب. ومن خلال الخطيب يمكن البوح بما في الجنان من أمور كثيرة تتردد في دواخل الناس يحبون من يصرح بها عنهم ويحمل ثقلها فتستريح مشاعرهم بذلك. كما لا يفوتني التنبيه على نقطة رئيسة في هذا الجانب ألا وهي السعي على فتح مراكز متخصصة لاستيعاب الطاقات الشبابية وتنميتها وشحذها من أجل الوصول إلى ثقافة خطابية تجاري العصر وتحمل هموم الشباب، وتحاول النهوض بما يسعها بالواقع من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المنبر الاستفزازي:

لا شك أن الوسيلة الإعلامية لا بد أن تخضع لأصول وواجبات وآداب، ومن الأمور المهمة التي يجب على الخطيب مراعاتها ألا يكون الخطيب استفزازياً، بحيث يواجه خصماً مباشرة وكأنه في حلبة مصارعة.

وأمثال هذه المنابر موجودة في حياتنا بشكل مؤسف عند السنة والشيعي على حد سواء، وهذه المنابر من شأنها أن تؤجج صراعاً قد تجري له دماء المسلمين، وهي المنابر التي يحمل أدياؤها الفتنة سواء أكانت في الطائفة الواحدة أم فيما بين طوائف متعدّدة، وهي التي ترعى موضوع الاختلاف الاجتماعي انعكاساً على الاختلاف الفكري، وهذا ما يحمل المجتمع على الشحنة التي تؤدي إلى ما لا تُحمد عقباه.

إنني أهيب بإخوتي الخطباء أن يكونوا واصفين لا حاكمين، ومحدّرين لا منقّرين لكي تبقى رسالة المنبر كما عهدناها واعدة لأجيالها ومُرديها.

وختاماً أشكر دار العلم / مركز البلاغي القائمة على هذا المؤتمر وإتاحة الفرصة لتجاذب أطراف الحديث فيما يخصّ شعيرة من شعائر العقيدة لها أثرها المعروف في أوساط المجتمع الذي ينظر إليها على أساس ديني.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ١- : النثر الفني القديم (عمر عروة) دار القصة للنشر / الجزائر ط ٢٠٠٠
- ٢- أخبار الزينات: (العبيدي ٢٧٧هـ) مصر ط ١٣٣٥ هـ.
- ٣- إقناع اللائم على إقامة المآثم (السيد محسن الأمين) تح جواد الصافي الموسوي مؤسسه المعارف الإسلامية قم ١٣٧٦ هـ.
- ٤- الأمالي (الشيخ الصدوق ٣٨١هـ) قدّم له السيد مهديّ الخرسان المطبعة الحيدرية النجف ١٩٧٠ م.
- ٥- الإمامة والسياسة: (ابن قتيبة الدينوري ٢٧٦هـ) تح الأستاذ علي شيري دار الأضواء بيروت ١٩٩٠ م.
- ٦- البيان والتبيين (الجاحظ) تح عبد السلام هارون مطبعة الخانجي ط: مصر ١٩٩٨.
- ٧- تاريخ الرسل والملوك (محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ) تح محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف مصر ط ٢ ١٩٦٧ م.
- ٨- ثواب الأعمال (الشيخ الصدوق ٣٨١هـ) صحّحه وقدّم له الشيخ حسين الأعلمي علمي مؤسسه الأعلمي بيروت.
- ٩- الخطابة أصولها وتاريخها (محمد أبو زهرة) مط العلوم / مصر ط ١ ١٩٣٤
- ١٠- الخطابة في صدر الإسلام (محمد طاهر درويش) دار المعارف مصر ط ٢ ١٩٦٨ م.
- ١١- ذخائر العقبي (محبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري ت ٦٩٤ هـ) دار الكتب المصرية ١٣٥٦ هـ.

- ١٢- الصواعق المحرقة (أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (ت ٩٧٤هـ) الناشر: مؤسسة الرسالة - لبنان ط ١، ١٩٩٧م.
- ١٣- الطبقات الكبرى (محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد تح محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ ١٩٩٠ م
- ١٤- قرب الإسناد (الشيخ أبي العباس عبد الله بن جعفر الحميري من أعلام القرن الثالث الهجري تح مؤسسة آل البيت لإحياء التراث قم ١٤١٣.
- ١٥- كامل الزيارات (جعفر بن محمد ابن قولويه ٣٦٧هـ) صححه وعلق عليه الشيخ عبد الحسين الأميني المطبعة المرتضوية النجف ١٣٥٦هـ.
- ١٦- الكامل في التاريخ (عزّ الدين محمد بن علي ابن الأثير الجزري ٦٣٠هـ) تح عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي بيروت ط ١ ١٩٩٧.
- ١٧- كنز العمال (علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ).
- ١٨- لسان العرب (ابن منظور ت ٧١١هـ) دار صادر بيروت ٢٠١٠م.
- ١٩- المجالس السنّية (محسن الأمين) دار التعارف للمطبوعات بيروت ط ٢ ١٩٩٢م.
- ٢٠- مدينة الحسين: الشيخ محمد باقر مدرس بستان آبادي تعريب: مركز كربلاء للدراسات والبحوث ط ١ دار الوارث لسنة ٢٠١٩م.
- ٢١- مستدرك الصحيحين الحاكم النيسابوري؛ محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم النيسابوري، الشهير بالحاكم، تح مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية ٢٠٠٢م.

- ٢٢- مسند أحمد بن حنبل ت ٢٤١هـ تح شعيب الأرنؤوط مؤسّسة الرسالة ط ١١ م٢٠٠١.
- ٢٣- مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم (مصطفى البشير) دار اليازوري العلمية ط ١.
- ٢٤- مقتل الحسين، الموقّق بن أحمد الخوارزمي ت ٥٦٨هـ تح الشيخ محمّد السماوي مكتبة المفيد قم ١٣٦٧هـ.
- ٢٥- نهج البلاغة الشريف الرضي مؤسّسة النشر الإسلامي قم ط ١١ م١٩٨٨.

البحث الثاني والعشرون



معايير الخطيب بين الواقع والمأمول



المرحوم الدكتور عمار حكمت فرحان(*)

جامعة بغداد

لا يخفى على كلّ ذي لبّ ما للخطابة من منزلة عظيمة في ديننا، ويُعدّ الخطيب ذا مكانة مرموقة، ومنصب رفيع، فالخطبة مرتقى صعب المنال، لا يتحمّل شدّته إلا أولو القوّة من الرجال.

والهدف الأسمى للخطابة هو استمالة جموع الحاضرين والتأثير فيهم؛ عن طريق ترغيبهم في الإتيان بالفضائل، وتحذيرهم من الوقوع في الرذائل، ودعوة الخطيب للناس دعوة ربّانية في مصدرها ومنهجها وغايتها، وكذا في أساليبها وطرقها.

وينبغي على الخطيب أن يلعب دورًا مهمًا في بناء الفرد والمجتمع، فهو عنصر مؤثّر في عملية الإصلاح، فوعظه وإرشاده وتوجيهه من أهمّ روافد تزكية النفس وتربيتها، وكلّما كان الخطيب قدوة في فعله، تأثر الناس كثيرًا بمقاله! وعليه أن يعلم بأنّ صلاح الأُمم على أيديهم، ورسالة الإصلاح رسالة عظيمة تتطلّب ممن يتصدّى لها أن يكون صالحًا مصلحًا بالقول والفعل؛ كي يؤثّر فيمن يسمع، ويتعلّم منه.

وعليه أن يعرف أنّه هو من يقوم على الخطبة كتابًا وإلقاءً، كفاءةً وأداءً، فهو داع إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم إن الخطباء يختلفون؛ فللّ نشأته وتربيته وثقافته، فمنهم المتردّد والجريء، وفيهم المتّقن والمسيء! ولله في خلقه شؤون!

* ارتأت إدارة الملتقى وضع بحث الدكتور عمار حكمت ضمن البحوث كأقل الواجب بالنسبة له حيث فوجئنا بخبر وفاته قبل أيام من زمان انعقاد الملتقى، وحيث إنه رحمه الله كان قد أرسل بحثه للمشاركة.

إن الخطيب المؤثر هو فارس المنابر، ومرشد الحائر، بخطبه التي تنشر الهدايا والبشائر، فيبتعدُ الناس عن الصغائر والكبائر، الخطيب المؤثر هو نوعٌ فريد من الدعاة، والعلماء الثقات، فهو يُسهّم بحطّ وافر في بناء المجتمعات، وتغيير القناعات، وتعديل السلوكيات، وصناعة القدوات.

وحتى يكون الخطيب ناجحًا ومؤثرًا ينبغي عليه أن يكون ذا علم وافر، يتقن النطق الصحيح لآيات القرآن الكريم، وباقى النصوص المعتمدة، فضلًا عن كلمات خطبته كلّها، لذا نرى أن من الضروري أن يكون ضليعًا بعلوم اللغة، مُجازًا بإحدى القراءات القرآنية قبل أن يرتقي المنبر.

ومن صفات الخطيب المؤثر أن يجمع بين التأصيل الشرعيّ، والتنزيل الواقعي، والتسهيل اللغوي، فتراه يُوظف الآيات والأحاديث والآثار، وينتفع بالشعر والقصص والأخبار، في معالجة المشكلات الواقعيّة، بلغة واضحة نقيّة، فالخطيب الذكيّ هو الذي يفهم فقه الواقع، وينوع في موضوعاته بين التزكية وأحوال الأمة، وأحوال البيئة المحيطة به، وعندما يتناول تلك الأحوال يبين حكم الإسلام فيها، ووسائل العلاج الإسلامية لمشكلات الأمة.

والخطيب المؤثر من له ثقافةٌ واسعة، وإطلاعٌ واسع مُدهش، فيؤهله ذلك أن يُقنع الطبيب والمهندس والعالم وغيرهم من فئات المجتمع المختلفة الذين يحضرون خطبه كلّ جمعة، له جودةٌ القريحة، وحضورٌ البديهة، وقوة المنطق، وجودة الأسلوب، فمرونته تُسَعفه في الأزمات والمشكلات.

الخطيب المؤثر هو من يُحسّن توظيف معارفه بما يخدم فكرته، فلا يستعمل كلّ الآيات والأحاديث والآثار المتعلقة بها، فهو ينتقي ما يُحقّق الغرض، ويُغني عن كلّ عَرَض! وهو الذي باستطاعته أن يتحكّم بدقّة في مسألتين اثنتين هما: ضبط إشكالية الموضوع وأفكاره الأساسية، وضبط الوقت الكليّ والجزئيّ المتاح لهما.

ولو أمعنا النظر في واقع الخطيب اليوم وبحثنا عما يجب أن يتحلّى به، ويثبته على الناس في خطبه، ويجعله أساسًا يرتكز فيه في كلّ خطبه، لوجدنا أنّ السلام الداخلي من أعظم الركائز التي نفتقدها في كثير من الخطباء، للأسف الشديد.

فالسلاام الداخلي والتصالح مع النفس سيجعل من الخطيب متصالحًا مع نفسه ولديه قبول لمن حوله لا يجلد ذاته ولا يبحث عن عثرات الآخرين، يتمتع بحب الإنسان لإنسانيته لا لشيء آخر وهذا ما يجعله مقبولًا من قبل الكل مؤثرًا في كل من يستمع له ويتعامل معه.

ومن المؤسف أيضًا أن نرى بعض من يرتقي المنبر من الخطباء يرى نفسه أفضل ممن تحته فينبري بكيل التهم والتهديد والوعيد، وكأنه قد اطلع على قلوبهم وحكم على تصرفات البعض منهم، وفاته أمر مهم هو أن هؤلاء ضيوف الرحمن قد سمعوا نداءه، فأتوه ملبيين ذلك النداء؛ حضورهم الخطبة إرضاء له تعالى، لهذا يجب عليه أن يملك رسالة واضحة ورؤية وأهدافًا، في مقدمتها تقريب العبد من الله عز وجل، وحث الناس للالتزام بما يريد الله تعالى بطريقة تجعل من العبد يُقبل بحب للعبادة.

ومما يجب أن ينتبه إليه الخطيب تتبّع أحدث التطورات المجتمعية ويعالج ما يستجدّ من أحداث ويصححها بروح مواكبة للعصر، دون أن يتعسف في الربط بين الأحداث وشريعة الله تعالى.

ولو أخذنا مثالًا على ذلك الخطبة التي تلت كارثة الزلزال الذي أصاب كلاً من سوريا وتركيا التي أكثر فيها الخطباء الكلام كلُّ بحسب ثقافته وتوجهاته والجانب الذي يراه هو... فهذا أحدهم ربط بين الكارثة وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ - الروم: ٤١﴾، ثم حدّر الحاضرين من الانزلاق في المنكرات، والانحراف والفساد؛ لأنّ ذلك سيؤدّي إلى غضب الله، فيشملهم العذاب كما شملهم!!

وهذا الاستنتاج في غير محله، ولا يفهم منه إلا التشقي بمن تعرّض لهذه الكارثة، فخطيبنا هنا ركّز في الجانب السلبي، وتغافل عن كثير من الصور والقصص الإيجابية التي تدلّ على التزام أصحابها وثباتهم على دين الله، وقد أصابهم ما أصاب غيرهم، فالابتلاء كما هو معلوم واقع على الجميع، لحكمة الله أعلم بها.

لهذا يجب على الخطيب الناجح المؤثّر أن يحترم جمهوره، ويتواصل معهم، ويستفيد من ملحوظاتهم واقتراحاتهم، فله من العيون ممن يحضرون عنده،

فِيُفِيدُونَهُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَبِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؛ مِنْ خِلَالِ آرَائِهِمُ الَّتِي يَسْتَفِيدُ مِنْهَا فِي بِنَاءِ ذَاتِهِ، وَتَطْوِيرِ قُدْرَاتِهِ.

إِنْ خَطِيبًا لَيْسَ عِنْدَهُ إِمْكَانِيَّاتٌ، وَلَا يَحْمِلُ شَهَادَاتٍ، وَلَا يَمْتَلِكُ أُسَاسِيَّاتِ الْمَهَارَاتِ، وَلَا يَرْغَبُ الْبَيْتَةَ فِي التَّحْسِينَاتِ، وَلَا يَتَابِعُ مَا اسْتَجَدَّ مِنَ الدِّرَاسَاتِ، ثَمَّ لَا يَتَفَاعَلُ مَعَ الدُّورَاتِ، وَلَا يَتَقَنَّ اللُّغَاتِ – لَهُوَ أَشْبَهُ بِأَرْضٍ مَوَاتٍ!

لِذَلِكَ نُوَجِّهُ نِدَاءَنَا مِنْ هَذَا الْمَنْبَرِ إِلَى أَصْحَابِ الشَّأْنِ، وَالْجِهَاتِ الْمَسْئُولَةِ؛ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ عَلَى تَطْوِيرِ الْخَطِيبِ، أَوْ مِنْ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ خَطِيبًا وَتَأْهِيلِهِ وَبِنَائِهِ بِنَاءً عِلْمِيًّا وَثِقَافِيًّا رَصِينًا؛ بِوَضْعِ بَرَامِجٍ دُورِيَّةٍ وَشَامِلَةٍ لِإِعْدَادِهِمْ شَرْعِيًّا وَثِقَافِيًّا مِنْ خِلَالِ مُعَايِشَةٍ مُسْتَمْرَةٍ، وَمِلْتَقِيَّاتٍ وَتَقَارِيرٍ وَاقِعِيَّةٍ، وَتَدْرِيْبِهِمْ عَلَى الْمُؤَهَّلَاتِ الْوَاجِبَةِ بَدءًا مِنَ النُّطْقِ السَّلِيمِ، وَالْمَظْهَرِ وَالْأَسْلُوبِ الَّتِي يَجْمَعُ النَّاسَ وَلَا يَفَرِّقُ، وَكَذَلِكَ الْعَمَلِ عَلَى تَكْثِيفِ الدُّورَاتِ الَّتِي تَزُوِّدُهُمْ بِالْمَهَارَاتِ، وَفِي مَقَدِّمَتِهَا الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى بَثِّ رُوحِ التَّسَامُحِ وَالسَّلَامِ وَالتَّعَايِشِ، وَالتَّصَالِحِ مَعَ النَّفْسِ، وَقَبُولِ الْآخِرِ، وَالْغَايَةِ مِنْ كُلِّ هَذَا خَلْقِ مَجْتَمَعٍ صَالِحٍ مَتَمَاسِكٍ، تَرْبِطُهُ رَوَابِطُ الْأَخُوَّةِ وَالْوُثَامِ، وَالْحَبِّ وَالْإِنْسِجَامِ.

البحث الثالث والعشرون



لوازم وضوابط معايير الخطيب الناجح بين الواقع
والطموح



الدكتور ضياء محمد محمود

الجامعة العراقية كلية العلوم الإسلامية قسم الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي جعلنا من المسلمين، وله الحمد والشكر؛ إذ بعث فينا خاتم النبيين والمرسلين، ليعلمنا أحكام الدين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - الجمعة: ٢﴾.

أما بعد:

فإن حال الإسلام والمسلمين وما آل إليه وضعهم السياسي والاجتماعي والثقافي، حتى الديني والإيماني، يجعل من يشعر بانتمائه إلى هذا الدين العظيم وتلك الأمة الوسط، أن يحاول بما في وسعه إصلاح ما قد فسد ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولعلّ في تشخيص الداء والمرض كما قيل نصف العلاج أو نصف الطريق إلى العلاج، وإنني ومن هذا المنطلق أحببت أن أشغل الفكر وأعمّل النظر وأسخر جزءًا من عمر الشباب بغية الوصول إلى ما يُسهم في إصلاح الحال وسلامة الأجيال، فكان موضوع بحثي هذا بعنوان "لوازيم وضوابط معاير الخطيب الناجح بين الواقع والطموح".

وكلي أمل في أن يوضح هذا البحث تلك الحدود والواجبات والحقوق والمسؤوليات في تحديد لوازيم وضوابط الخطيب الناجح من خلال عرضها على

الواقع المعاصر للنهوض بالخطاب الديني المعتدل، ومن خلاله النهوض بالفرد والمجتمع ويتمثل ذلك أن الخطيب القويم ذا التأثير والتفاعل مع الآخرين هو ذلك الذي عرف حدود حرّيته وحدود مسؤوليته أمام نفسه وأهله ودينه ووطنه، وهو الذي لا يضع نفسه إلا في المحلّ المناسب لها والمناسب لطاقتها فيصدق فيه القول: (رَجِمَ اللهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ) ^(١) وَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ يَعْرِفُ لِلآخِرِينَ قَدْرَهُمْ ويكون بذلك حكيماً، إذ وضع الشيء في محلّه، ولا يكون ذلك إلا بالأخلاق، ولكن عندما يفقد الخطيب ذلك الأمر، أعني الأخلاق تجاه نفسه والآخرين، فهو بلا شك بعيد عن القيم الأخلاقية وعن وضع الأشياء في محلّها، وفي ذلك القدر الكافي لإفساد المجتمع، وهو ما حدّر منه النبي (صلى الله عليه) بقوله: ((إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَارْتَقِبْ السَّاعَةَ)) ^(٢)، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، معناه غياب العقل والحكمة، والأخلاق، وغياب العدل والحق والمنطق السليم، وغياب الإحساس بالمسؤولية، وفي ذلك تضييع للأمانة، ومن ثمّ اقرأ على المجتمع السلام وكبر عليه أربعاً.

والإسلام الحنيف، فيه الحلّ لكلّ مشاكلنا اليوم، والمتأمل يجد ذلك واضحاً فيه، فهو دواء لمعالجة سوء الأخلاق، وبنائها بعيداً عن العنف والتطرّف، الذي خطّط له أعداء الإسلام من خلال إشاعة روح الفساد والإفساد للقيم الأخلاقية التي بناها الإسلام الحنيف، فقصدتهم هدم المعاني السامية التي تدعو إلى القيم الأخلاقية، فمن هذا وغيره أحببت أن أكتب هذا البحث لبيان أهمّية الخطيب الناجح في حياة الفرد والأمة والمجتمع والدولة، في ظلّ السنّة النبوية، إذ إن انعدام الأخلاق نتيجة لإهمال الدولة والمصلحين بل حتى الأفراد، لهذا الجانب ولعدم التطبيق السليم للقرآن والسنّة النبوية هُدمت أسس المنظومة الخلقية، وما هذا البحث إلا تذكير لأهمّية هذا الجانب العظيم، في الكتاب والسنّة وأثرهما في بناء المنظومة الخلقية، ففيهما حلٌّ لكلّ شيء، فلذلك كان موضوع بحثي بعنوان (لوازم وضوابط معايير الخطيب الناجح بين الواقع والطموح)، وللإسلام منهجه المتفرد في تحقيق ذلك ومكافحة الانحرافات الدخيلة علينا، فهو يهتمّ بالجوانب التربوية

(١) يُنسب إلى عمر بن عبد العزيز، ينظر: فيض القدير تأليف: عبد الرؤوف المناوي، ٢٩/٤.
(٢) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب: تاب من سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغَلٌ فِي حَدِيثِهِ فَأَتَمَّ الْحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ السَّائِلَ، ٣٣/١ (٥٩).

والوقائية التي تمنع وقوع ذلك أصلاً، كما يهتمّ بالجوانب الزجرية والعقابية التي تمحو آثاره، وتمنع من معاودته وتكراره، وكلّ هذا يقع على عاتق الخطيب في بيان ذلك للمجتمع.

وهذا بخلاف ما عليه المناهج البشرية، والقوانين الوضعية التي تهتمّ بمعالجته بعد وقوعه أكثر من اهتمامها بمنع حدوثه ابتداءً.

واقترضت طبيعة الدراسة أن يُقسّم البحث على مقدّمة ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: لوازيم الخطيب الناجح بين الواقع والطموح.

المبحث الثاني: ضوابط الخطيب الناجح بين الواقع والطموح.

وبعد هذه الرحلة مع هذا البحث، كانت الخاتمة فذكرت فيها أهمّ ما توصّلت إليه، وجعلت فيها توصيات للعاملين في مجال التعليم ومقترحات لهم.

وإني لأرجو التوفيق في هذا البحث، الذي تأتي أهميته من الظروف القاسية التي يمرّ بها العراق العزيز خصوصاً والأمة العربية والإسلامية عموماً الذي يحتمّ علينا تحمّل المسؤولية والشعور بها وتنشئة الأجيال عليها، وإن اعترى هذا البحث نقصٌ أو زللٌ فإن الكمال لله وحده وكتابه العزيز، والله الكريم أسأل أن يتقبّله بقبول حسن إنه نعم المؤمّل.

المبحث الأول: لوازيم المسؤولية

المطلب الأول: الإلزام والالتزام الشرعي والوضعي للخطيب.

المسؤولية من حيث كونها إلزاماً والتزاماً على نوعين: مسؤولية شرعية ومسؤولية وضعية.

أما الأولى: فهي كلّ ما في الشريعة الإسلامية من أخلاق ومبادئ وقيم وعبادات ومعاملات ونظم على وجه التكليف والإلزام، وبالتالي فإن ما قرّره القرآن الكريم من

حقوق وواجبات والسنة المطهرة الصحيحة وغيرهما من مصادر الشرعية الإسلامية، مما اكتسب صفة الإلزام الشرعي، فهو داخل ضمن المسؤولية الشرعية للخطيب، وكذلك كل ما عُرف عرفاً وما أُخذ عادة وسلوكاً أو سُرت كشرط مما لا يخالف نصّاً صريحاً من كتاب الله- عزّ وجلّ- أو سنة نبيه، أو ما عُلم من الدين بالضرورة.

وعليه فإن الكلّ مسؤول والكلّ ملزم، وكما قال عليه الصلاة والسلام: (كلّكم راعٍ ومسؤول عن رعيّته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيّته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيّته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيّتها، والخادم راعٍ في مال سيّده ومسؤول عن رعيّته، وكلّكم راعٍ ومسؤول عن رعيّته)^(١).

أما المسؤولية القانونية: فهي تلك القوانين والشروط والالتزامات التي سنّها البشر وخطّتها أناملهم مما لا علاقة له بالدين بل بالدنيا وفُرضت بسيف السلطان على الناس، وحُكم به عنوة وقسراً أو بناء على المصالح الدنيوية مما استنتجته العقول وبشرته من التجارب وأيام الدهر.

والذي يخصّ بحثنا وموضوعنا هو النوع الأول الذي يتعلّق به شأن الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة ودور الخطيب في ترسيخ القيم للفرد والمجتمع من خلال مسؤوليته.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى - الطه: ١٢٣-١٢٤﴾.

فهذا النوع له علاقة وثيقة وأثر كبير في الإنسان ومستقبله الدنيوي والأخروي، ثم إن هذه المسؤولية الشرعية على قسمين:

الأول: مسؤولية خاصة ذاتية

الثاني: مسؤولية عامة جماعية

(١) البخاري (٢٨٤/١-٢٨٥)، ومسلم (١٤٩/٣).

وبدايةً أقول: إن عنوان المسؤولية يُشعر من أول وهلة بأمرين متلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر، وهو معنى الإلزام ومعنى الجزاء.

وهذان الأمران وكأنهما ركنان في معنى المسؤولية، فالمعنى الأول جامعٌ لكل الأوصاف والألفاظ المشتركة في أداء معنى المسؤولية من (الغرض، الواجب، والأمانة...)، فكلها تعني الالتزام في قدر كبير مشترك بينها سواء كان المُلزم شرعاً أم عرفاً أم قانوناً.

والمعنى الثاني يعطي العنوان خصوصيةً إسلاميةً من حيث كون الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة لمن يقوم بما هو مسؤول عنه على أكمل صورة أو من لا يكلف نفسه حتى بمعرفة ما هو مُلقى على عاتقه ومسؤول عنه.

وفي القرآن الكريم إشارة إلى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا - الإسراء: ١٤﴾. ففي الآية الكريمة معنى الإلزام ومعنى الجزاء.

وقد أشار إلى ذلك الأستاذ المرحوم محمد عبد الله دراز وعدّ فكرة الإلزام تستلزم أمرين هما المسؤولية والجزاء فقال:

(يرتبط بفكرة الإلزام ناتجان، يستلزم أحدهما الآخر بدوره، ويؤيده، ويدعمه، هما: فكرة المسؤولية، وفكرة الجزاء)، ثم يقول: (فالإلزام بلا مسؤولية يعني القول بوجود إلزام بلا فرد مُلزم، وليس بأقلّ استحالة من ذلك أن يفترض كائناً مُلزمًا مسؤولاً، بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها وتحققها في "جزاء" مناسب، فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها)^(١).

وليس من ضير أن يكون الإلزام قسمًا أو قسيماً^(*) ما دام المعنى العام للمسؤولية يشملها.

(١) دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، تعريب وتحقيق وتعليق: د. عبد الصبور شاهين، مراجعة: د. السيد محمد بدوي، مؤسسة الرسالة، للطباعة والنشر والتوزيع، ط٠١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص١٣٦.

* إن قلت بأن المسؤولية لها أقسام هي الإلزام والجزاء فبالتالي الإلزام هنا قسم المسؤولية وقسيم الجزاء...

المطلب الثاني: قيادة العقلانية:

وفي هذا المبحث وددت الإشارة إلى تلك القوى المتحكّمة بأفعال العبد وردود فعله، وتصرفاته، وهي، إن صحّ التعبير عنها، قوى العقلانية وقوى العاطفة.

فالمسؤول لا بدّ أن يكون واقعًا تحت تأثيرها في كلّ تصرفاته وأفعاله وقراراته، وليس من نقص في شخصيّة المسؤول أن يكون عاطفيًا، لكن على أن لا تغلب العاطفة العقلانية ومنطق العقل فيه. ومن هنا كان الرجال قوامين على النساء من حيث العموم؛ لغلبة العاطفة على العقل عند النساء وقلة ذلك عند الرجال.

وهذه الميزة، هي من قبيل الفضل والكرم الإلهي إذ يقول القرآن: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْتِكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا - النساء: ٣٤﴾.

وفي الحديث الصحيح أن النبيّ (ص) أشار إلى تلك الميزة في يوم قيادة نفسه وغيره بمسؤوليّة وجدّيّة، فقال: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين))^(١).

وفي رواية أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله: لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيء إلا من نفسي، فقال: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبّ إليك من نفسك، فقال عمر: فإنك الآن والله أحبّ إليّ من نفسي، فقال: الآن يا عمر))^(٢).

ففي ذلك إشارة نبويّة كريمة إلى أهميّة العقلانية في القيادة والمسؤوليّة؛ ذلك أن هذا الحبّ: "هو الحبّ العقلي الذي يقتضي إيثار وتفضيل الأمور وأولوياتها بناءً على ما يراه العقل السليم راجحًا مفضلاً، وإن كان ثمة عائق نفسي أو عاطفي

(١) الحديث: أخرجه البخاري ١٠/١، ومسلم ٤٩/١، والنسائي ١١٥/٨، في رواية أنس ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين)) فتح للباري، ٨٠/١-٨١.

(٢) الحديث: أخرجه البخاري ١٠/١.

يصعب على النفس تقبّله كالدواء المرّ مع المريض الذي لا تهوى نفسه شربه والانتظام والالتزام به؛ لأنّ العقل أقرّ نفعه وفائدته^(١).

وينقل الإمام ابن حجر (رحمه الله) عند شرح الحديث فيقول: (فيه تلميح إلى قضية النفس الأمّارة والمطمئنة، فإنّ من رجّح جانب المطمئنة كان حبه للنبيّ (صلّى الله عليه) راجحاً، ومن رجّح جانب الأمّارة كان حكمه بالعكس)^(٢).

إنّ التأكيد النبويّ على الفاروق عمر فيه تأكيد وإشارة واضحة إلى قيادة العقلانية للعاطفة وليس العكس، وهذا أمر لا يجوز غيابه عند المسؤول، أينما كان.

المطلب الثالث: مراعاة الأصلح

والمستقري والمتتبع للسيرة النبوية، والخلافة الراشدة، يجد هذا المعنى مطبّقاً فيمن يولّى.

فقد عهد الرسول الكريم (ص) إلى خالد بن الوليد أمر قيادة السرية منذ إسلامه، وقال: (إنّ خالدًا سيف سلّه الله على المشركين)^(٣).

ولكن قد كان في سيرة خالد ما لا يرضاه رسول الله (ص)، حتى إنه (ص)، رفع يديه إلى السماء مرّة وقال: (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد)^(٤)، وكان ذلك يوم قتل قوم جذيمة، وسلب أموالهم ولم يكن أمره هذا مبنياً على أمر قطعي بل على بعض الشبهة، والإسلام لا يجيز ذلك، فقام رسول الله (ص) فردّ عليهم أموالهم وودى قتلاهم، ولكن بقي خالد مقدّماً في الإمارة والقيادة لجيش الإسلام.

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ٨١/١.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٨١/١.

(٣) الحديث: أخرجه أحمد ٨/١، والحاكم (٢٩٨/٣).

(٤) الحديث: أخرجه أحمد (١٥١/٢)، البخاري (٤٣٣٩) و (٧١٨٩)، والنسائي (٢٣٧/٨).

ومراعاة وصف الأصلاح من حيث أثره في الآخرين، ومن حيث وجوده في قيادة الأمة مع من يقودها في مجالاتها الأخرى؛ لتحقيق تلك الموازنة في ذلك المقام.

لذا يرى ابن تيمية رحمه الله^(١): أنه إذا كان خلف الأمير يميل نحو اللين أن يكون نائبه بعكسه، وذكر أن الصديق، وهو صاحب القلب الكبير والإرادة، والبكاء، وأرحم الأمة بالأمة كان قد استعمل خالدًا القويّ الجلد الشجاع، سيف الله، في حروب أهل الردّة، وقد كان الأمر مع الخليفة عمر- رضي الله عنهم أجمعين- مختلفًا من حيث الموازنة.

إذ أراد الفاروق عمر استعمال أبي عبيدة الجراح الذي عُرف بليته ورحمته بدلًا عن خالد، حتى لا يغلب على أمر الحكم الشدّة والقوّة بل تكون ثمة موازنة ضرورية لعدالة الحكم واستمرار المسير. والصفات هنا منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب ومنها ما هو عقلي ومنها ما هو عملي.

وأهمّ الصفات: الأمانة، القوة، الشجاعة، الحلم، الأناة، التوكل، ومنها الفهم والاستيعاب، والفراسة والدقّة.

ومنها الشعور بالمسؤوليّة، والنظام، والتضحية، والإيثار، والبلاغة وحسن الخطاب، وعدم المساومة. وثمة شروط في المسؤول لا يُنظر إليها من حيث تعلّقها بالذات بقدر تعلّقها بالآخرين، ومن هذه الصفات صفة (الأصلاح)، وفي ذلك يقول النبي^(٢) (ص): (من ولي في أمر المسلمين شيئاً، فولّى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله)، وفعله (ص)، يوم فتح مكّة مع مفاتيح الكعبة إذ طلبها منه العباس، ليجمع له بين السقاية والسدانة، فأبى الرسول إلا إن يؤدّي الأمانة إلى أهلها، فدفعها إلى عثمان؛ إلى بني شيبه، وأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) ينظر: السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبد الحلیم عبد السلام بن تيمية تحقيق: عصام فارس الحريثاني، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٣١٤هـ-١٩٩٣م، ص٢٩.

(٢) الحديث أخرجه الحاكم ٩٢/٤، عن ابن عباس بنحوه ولفظه (من قلّد رجلاً عملاً على عصابة وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين).

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا - النساء: ٥٨-٥٩.﴿

ووصف الأصلاح بالتأكيد يعني الكفاءة والكفاية التي تتمتع بها ذات المسؤول من قوّة وأمانة وإخلاص وورع، إلخ.

ويوم يتعارض أو يكون في الأمر أكثر من شخص تتوافر فيه الصفات المرضيّة، فإننا نجعل مقياس تقديم زيد على عمرو وصف الأصلاح، من حيث الحال والمقام الذي هو فيه، لذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإذا تعيّن رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوّة، فُدّم أنفعها لتلك الولاية، وأقلّها ضررًا، فيقدّم في إمارة الحروب، الرجل القويّ الشجاع، وإن كان فجورًا فيها على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينًا)^(١).

ويعلّل ذلك الاختيار الإمام أحمد- رحمه الله- فيقول: (أمّا الفاجر القويّ، فقوّته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأمّا الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القويّ الفاجر)^(٢)، وهو يشير إلى معنى الحديث الشريف: (إن الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر)، وروي: (بأقوام لا خلاق لهم)^(٣).

أمّا وجود من يجمع بين الأمرين فهذا هو من يبعثه الله تعالى على رأس كلّ مئة سنة؛ ليحيي أمر هذا الدين ويجدّد صرحه، ولقلّة هؤلاء كان الفاروق يقول: (اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وضعف الثقة).

(١) ينظر: السياسية الشرعية، ص ٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧.

(٣) الحديث: أخرجه أحمد ٣٠٩/٢، والبخاري، (٣٠٦٢)، (٤٢٠٣)، (٦٦٠٦)، ومسلم، (١١١)، والدارمي ٢٤٠/٢ - ٢٤١.

المطلب الرابع: المسؤولية بحدود المستطاع

فإنّه (جلّ جلاله) قد حدّد المسؤولية والتكليف بحدود الاستطاعة البشرية إذا توافرت فيها شروط التكليف، وحصرتها في الطاقة التي زوّد بها العبد، وذلك كرمًا وهبة منه سبحانه، فهو الخالق العظيم اللطيف الحكيم، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا - الطلاق: ٦٥﴾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا

وإذا كان مقدار التكليف بمقدار الهبة الربّانية للعبد، فإنّ المسؤوليات، بلا شكّ، تتفاوت على وفق ما أنعم به المولى وما يليق بعدالة السماء.

ومن هنا فإنّ مسؤولية الفقير ليست كمسؤولية الغنيّ، وكذا مسؤولية ذي العذر كالمريض، أو الأعرج، أو الأعمى، ومسؤولية من أنعم الله عليه بالصحة والسلامة من كلّ هذا وذلك، في ميادين الحياة ومتطلّباتها الدنيوية والدنيوية من جهاد ورباط وعمل.

كما أنّ التّفاوت بين من نشأ في بيئة مهية الظروف والأسباب؛ بأن يتعلّم ويتفهّم ماله وما عليه تجاه دينه وخالقه، وتجاه الآخرين، يختلف عن ذلك الذي نشأ وترعرع في بيئة تفتقر إلى كلّ ذلك، وكذا الفرق بين مسؤولية الموسع والمقتّر في ميدان الأنفاق والبدل، وهذا التفاوت سنّهُ الله تعالى في خلقه^(١).

وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة تحمل هذا المعنى، وتوضّحه للعباد، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ - النور: ٦٢﴾.

أمّا عن البيئة المساعدة والمشجّعة على الخير والمعروف، فيقول تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا - الأحزاب: ٣٠﴾.

(١) ينظر: السنن الإلهية، د.عبد الكريم زيدان، ص ٨٥، ٢٧٢.

فإن من تربّي في بيت النبوة، أو عاش فيه، ليس كغيره، ذاك أنّ ما يُتلى فيه من الذكر والآيات وما يُنظر فيه من الرحمة والبركات والأنوار والمعجزات، هو الذي رفع درجة المسؤولية إلى هذا الحدّ والمقدار.

وإنّ العدل الإلهي في الآية الكريمة بيّن صريح، فكما جعل العذاب والحساب ضعفين لتوقّر أسباب الهدى والتقوى، إن هنّ أتيتن بفاحشة -حاشاهنّ- -ورضي الله عنهنّ- أجمعين فكذلك من العدل الربّاني أن يكون لهنّ الأجر مرّتين والوعد بالرزق الكريم.

وكذلك أشار القرآن إلى تفاوت المسؤولية على وفق تفاوت النعم والكرم الإلهي على العباد في باب المسؤولية بالنفقة، إذ يقول جلّ وعلا: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا - الطلاق: ٧﴾.

وثمة وقفه نشير بها إلى أهمّية ذلك التفاوت في تحقيق الامتحان الربّاني المشمول بعدله سبحانه وتعالى؛ إذ إن الفقير الذي لم يُبتلَ بالمال ومسؤوليته تراه مبتلى بالقيام بنعم الله الكبيرة الأخرى عليه، كالصحّة والفراغ والبيئة وغير ذلك من النعم، لذا كان من حكمته جلّ جلاله أن جعل أساليب الامتحان ومظاهره متنوّعة.

يقول د. عبد الرحمن حسن حنبكة: ((ولله حكمته العظيمة في شأن التفاوت في الهبات والخصائص، منها أن يتمّ نظام الكون بهذا الإبداع الرائع الذي هو عليه، وأن تتكامل عناصره وأجزاؤه المختلفة تكاملاً لا نقص فيه ولا خلل، وأن يكون على أمثل صورة يتمّ فيها تحقيق ظروف الامتحان الربّاني))^(١).

وهذا التفاوت يتناغم وينسجم مع ما بدأنا به الموضوع، وهو أنّ العباد مكلفون ومسؤولون كلّ بحسب طاقته وسعته، وبالتالي كان من الرحمة والعدالة الإلهية تفاوت وتنوّع تلك المسؤوليات والابتلاءات بتفاوت الوسع والطاقات.

(١) العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٥١٤.

المبحث الثاني: حدود وضوابط المسؤولية

المطلب الأول: المثالية والواقعية في القدوة والأسوة المحمدية:

وتتجلى في قصة نفر من المسلمين على عهد رسول الله (ص) استقلوا الطاعة، والعبادة، فقال أحدهم: أصوم، ولا أفطر، وقال الآخر: أقوم فلا أنام، وقال الثالث: لا أنكح النساء- ظناً أن هذا هو الشكل الأمثل للقيام بحق المسؤولية الدينية الذاتية، وصل خبرهم للرسول (ص) فجمع الناس وقال:

((أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له؛ لكتي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مِنِّي))

ونصّ الحديث: ((جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبيّ (ص)، يسألون عن عبادة النبيّ (ص)، فلما أُخبروا، كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبيّ (ص) قد عُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؟ فقال أحدهم: أمّا أنا، فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله (ص) فقال: أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم لله، لكتي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مِنِّي))^(١)، وهكذا فإن الحديث الشريف يوضّح حدود المسؤولية الفردية، وما هو مثالي وواقعي في آن واحد، فإن الواقعية في السلوك، والمثالية في السعي ببلوغ أفضل صورة يكون عليها سلوك، فهما وجهان لحقيقة واحدة.

وأهمّ ما يُذكر هنا: أن نعلم بأن النبيّ (ص) هو الأصل والقاعدة والأسوة والقدوة والمثل الأعلى الذي تقاس على فعله الأفعال وعلى قوله الأقوال، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا - الاحزاب: ٢٢﴾.

فإنّ من كان منشغلاً بالله ورضاه وبإعداد النفس للسؤال فإنّ عليه أن يفهم أن طريقه ومنطلقه وقيوده هو رسول الله (ص).

(١) الحديث، أخرجه البخاري، ٢٧/٢.

وفي الآلية إشارة إلى صفات من قامت به المسؤولية وبانت عليه آثارها، فهو يرجو ما عند ربه من نعيم دائم، منشغل بتلك الدار التي لا تدخل إلا بعد السؤال عن أمور كثيرة ونعم لا تُحصى في الدنيا، وأن هذا العبد كان دائم الشعور بالمسؤولية في كل أحواله وأفعاله بدليل أنه من الذاكرين الله كثيرًا.

وبعد ما تقدّم يمكنوضع بعض النقاط في حدود المسؤولية وضوابطها:

١. بشريّة العباد، يلزم منها بشريّة المسؤولية.

٢. "أن هذا الدين متين، ولن يشادّ الدينَ أحدٌ إلاّ غلبه"^(١).

٣. أن الله تعالى قد جعل للعبد في شرعه رخصًا وعزائم، وهي تناسب واقعية الإنسان، وما بداخله من طموح.

٤. عدم التكلّف ما وُجد الأيسر، كان (ص) يختار من الأمور أيسرها، تقول السيّدّة عائشة- رضي الله عنها-: (ما خيّر رسول الله بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا كان أبعد الناس عنه...)^(٢)، وقوله (ص): (يسرّوا ولا تعسّروا)^(٣)، وهذا يعين على صدور العبادة والقيام بالمسؤولية عن طيب نفس وانشراح صدر واستمرار بالعمل.

٥. الوقوف والتمسك بالقُدوة والأسوة (ص) في الأفعال والأقوال والأحوال والأخلاق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا - الْأَحْزَاب: ٢١﴾.

ولا بدّ من الوقوف قليلاً عند الرخصة والعزيمة، والكلام على تلك القاعدة الأصولية: "الحرص مرفوعٌ عن المكلفين"^(٤).

(١) الحديث: أخرجه البخاري ٣٩، والنسائي ١٢١/٨-١٢٨، ونصّ الحديث ((إن هذا الدين يسر، ولن يشادّ الدين أحدٌ إلاّ غلبه فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والرواح، وشيء من الدلجة)).

(٢) الحديث: أخرجه البخاري ٢٣٠/٤، ومسلم ٨٠/٧.

(٣) الحديث أخرجه أحمد ١٣٠/٣، والبخاري، ٢٧/١، وفي الأدب المفرد ٤٧٣، ومسلم، ١٤١/٥.

(٤) ينظر: المغني، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدمشقي الحنبلي (ت ٦٢٠هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ود. عبد الفتاح محمد الحلوة، مطبعة هجر، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ٣/١٢٥، ١٢٦.

ذاك أن هذه القاعدة معللة بعلتين:

الأولى: الخوف من الانقطاع وعدم الاستمرار للعمل، أو صدور الفعل عن غير طيب وضجرٍ ومللٍ وكرهيةٍ للتكليف، وما يشتمله ذلك الخوف من إدخال ما يؤذي الجسد، أو العقل، أو المال.

والنَّاس في هذا الأمر على ضربين:

ضرب يحصل له بسبب إدخال نفسه في العمل تلك المشقة الزائدة على المعتاد؛ فتؤثر، أو تحدث له ضجرًا، ومللاً، وقعودًا عن النشاط إلى ذلك العمل، كما هو الغالب في المكلفين؛ فمثل هذا لا ينبغي أن يرتكب من الأعمال ما فيه ذلك، بل يُترخَّص فيه بحسب ما سُرع له في الترخُّص، إن كان مما لا يجوز تركه، أو يتركه إن كان مما له تركه، وهو مقتضى التعليل؛ ودليله قوله (ص): ((لا يقضي القاضي بين اثنين، وهو غضبان))^(١)، وقوله: ((إنَّ لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، وهو الذي أشار به (صلى الله عليه) على عبد الله بن عمرو بن العاص، حيث بلغه أنه يسرد الصوم، وقد قال بعد الكِبَر: ليتني قبلت رخصة رسول الله (صلى الله عليه)^(٢).

وضرب شأنه ألا يدخل عليه به ذلك الملل، ولا الكسل؛ لوازعٍ هو أشدَّ من المشقة، أو حادَّ يسهل به الصعب، أو في العمل من المحبَّة، ولما حصل له في هذه اللدَّة؛ حتَّى خَفَّ عليه ما ثقل على غيره، وصارت تلك المشقة في حقه غير مشقة، بل يزيده كثرة العمل وكثرة العناء فيه نورًا، وراحةً، أو يحفظ عن تأثير ذلك المشوِّش في العمل بالنسبة إليه أو لغيره؛ كما جاء في الحديث: حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ،

(١) الحديث: أخرجه مسلم، ١٧٧، والبيهقي، ١٠/١٠٥.

(٢) الحديث: أخرجه أحمد، ١٨٨/٢، والبخاري، ٥١/٣، ومسلم، ٤٠/٧، ١٦٢٣-١٦٢٤/٣.

قال: وجُعِلت فُرّة عيني في الصلاة^(١) وقال (ص) لَمّا قام حتى توَرّمت قدماه: ((أفلا أكون عبداً شكوراً))^(٢).

وأما الثانية: فالخوف من التقصير إذا ازدحمت عليه الوظائف مع ما كُلف به من طاعات وعبادات هي حقٌّ لله على العبد، حتى إذا شغل نفسه بعمل اضطره إلى قطع غيره، لا سيما حقوق الغير، إذ دخوله في عمل جديد يجعله يقصر في غيره وفيه أيضاً، فيكون ملوماً غير معذور، إذ المطلوب القيام بالكلّ دون الإخلال بأيّ حقّ من الحقوق التي يُسأل عنها، حقّ النفس، وحقّ الأهل، وقبل هذا وذاك حقّ الله عزّ وجلّ.

المطلب الثاني: الاعتدالية والوسطية:

فالشعور بالمسؤولية ليس إفراطاً وتطرّفاً؛ ذاك أن الشعور بها لا يعني التنطع والتكلف والمبالغة التي يكون معها تجاوز الحدّ الذي يصلح معه حال الفرد والمجتمع.

كما أن ذلك لا يعني اللامبالاة وترك الأسباب والاعتماد على حصول خوارق العادات ومنهجية "البركة".

فأما الطرف الأول (الإفراط) فننتقل فيه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ - المائدة: ١٠١﴾.

ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى قد عفا عن أشياء وترك فرضها أو تفصيلها ليكون في الإجمال ثمة سعة ورحمة، ثم يضرب الله لنا مثلاً ببني إسرائيل فيمن كان قبلنا، (إذ كانوا يشددون على أنفسهم بالسؤال عن التكليف والأحكام، فلما كتبت

(١) الحديث: أخرجه أحمد، ١٢٨/٣، والنسائي: ٦١/٧.

(٢) الحديث: أخرجه الحميدي، ٧٥٩، وأحمد، ٢٥١/٤، ومسلم، ١٤١/٨.

عليهم كفروا بها ولو سكتوا عنها وأخذوا الأمور باليسر الذي شاءه الله لعباده ما شُدّد عليهم، وما احتملوا التقصير والكفران^(١).

وقد كان في قصة البقرة التي أمرُوا بذبحها خير مثال وتبيين فلو ذبحوا آية بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا فشدّد الله عليهم، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبيّ (ص) أنه قال: ((ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتروا ما استطعتم))^(٢).

وقال (ص): ((إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحدّ حدودًا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم- غير نسيان- فلا تسألوا عنها))^(٣).

وبناء على ذلك، نقول ليس من باب الشعور بالمسؤولية أن يصل حال العبد إلى هذا المستوى المقيت، فزيادة الشيء عن الحدّ المعقول والمقبول تأتي بنتائج سلبية.

فليس التشديد أو التنظع أو الوسوسة من قبيل الشعور المحمود بالمسؤولية؛ ذلك أن الشرع الحنيف إنما جاء رحمة وكرمًا من الله عزّ وجلّ وأنّ ما بلّغ به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من الوحي، إنما مقصوده أن يسعد هذا الإنسان في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى - طء: ١٢٣﴾.

بل إن العبد الذي يبالغ ويكثر السؤال حتى يكون سؤاله سببًا في تحريم ما كان مسكوتًا عنه رحمةً ولطفًا من الله، إنما يكون في عداد المجرمين.

(١) ينظر: تفسير الظلال، ٩٨٦/٢.

(٢) الحديث: أخرجه أحمد ٣١٣/٢، ومسلم ٩١/٧.

(٣) الحديث: أخرجه الحاكم في مستدركه، ١٢٩/٤، برقم (٧١١٤). عن أبي ثعلبة الخشني ت والهيثمي، علي بن أبي بكر، في مجمع الزوائد، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٧١/١. عن أبي الدرداء رضي الله عنه، والبيهقي، في السنن الكبرى، مكتبة دار الباز مكة المكرمة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ١٢/١٠. واللفظ له.

قال عليه الصلاة والسلام: ((إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً، من سأل عن شيء لم يُحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألتهم))^(١).

كما أن سلوك مثل هذا الطريق، يزيد على العبد من طوله وكثرة عثراته فيصل بنا إلى مرحلة الترك للعمل والأمر الذي قد زاد بسؤاله وتنطعه شدةً وعسراً ومشقةً، فلا طاقة للعبد على تحمّله أو الاستمرار معها على المسير، والمواصلة، لذا قال تعالى عن أولئك الذين كانوا يسألون أنبياءهم ويكثرون مسألتهم، بأنهم لما كتب عليهم ما سألوا كفروا به ولم يعملوه.

قال تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ - المائدة: ١٠٢﴾، ويقول جلّ جلاله عن أصحاب البقرة التي أمروا بذبحها فتنطعوا: ﴿فَدَبَّحُوا بِهَا غَدَاةً كَاذِبِينَ - البقرة: ٧١﴾ (لغلاء ثمنها ولندرة أوصافها والقيود التي كانت بسبب مسألتهم، ولتطويلهم وكثرة مراجعاتهم)^(٢).

وثمة اعتراض أجاب عنه الإمام القرطبي في المسألة الثامنة، وهو يذكر ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ - المائدة: ١٠٢﴾.

فيقول رحمه الله: ((إن قائل: ما ذكرتم من كراهية السؤال والنهي عنه يعارضه قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ - النحل: ٤٣﴾.

فالجواب أن هذا الذي أمر الله به عباده هو ما تقرّر وثبت وجوبه مما يجب العمل به، والذي جاء فيه النهي هو ما لم يتعبّد الله عباده به، ولم يذكره في كتابه، والله أعلم))^(٣).

كما ذكر ذلك الجواب الإمام الشوكاني في تفسيره، فقال:

((ولا بدّ من تقييد النهي في هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قدّمنا، لأنّ الأمر الذي تدعو الحاجة إليه في أمور الدين والدنيا قد أذن الله بالسؤال عنه، فقال:

(١) الحديث: أخرجه مسلم ١٨٣١/٤.

(٢) ينظر: تفسير الشوكاني، الفتح القدير ١٢٥/١، وحاشية القوني على تفسير البيضاوي ٤٠٦/٣.

(٣) أحكام القرآن الكريم ٢٥٨/١١، والآية في سورتي، النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧.

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ - الأنبياء ٧﴾، وقال (ص): "قاتلهم الله ألا سألوها وإنما شفاء العي السؤال" (١).

المطلب الثالث: إمكان العمل.

فليس من المسؤولية في شيء أن تكلف بالنقائص والأضداد أو المحال والخيال وإنما ما يكون في الوسع والطاقة ذلك أن الالتزام في المسؤولية مشروط بكونه يسيرًا على الطبيعة الإنسانية وبمعنى آخر أن يكون خاضعًا لإرادة الإنسان (٢).

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... - البقرة ٢٨٦﴾.

وسبب نزول هذه الآية: أن الصحابة رضوان الله عليهم اعتقدوا بادئ الأمر بأنهم مؤاخذون على كل شيء لقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - البقرة ٢٨٤﴾، فعن عليّ (ع) أنه قال، لما نزلت الآية: أحزنتنا، قال: قلنا يحدث أجدنا نفسه فيحاسب به لا ندرى ما يُغفر منه ولا ما لا يُغفر، فنزلت الآية بعدها فنسختها: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... - البقرة ٢٨٦﴾.

فظنوا أن كل ما يخطر بالقلب مشمول بها، وبالتالي فإن العزائم والأفكار والرغبات، أو الهواجس، بل حتى التخيلات كلّ ذلك مؤاخذون عليه فكان في الأمر من الشدة والحرص ما كان، وقد ورد أنهم أتوا رسول الله (ص) ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كُفنا من الأعمال ما نُطبق: الصلاة والصوم والجهاد، والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نُطبقها، فقال رسول الله (ص): ((أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: "سمعنا وأطعنا" غفرانك ربنا وإليك المصير)) حتى نزلت الآية التي بعدها لتبين لهم أنّ كلّ ما هو خارج عن طاقة الإنسان وسعته في الفعل أو الترك هو خارج عن نطاق

(١) الحديث: أخرجه الحاكم في مستدرکه ٢٨٥/١، برقم (٦٣٠)، وفي سنن الدارمي ٢١٠/١، برقم (٧٥٢)، وينظر: فتح القدیر، ١٢٦/١.

(٢) دستور الأخلاق، ص ٨٧.

التكليف المأمور به^(١)، وكذا أمر الحبّ والبغض والخوف والغضب، فإنها لا إرادية فلا تكون مناط تكليف، ولكنّ دواعيها مما يُسأل عنه العبد.

فإن أمر الحبّ ليس إراديًّا، وأعلى مثل في هذا محبة الله تعالى، فإنها حالة عاطفية وكذا محبة رسوله (ص)، وهذا أمر ليس إراديًّا يمكن أن يُكتسب بأسباب إرادية كالتفكّر والتأمّل في صفات الله عزّ وجلّ وسعة رحمته وصبره على خلقه ستره وعفوه وكرمه العظيم، بهذا ستتّجه عاطفة الإنسان نحو فطرته وما جُبل عليه من حبّ من أحسن إليه، وقد ورد في الأثر قوله (ص): ((أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمة))^(٢)، وهنا تجد أن الأمر بحبّ الله أصبح في حيّز المقدور، وداخل في الإرادة بعدما يتفكّر الإنسان بأنّ من يغذوه ويربّيه وينعم عليه هو الله جلّ جلاله.

وكذا محبة النبيّ (ص) وقوله: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه ولده ووالده والنّاس أجمعين))^(٣)، وقول عمر ابن الخطّاب لرسول الله: يا رسول الله لأنّ أحبّ إليّ من أهلي وولدي والنّاس أجمعين، إلّا من نفسي، ثمّ ذهب متأملاً فعاد مُقرّاً معترفاً يُشهد الرسولَ (ص) بأنّه أحبّ إليه من نفسه.

وكذا الغضب في قوله (ص): ((لا تغضب))^(٤) فإنّ الأمر متوجّه إلى آثار تلك العاطفة وليس إلى أسبابها... أي إن وقعت في هذا الحال، فإياك أن تفعل فيه ما أنت محاسب مسؤول عنه.

أمّا قضية التكليف بما لا يُطاق واختلاف أهل الكلام فيها فليس محلّها ههنا.

(١) ينظر: تفسير القرطبي، ٣/ ٤٢٧.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي، (٣٧٨٩).

(٣) الحديث: أخرجه أحمد، ١٧٧/٣ و ٢٧٥، ومسلم، وابن ماجّة، (٦٧)، والبخاري، (١٥).

(٤) الحديث: أخرجه البخاري، ٢٢٦٧/٥، صحيح ابن حبان، لمحمّد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي

(ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، بيروت، ١/ ٥٣١.

المطلب الرابع: اليسر العملي.

"أن يكون هذا النشاط ميسرًا في واقع الحياة المحسوسة، أي يمكن ممارسته، وغير استبدادي" (١).

ومعنى ذلك أن العبد ليس مسؤولاً عما إن فعله أدّى به إلى مشقة أو مهلكة أو عما إن تركه كان في الأمر مشقة وعنّت يصعب على العادة الإنسانية والطاقة البشرية تقبّلها، وإن كانت في حدود طاقته، لكن مع ملازمة العنت والمشقة المانعة لديمومة العمل واستمراره.

يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ - البقرة: ١٨٥﴾، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ - الحج: ٧٨﴾، ويقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا - النساء: ٢٨﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ - الانبياء: ١٠٧﴾، فكلّ ما في هذا الدّين من تشريعات مؤطرة بهذه الوصف الرّحيم وهذا اليسر الكبير.

وفي القرآن الكريم مظاهر عدة على ذلك منها قوله تعالى: ﴿فَأَقْرؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ - المزمّل: ٢٠﴾.

وبداية السورة تتكلم على منهج تعبدي أمر به النبي (ص)، من قيام الليل وترتيل القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ / فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا - المزمّل: ١، ٢﴾، وقد كان بعض الرجال من صحابته رضوان الله عليهم يحاولون فعل ما يفعله النبي (ص)، فجاءت الآية الكريمة توجّههم نحو السبيل الأقوم وتلفت أنظارهم إلى أنهم عرضة للمرض والسفر وغير ذلك مما يصعب الالتزام بالمنهج التعبدي الذي أمر به النبي (ص)، فجاء بما يناسب الطاقات وتستسيغه العقول والقابليات في كلّ عصر ومصر وفي كلّ حال وظرف بأن يقرؤوا من القرآن ما يناسب حالهم وظرفهم، ويُعينهم على الاستمرارية والديمومة في تلك الطاعات والعبادات، بل إن النبي (ص) نصح الأمة وشدّد على عدم الإفراط في جانبٍ على حساب آخر، وأنّ ذلك ليس من الدّين

والهدي الحنيف، عندما سمع بنفري من المسلمين أرادوا وضع منهج تعبدي لهم ليس فيه مراعاة لبشريتهم وما عليها من ضعف؛ إذ قالوا نصوم فلا نفطر ونقوم فلا ننام ونعزل النساء، فأكد المصطفى (ص) أن الشعور بالمسؤولية والقيام بها حق قيامها إنما يكون بخلاف ذلك أن يصوم العبد ويفطر وأن يقوم وينام وإن ينكح النساء، وأن هذا هو التعامل الصحيح والأمثل مع المسؤولية وحسن أدائها، فعن أنس قال: ((إِنَّ النَّبِيَّ (ص) كَانَ يُصَلِّي ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي حَجْرَتِهِ، فَجَاءَ أَنَسٌ فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَخَفَّفَ، فَدَخَلَ الْبَيْتَ ثُمَّ خَرَجَ، فَعَادَ مَرَارًا، كُلُّ ذَلِكَ يُصَلِّي، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْتَ وَنَحْنُ نَحْبُّ أَنْ تَمُدَّ فِي صَلَاتِكَ، قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ بِمَكَانِكُمْ وَعَمْدًا فَعَلْتُ ذَلِكَ))^(١).

وبناءً على ذلك أن الواجبات الشرعية والمسؤوليات التي على عاتق العبد لم تغفل طبيعة هذا المخلوق والحال التي يمكن أن يكون عليه، أو الظرف الذي يشق عليه القيام بواجبه ومسؤولياته، لاختلاف الحال أو الظرف أو الزمان والمكان.

فجاءت الشريعة مراعية لمقتضيات ذلك الظرف بالتغيير، أو التخفيف، أو التأجيل، أو الإلغاء، ومثال ذلك.

* قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ - الْفَتْحُ: ١٧﴾، ففي الآية الكريمة مراعاة لكل تلك الأعذار والعوائق وإعفاء أصحابها من واجب الدفاع والجهاد في سبيل الله.

* قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ - الْبَقَرَةُ: ١٧٣﴾، وهنا يسمح النص للمسافر الذي لا يجد شيئاً مما أحله الله عليه، أن يأكل مما حرم عليه، وأن يحافظ على نفسه من الهلاك جوعاً أو عطشاً.

* قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ - الْبَقَرَةُ: ١٨٥﴾، فقد أرحى مَنْ له عذر وظرف خاص يجعل من العبادة، أو

(١) الحديث: أخرجه أحمد، ١٠٣/٣، وصحيح ابن خزيمة، لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبي بكر السلمي النيسابوري (ت ٣١١هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، بيروت- لبنان، ١٦٢٧.

القيام بالواجب فيه مشقةٌ وحرَجٌ بان يؤدي ما عليه في وقت آخر أكثر ملائمةً، وأفضل حالاً، ليصدر عمله عن طيب نفس وبشكل متكامل.

المطلب الخامس: التحديد والتدرج.

وهذا شرط ثالث، هو مكتمل لما سبق متعلق بهما، ومعناه أن يكون في المأمورات والمنهيات التي تقع ضمن دائرة المسؤولية، حدٌ أدنى لا يمكن قبول العمل إلا به، على أن لهذا الأمر قابلية الزيادة على ذلك الحدّ وضمن قدرات العبد والطاقة البشرية ليبلغ به أعلى الدرجات وأرفع الكمالات، المقبولة عند الشارع الحكيم.

كما أن هذه الزيادة لها حدٌ يعصمها من الوقوع في الإفراط الذي يُخرج العمل عن دائرة المقبول شرعاً وعقلاً وعرفاً وذوقاً، لذا كان معنى هذا الشرط في المسؤولية، هو كون ما يُكَلَّف به العبد وما يُؤمَر به واقعاً بين حدودٍ، بين كلِّ حدٍّ وما يقابله ثمة درجات، يتفاوت بها العباد من حيث قدراتهم، وما خصَّ الله تعالى كلَّ عبدٍ منهم من نعم تختلف كمّاً ونوعاً عن غيره.

وهذه الحدود هي بين الرخصة والعزيمة، والإفراط والتفريط، والحلال والحرام فهناك حدٌ معلوم للأخذ بالرخصة دون النزول إلى درجة التفريط وحدٌ معلوم للعزيمة دون الوصول إلى الإفراط والتكلف والتنطع، فقد أُحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام ثلاثة أحوال وكذا في الكفارات.

أما عبادة الصيام حالة السفر، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ - البقرة: ١٨٤﴾ فليس في الصيام حالة السفر مع القوة والقدرة والسلم من تنطع وإفراط ما دام الأمر في مقدور العبد وطاقته.

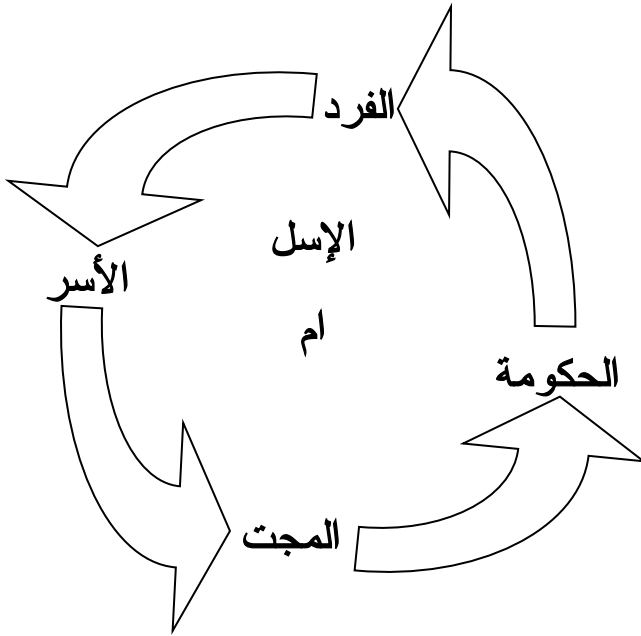
وكذا في مجال التعامل والاجتماعيات، مثاله قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ - البقرة: ٢٣٧﴾

وذلك في حال الخصام والانفصال بين الزوجين وبقاء بعض المتعلقات المادية المستحقة، فهنا يأتي التوجيه والتحديد بالعفو، كما يمكن العفو عنه إكراماً لما كان بين الزوجين من عشرة وخلوة وإفشاء، وليس في ذلك العفو إفراط في تضييع الحقوق ولا تفريط في الحفاظ عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ - البقرة: ٢٨٠﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُور - الشورى: ٤٣﴾.

المطلب السادس: صورة المسؤولية.

ولعلي في اختيار هذا الشكل أكون موقفاً لتوضيح معنى المسؤولية ذات



الأطراف المتشابكة
والفروع المتعددة،
المعقدة أحياناً
والواضحة البيّنة
أحياناً أخرى. والدائرة
شكل له مدلوله عند
علماء الأشكال
والهندسة، واستعمله
كثير من العلماء
والمتكلمين في
توضيح ما يُسمى
بالدور، ولا أقول إنني
سأعيد معنى
المسؤولية هنا بشكل

معقد فلسفي، بل بشكل توضيحي يبين كيف أن المسؤوليات العامة والخاصة الفردية والجماعية يعتمد بعضها على بعض ويكمل بعضها دور بعض...

فكما نرى أن المسؤولية تبدأ في مرحلتها الأولى بالفرد من حيث ذاته وشخصيته وما هو مسؤول عنه ثم تتطور تلك المسؤولية الفردية لتكون أوسع بقليل يوم يختار الفرد شريكاً معه في حياته ليقوما بمسؤوليتهما تجاه الالتزامات الجديدة ثم تتطور هذه العلاقة لتصبح أسرة يشترك الرجل والمرأة أو الراعي لهذه المجموعة على القيام بواجباتها وما قد يُسأل عنه في الدنيا والآخرة، وهذه الأسرة والمجموعة الصغيرة تتطور وتتسع حتى تكون مع مثيلاتها ذلك المجتمع الذي تظهر عليه صفات وعادات وتقاليد وأعراف ومبادئ تلك الأسرة الصغيرة المكوّنة له، ومن ثمّ سيكون من بين أفراد هذا المجتمع الكبير الواسع أفراد يقودون المجتمع ويحكمونه ويسيّرون أعماله ومصالحه، وإذا نظرنا إلى الشكل الدائري أدركنا أمرين:

الأول: اعتماد وجود المجتمعات على الأسر، والأسرة هي اللبنة الأساسية لهذا التكوين الاجتماعي ثمّ إن الأسرة ما هي إلاّ أفراد يقوم بأمرها مسؤول عنها يُسمّى الراعي أو الأب أو الوصيّ أو من هو من هذا القبيل.

الثاني: أن هذا الشكل فيه دلالة على أن المسؤولية في حقيقتها التزامات يتوقّف بعضها على بعض ويكمل بعضها الآخر، ولذا تجد أن مسؤولية فساد الدولة واختلال موازينها متوقّف على عدم قيام المجتمع بواجباته وأداء التزاماته، وعند الكلام على المجتمع واختلاله فإننا سنقف على دور الأسرة وقيامها بالتزاماتها تجاه ذلك المجتمع، فنأتي في تقصير الأب والأمّ اللذين قد يلقي كلُّ طرف منهما السؤال والحساب على الآخر ويلقي باللائمة على صاحبه، والحقّ أن على الزوج والرجل تقع المسؤولية الأصل التي تشاركه فيها الزوجة... ثمّ يبيّن المخطّط مسؤولية تلك الدولة عن ذلك الفرد ثمّ تعود من جديد كما بدأت.

وهكذا ومن خلال هذا المخطّط والشكل الدائري المعبر عن ارتباط والتزام كلّ مرحلة بالتي بعدها، وإن كلّ مرحلة في الدائرة تدور حول محور الشريعة والإسلام وكلّ ما يدين به ذلك العبد وتفرض عليه سلطة الالتزام وأداء الواجب.

خلاصة القول في هذا الشكل الدائري هو تصوير الارتباط والتلازم بين كلّ أطراف المسؤولية. تمّ البحث والحمد لله.

الخاتمة:

بعد إتمام دراسة هذا البحث خرج الباحث بجمللة نتائج وتوصيات، من أبرزها:

- أن المسؤولية الدينية هي مسؤولية عظيمة وكبيرة لا يمكن للأفراد القيام بحقها بمعزل عن الجماعات والحكومات، وبالتالي ما توقّف عليه الشيء كان منه، فالكلّ مأمور ولا يُستثنى من إقامة هذه المسؤولية أحد، والخطيب أول من تُناط به هذه المسؤولية.
- الخطيب مسؤول أمام الله تعالى وعباده عن كلّ ما يصدر عنه من فعل أو قول، فقد حُصّ وكُرم بالأهلية، وبالحرية والإرادة التي تؤهّله وتجعله مسؤولاً عمّا قد يفعله أو يتركه.
- لوازيم وضوابط الخطيب محدودة مؤطرة بالمشروع والممكن، موسومة بالواقعية والمثالية واليسر العملي ممّا يعطي الفعل أو الترك الديمومة والاستمرارية، وهي متّصفة بالتدرّج والمرحلية وبالتحديد الذي يعين على صدور الفعل عن صدق وطيب وإخلاص، فالطاعة مشروطة بالاستطاعة.
- أن طرق هذا العنوان والبحث فيه هو محاولة للفت الأنظار إلى ذلك الجزء المفقود البالغ الأهمية من الأخلاقيات الأساسية لبناء المجتمعات وتحصين الحضارات وإسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام لما فيه من قوّة وقدرة على التقدّم والتطوّر والاكتفاء أو الاستغناء عن الآخرين وتسليط الضوء على عمل الخطيب الناجح.

المصادر والمراجع

- القرآن

- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩هـ)، قدّم له وضبط نصّه، كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الأحكام السلطانية، والولايات الدينية، لأبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (٤٥٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- الأحكام السلطانية، لأبي يعلى الفراء بن محمّد بن الحسين، تحقيق: محمّد الفقي، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ، بيروت- لبنان.
- أحكام القرآن، لأبي بكر محمّد بن عبد الله المعروف بابن العربي، (٤٦٨هـ-٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمّد عبد القادر عطا منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- الإحكام في أصول الأحكام، لسيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمّد الأمدي، تحقيق د. سيد الجميلي، نشر دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٤هـ، بيروت، وطبعة صبيح، ١٣٤٧هـ.
- إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، وبهامشه المغني عن حمل الأنصار، في تخريج ما في الأحياء من أخبار، للعلاقة الحافظ العراقي، تحقيق: عصام عبد الرحيم محمّد، دار ابن الهيثم، القاهرة.
- الأخلاق الإسلامية وأسسها، د. عبد الرحمن حسن حنبكة، دار القلم، دمشق، ط ٦، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- أخلاق النبيّ (ص) في القرآن والسنة، د. أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد دار الغرب الإسلامي ط ٢، ١٩٤١٩-١٩٩٩م.
- أدب الدنيا والدين، لعليّ بن محمّد بن حسين الماوردي البغدادي، توزيع دار الباز، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ، بيروت.
- الأدب المفرد، للإمام محمّد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، نشره قصيّ محبّ الدين الخطيب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٩هـ.
- الأساس في التفسير، للشيخ الإمام سعيد حوى.
- الإسلام عقيدة وشريعة، للإمام الأكبر محمود شلتوت، دار الشروق، الطبعة الثامنة عشرة، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، القاهرة- مصر.
- الأشباه والنظائر، للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، طبعة الحلبي، مصر.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- أصول السرخسي، للإمام أبي بكر محمّد بن أحمد بن أبي سهيل السرخسي، تحقيق أبو الوفا الأفغاني، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار حسان للنشر والتوزيع، ط ١، طهران- إيران، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- أصول الفقه الميسّر، د. شعبان محمّد أسماعيل، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، لفضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط٢.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ط دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- الأمّ، لمحمد بن إدريس الشافعي، (ت٢٠٤هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٢، بيروت- لبنان، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- الانسراح ورفع الضيق في سيرة أبي بكر الصديق، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، دمشق، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- البداية والنهاية، لابن كثير، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ٢٠٠٣م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لأبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني (ت١٢٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
- تاريخ الخلفاء، للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة الشرق الجديدة، بغداد، ودار العلوم الحديثة، بيروت

ملحق الصور





الجلسة الافتتاحية أثناء إلقاء القصيدة الشعرية لسماحة الشيخ عبد الله الخافاني



الجلسة الافتتاحية أثناء إلقاء كلمة سماحة السيد جواد الخوئي



الجلسة العلمية الأولى (المجتمع الإسلامي والتحديات المعاصرة) الجزء الأول، والذي ناقش الإلحاد والجيل المعاصر. مدير الجلسة: الدكتور عباس الفحام، المتحدثون: سماحة الشيخ الدكتور حسن الربيعي وفضيلة الشيخ الدكتور عبد الله ويسبي



الجلسة العلمية الأولى (المجتمع الإسلامي والتحديات المعاصرة) الجزء الأول، والذي ناقش مخاطر التطرف على المجتمع الإسلامي. مدير الجلسة: الدكتور عباس الفحام، المتحدثون: الدكتور عبد الأمير زاهد والدكتور الشيخ طالب أحمد عواد



الجلسة العلمية العلمية الأولى (المجتمع الإسلامي والتحديات المعاصرة) الجزء الأول، والذي ناقش أزمة المخدرات في المنظور الإسلامي والاجتماعي والنفسي. مدير الجلسة: الدكتور عباس الفحام، المتحدثون: الدكتور محسد المظفر والشيخ الدكتور عبد الله الحنفي



الجلسة العلمية العلمية الأولى (المجتمع الإسلامي والتحديات المعاصرة) الجزء الثاني، والذي ناقش الإعلام الرقمي والمجتمع المعاصر. مدير الجلسة: الشيخ الدكتور أنس العيسوي، المتحدثون: الشيخ وائل الظالمي والدكتور جاسم السدر والدكتور حيدر جلوخان



الجلسة العلمية الأولى (المجتمع الإسلامي والتحديات المعاصرة) الجزء الثاني، والذي ناقش الانحلال الأخلاقي وأثره في الأسرة والمجتمع. مدير الجلسة: الشيخ الدكتور أنس العيساوي، المتحدثون: الدكتور مصطفى العلواني والشيخ الدكتور ضياء محمد محمود



الجلسة العلمية الثانية (أثر الخطاب الديني في المجتمع) الجزء الأول، والذي ناقش المنبر الوعظي وأثره في تشكيل الوعي الجمعي. مدير الجلسة: الدكتور علي يعقوبي، المتحدثون: السيد مضر الحلو والشيخ الدكتور عفيف الكيلاني



الجلسة العلمية الثانية (أثر الخطاب الديني في المجتمع) الجزء الأول، والذي ناقش سبل التعايش السلمي بين أفراد المجتمع. مدير الجلسة: الدكتور علي اليعقوبي، المتحدثون: الدكتور حيدر الأسدي والدكتور حسن راشد



الجلسة العلمية الثانية (أثر الخطاب الديني في المجتمع) الجزء الأول، والذي ناقش التعددية في المنظور الإسلامي. مدير الجلسة: الدكتور علي اليعقوبي، المتحدثون: الشيخ الدكتور عارف الأسدي والدكتور إدريس قادر



الجلسة العلمية الثانية (أثر الخطاب الديني في المجتمع) الجزء الثاني، والذي ناقش لغة الخطاب الديني والثقافات المعاصرة ومعايير الخطيب بين الواقع والطموح. مدير الجلسة: الشيخ الدكتور جلال الكبيسي، المتحدثون: الشيخ سمير الخفاجي والدكتور عبد الستار جاسم والسيد الدكتور فارس السلطاني



الجلسة الختامية: المتحدثون: الشيخ ثائر الساعدي والسيد الدكتور زيد بحر العلوم